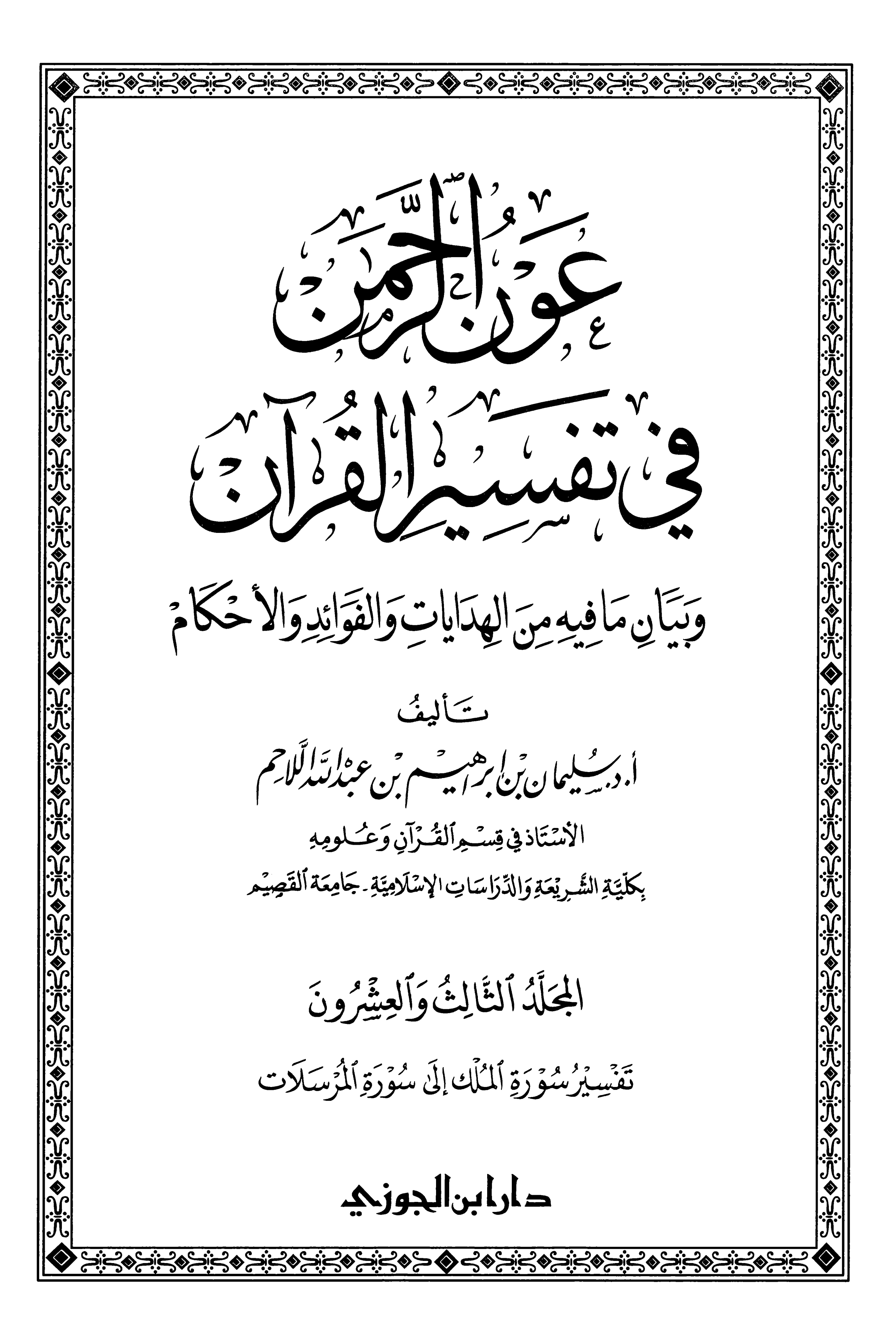


# عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

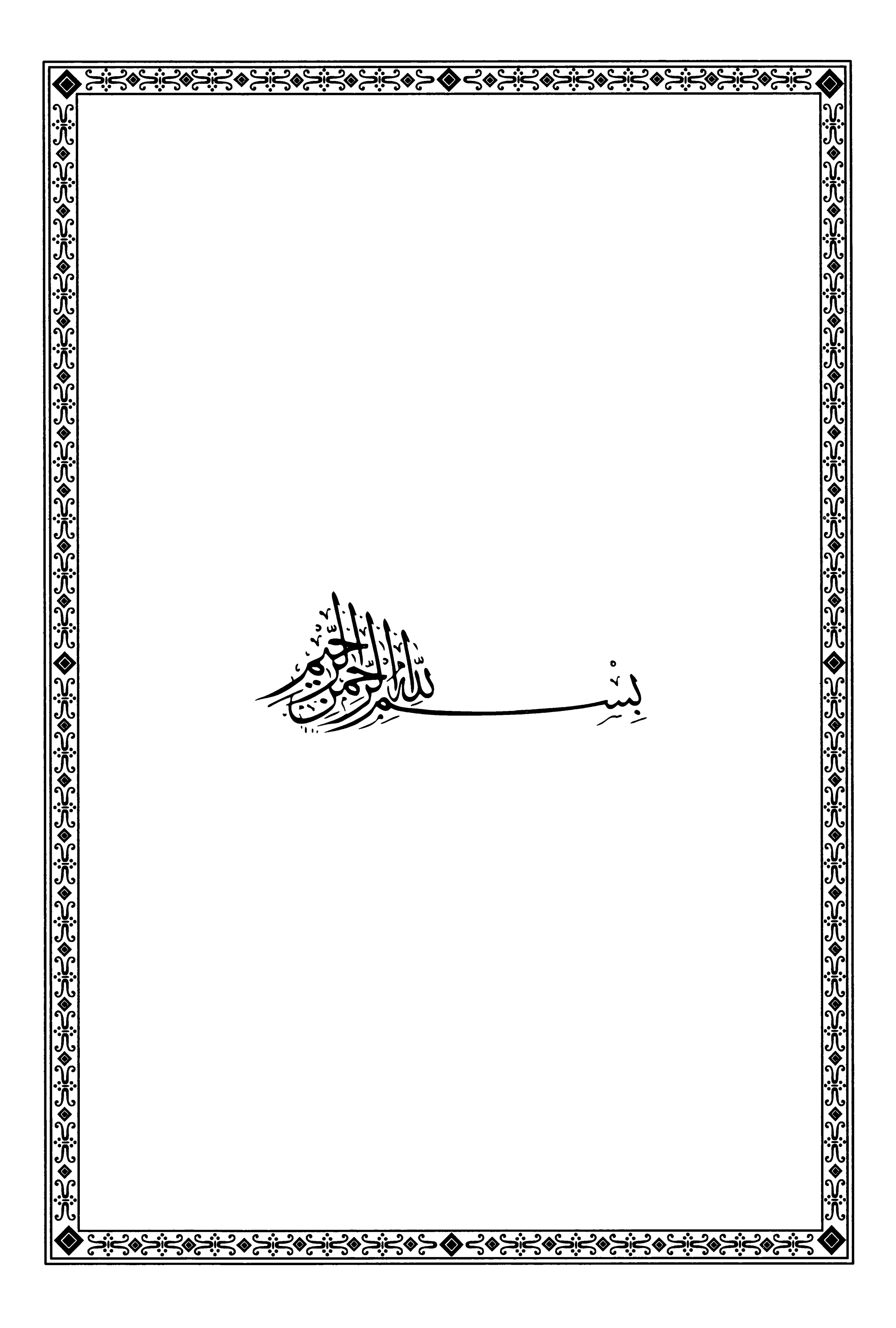
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

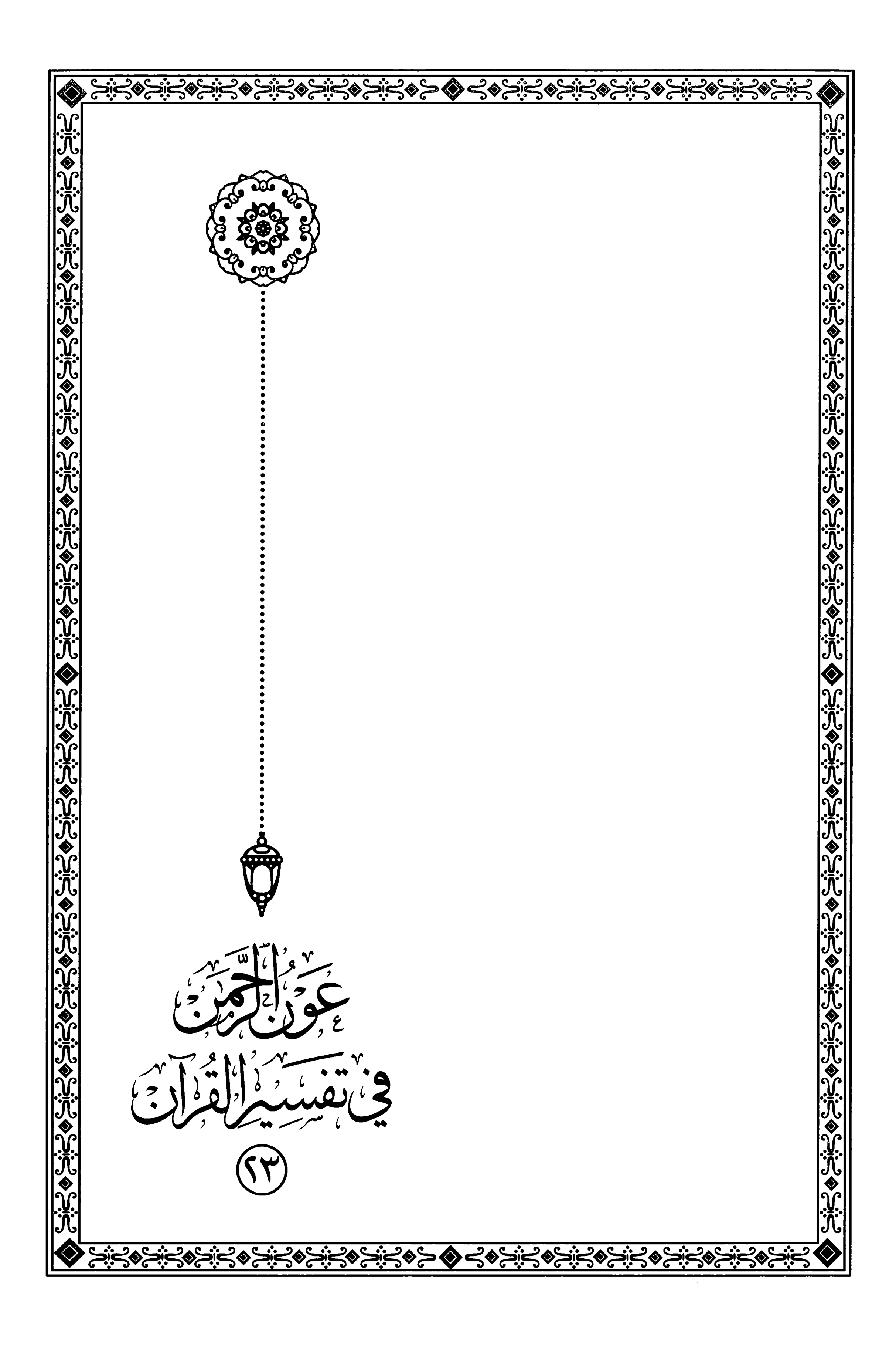
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثالث والعشرون

تفسير سورة الملك إلى سورة المرسلات

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
٢٣






دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net



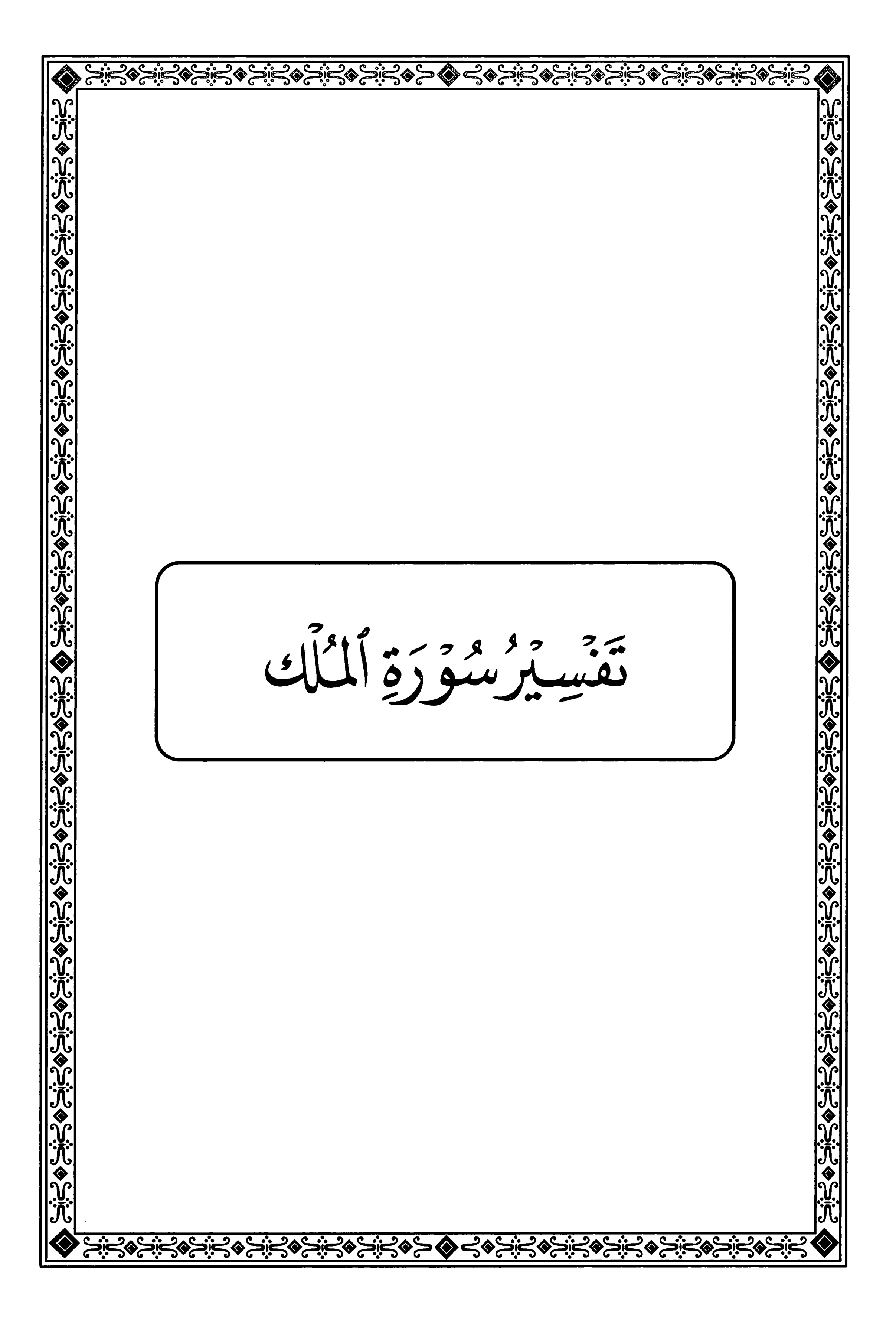
ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
*فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر*
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم .- الدمام، ١٤٤١هـ
٣٨١ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣



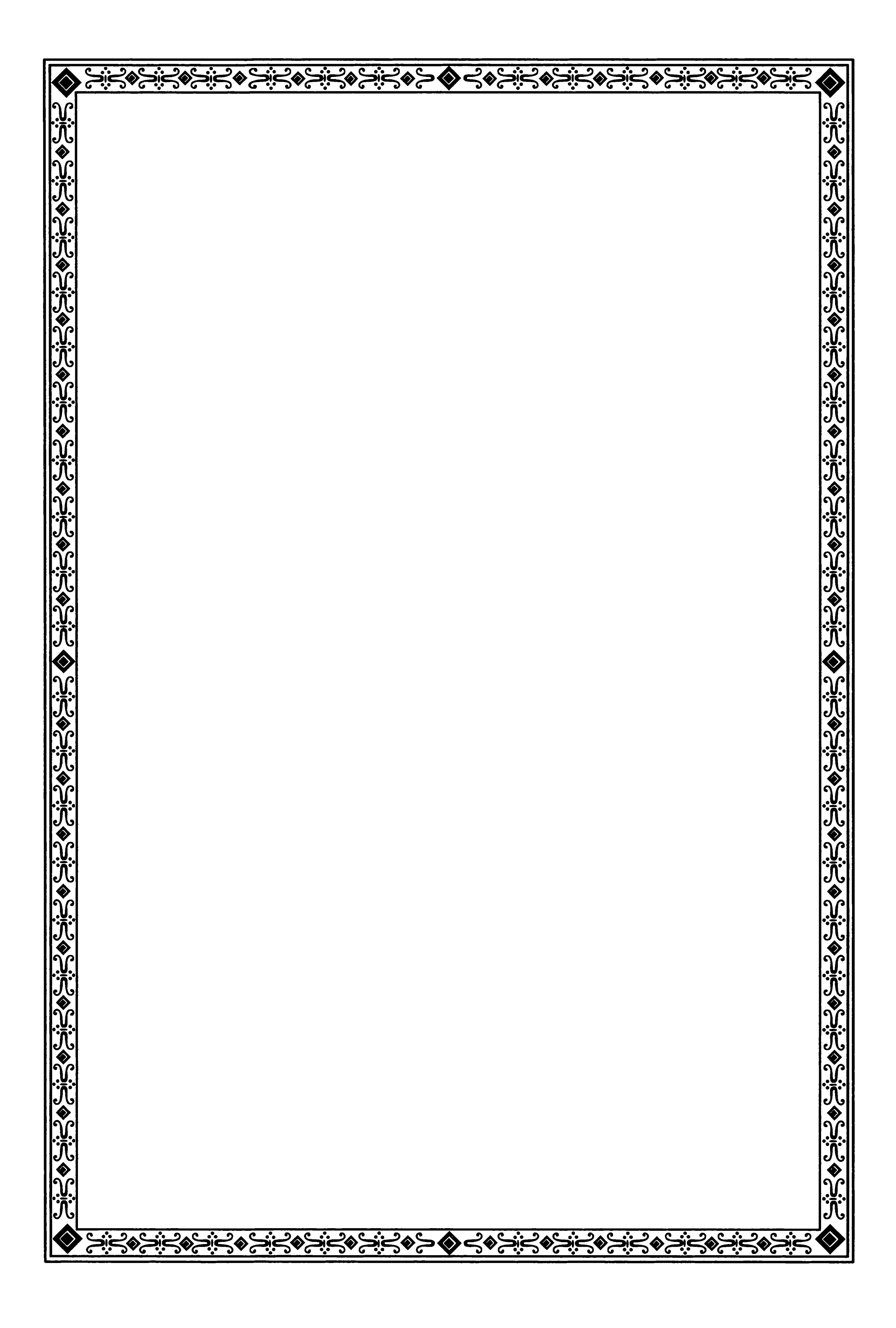


الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

**الباركود الدولي: 9786038274958**



# تَفْسِيرُ سُورَةِ المُلْك



# المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الملك»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية:١].

وتسمى: «سورة تبارك الذي بيده الملك»، كما جاء في حديث أبي هريرة، وأنس، وابن عباس، وجابر رضى الله عنهم.

وتسمى: «سورة تبارك الملك»، و«المانعة»، و«المنجية»، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما. كما تسمى: «الواقية».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## جـ- فضلها:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ وهي سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»(١).

وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «**سورةٌ في القرآن، خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة؛ وهي سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»(٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأ سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأ سورة «تبارك؛ الملك» حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «**هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داوود في الصلاة ١٤٠٠، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩١، وابن ماجة في الأدب ٣٧٨٦، وأحمد ٢/ ٢٩٩، ٣٢١، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه الطبراني والحافظ المقدسي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٠١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٩٠ – وقال: «حديث غريب».

وعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[1].

**د- موضوعاتها:**

١- تحدثت السورة عن عظمة الله تعالى، واختصاصه بالملك، وعن مظاهر تمام قدرته في خلق الموت والحياة؛ ابتلاءً للعباد أيهم أحسن عملًا، وفي خلق السماوات السبع الطباق، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وغير ذلك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

٢- وعيد الذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وبئس المصير، وسوء حالهم فيها، وتقريعهم واعترافهم بتكذيبهم النذر وندمهم حيث لا ينفع الندم: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾.

٣- وعد الذين يخشون ربهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير.

٤- إحاطة علم الله بالسر والجهر، وما في الصدور، وبجميع خلقه.

٥- الامتنان على العباد وبجعل الأرض لهم ذلولًا يمشون في مناكبها ويأكلون من رزقه وإليه مردهم.

٦- تحذير المكذبين من بطش الله وعقابه وتهديدهم بما حل بالمكذبين من قبلهم: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾.

٧- تقرير مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى في إمساك الطير بين السماء والأرض.

٨- الإنكار على المشركين غرورهم وعتوهم وعنادهم، واستعجالهم العذاب، وعدم تأملهم في مظاهر قدرة الله تعالى، وفي نعمه تعالى عليهم﴿في رزقهم وفي خلقهم

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٩٢.

وغير ذلك، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه، وهذا ثناء وتمجيد من الله عز وجل لنفسه الكريمة؛ لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد والتعظيم؛ ولهذا كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[١].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[٢].

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، أي: الذي من عظمته عز وجل أن بيده الملك كله، علويه وسفليه؛ السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهن؛ مالكه وخالقه والمتصرف فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو- سبحانه- ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ أيًا كان هذا الشيء

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، خفيًا أو جليًا، دقيقًا أو جليلًا، أو غير ذلك.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة نافذة؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتأكيد كمال قدرته، عز وجل وشمولها لكل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

وقد أثنى عز وجل على نفسه هنا بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقرونًا بذكر كمال ملكه وقدرته وعظيم آياته في الكون من خلق الموت والحياة وابتلاء الناس أيهم أحسن عملًا وخلق السموات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأثنى على نفسه عز وجل بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ مقرونًا بذكر انفراده بالخلق والأمر وربوبيته للعالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

ومقرونًا بذكر أطوار خلق الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وأثنى على نفسه- سبحانه- بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقرونًا بذكر امتنانه بإنزال القرآن الكريم وملكه السموات والأرض: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وأثنى على نفسه بذلك مقرونًا بوعده عز وجل لنبيه ﷺ بعظم الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٠].

ومقرونًا باسمه عز وجل وربوبيته لنبيه ﷺ، ووصفه عز وجل بالعظمة والإكرام في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ هذا وما بعده إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ تفصيل واستدلال على كمال ملكه عز وجل، وتمام قدرته على كل شيء.

بدأه عز وجل بذكر خلق الموت والحياة والحكمة من ذلك، ثم بذكر خلق السموات السبع الطباق بلا تفاوت ولا فطور وتزيين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين.

ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، أي: الذي قدر الموت والحياة أزلًا وأوجدهما في الحيوان والنبات، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤].

فأوجد عز وجل عنصر الحياة بنفخ الروح في البدن، وعنصر الموت بمفارقة الروح للبدن، والتي لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأوجد الخلائق من العدم وأحياهم بعد أن كانوا أمواتًا ثم يميتهم ثم يحييهم، كما قال عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فسمى ما قبل الخلق- وهو العدم- موتًا- ولهذا قدم ذكر الموت على الحياة في

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لأن الموت سابق للحياة.

فسبحان من أوجد الإنسان في هذه الحياة، فجعله بها يؤمل الآمال العريضة؛ من أجل أن يعمر هذا الكون بأمر الله عز وجل حتى إن الساعة لتقوم ورجل يحمل فسيلة نخل ليغرسها[١]، فالله أكبر.

وسبحان من فضح الدنيا بالموت فلم يدع لذي لب بها فرحًا، أذل الجبابرة، وقصر الأقاصرة، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الخلائق إذ في إحيائهم نعمة من الله- عز وجل- عليهم؛ ليعملوا صالحًا يسعدوا به في دنياهم وأخراهم، وفي إماتتهم جميعًا عدل بينهم ليبعثهم جميعًا ويجازيهم بأعمالهم وينتصر لمظلومهم من ظالمه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، ويختبركم ويمتحنكم، والخطاب للناس عامة.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال أبو تمام[1]:

**قـد يـنعم الله بـالبلوى وإن عظمـت ويبـتلي الله بعـض القـوم بـالنعم**

أي: إن الله عز وجل أحياكم وأوجدكم لأجل أن يبلوكم ويختبركم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيكم أصلح عبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الفضيل بن عياض: «﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أخلصه وأصوبه؛ فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة»[2].

قال ابن كثير[3]: «أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا، بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا، حتى يكون خالصًا لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط».

فالمهم في العمل أن يكون خالصًا لله عز وجل، صوابًا على سنة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال أبو بكر المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[4].

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ ولهذا قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[5].

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[6].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥)، «الإخلاص والنية» لابن أبي الدنيا (ص٥٠).

(٣) في «تفسيره» ٤/ ٢٤١ وانظر ٢/ ٣٧٤.

(٤) ذكره في «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠، وانظر «التفسير الكبير» ١١/ ٩.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) كما في حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم»[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، أي: وهو- سبحانه- العزيز، ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة.

وهو- سبحانه- «الغفور» ذو المغفرة الواسعة، وهي: ستر ذنوب عباده عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

ومن المهم هنا أن نلمح المعنى العظيم، وهو كمال الصفة باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفور» فله العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وله كمال الاتصاف بهتين الصفتين مقترنتين بكون مغفرته مع عزة، وعزته مع مغفرة، فهو كمال إلى كمال.

وهذا بخلاف المخلوق الضعيف- ولله المثل الأعلى- فإن اعتز فقد تحمله عزته على عدم الستر والتجاوز، بل قد يغتر بها فتحمله على الظلم والغشم، وإن غفر وستر وتجاوز فقد يكون بسبب ضعفه لا عن عزة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، أي: أوجد سبع سموات.

﴿طِبَاقًا﴾، أي: كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل سماء مقبية على الأخرى، وكل واحدة منهن أوسع من التي تحتها سعة عظيمة فأصغرهن السماء الدنيا، وأعظمهن وأوسعهن السماء السابعة، وليس معنى ذلك أن كل واحدة منهن ملتصقة بالأخرى.

وقد دل على هذا حديث الإسراء كما في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره:

---

= «جهد المقل» أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٦.

(١) أخرجه النسائي في الزكاة- باب جهد المقل ٢٥٢٧، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٩٩) (٢٤٤٣)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ١٣٥) (٣٣٤٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٠٥) (٧٧٧٩).

«أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة»[(١)].

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[(٣)].

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، «ما» نافية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ما تشاهد أيها الناظر والمتأمل في خلق الرحمن من تفاوت.

ولم يقل: ما ترى فيهن من تفاوت؛ تعظيمًا لخالقهن وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت وهو كونهن خلق الرحمن سبحانه وتعالى.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ثاني اسم من أسماء الله- عز وجل- كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكما قال عز وجل في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الآيتان: ٢، ٣].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال عز وجل في البسملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٤٩، ١٦٣، ومسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٢٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٣.

(٣) أخرجه ابن مهدي فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٧٣٥. وأخرجه بمعناه الدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١ وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨.

﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «تفوُّت» بضم الواو مشددة من غير ألف.

وقرأ الباقون: ﴿تَفَٰوُتٖ﴾ بالألف والتخفيف.

و«مِن» في قوله: ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما ترى وتشاهد أيها الناظر المتأمل في خلق الرحمن أيَّ تفاوت مهما قل.

والتفاوت: الاختلاف والتنافر والخلل والنقص والعيب والاضطراب وعدم التناسب.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، أي: انظر إلى السماء ببصرك وتأمل فيها جيدا هل ترى وتشاهد فيها.

﴿مِن فُطُورٖ﴾، أي: من شقوق وصدوع وفتوق أو خلل ونقص وعيب، و«من» كسابقتها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى.

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾، أي: مرتين؛ مرة بعد أخرى.

﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾، أي: يرجع إليك البصر ذليلًا صاغرًا.

﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه حسيرًا، أي: وهو كليل منقطع نظره من الإعياء من كثرة التكرار وعدم وجود النقص.

والمعنى: فارجع البصر وكرره مرة بعد أخرى، فمهما كررت سيرجع إليك البصر ذليلًا صاغرًا وهو كليل منقطع من الإعياء من كثرة التكرار عاجزًا أن يرى فطورًا وشقوقًا أو عيبًا وخللًا في خلق السموات.

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين إحكام خلقه السموات السبع الطباق وكماله، وخلوَّه من التفاوت والنقص، ثم أتبع ذلك ببيان أنه زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين، وهذه الآية كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام للقسم، و«قد»

للتحقيق، أي: والله لقد زينّا السماء الدنيا، أي: جمّلناها.

و«السماء الدنيا» هي التي تلي الأرض والتي نشاهدها.

و«المصابيح» هي الكواكب النيرة التي تنير الكون، الثابتة والسيارة، كالشمس والقمر والنجوم.

قال السعدي[1]: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾، أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفًا مظلمًا لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالًا ونورًا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع، فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وجعلناها جعلًا كونيا ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: يرجم بها الشياطين عند محاولتهم استراق السمع من السماء.

و«الشياطين» جمع شيطان، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل.

قال ابن كثير[2]: «عاد الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها».

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: عذاب النار المستعرة المتوقدة المشتعلة فـ «السعير» «فعيل» بمعنى «مفعول»، فهي «سعير» بمعنى مسعورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهي نزلهم وضيافتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقال تعالى:

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٣٠- ٤٣١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٤.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦].

والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للشياطين.

أي: جعلنا المصابيح رجومًا للشياطين خزيًا وعذابًا لهم في الدنيا، وأعددنا وهيأنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٦- ١٠].

وعن قتادة قال: «إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[١].

**الفوائد والأحكام:**

١- بركة المولى عز وجل وعلوه وكثرة خيره، واختصاصه بالملك وقدرته التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢- إثبات اليد لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته.

٣- الاستدلال على كمال ملكه، وتمام قدرته عز وجل بخلق الموت والحياة، وخلق السموات السبع وإحكام خلقها، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

٤- أن كسوف الشمس وخسوف القمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده؛ لأن الله لو شاء ما حصل ذلك.

٥- أن الحكمة من إيجاد الموت والحياة، وخلق الخلق من العدم وإماتتهم ومن ثم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢٣.

بعثهم هي ابتلاؤهم وامتحانهم أيهم أخلص عملا وأصوبه؛ ليجازوا على أعمالهم.

٦- الحث والترغيب في المنافسة في تحسين العمل إخلاصًا لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ لقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٧- إثبات أن من أسماء الله عز وجل: «العزيز»، و«الغفور»، و«الرحمن»، وما يؤخذ من ذلك من إثبات صفة العزة التامة، والمغفرة الواسعة والرحمة العامة والخاصة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾.

٨- عظم خلق السموات السبع الطباق، وإحكامها وحبكها بلا فطور ولا شقوق، وتمام خلقه عز وجل وشدته، بلا اختلاف ولا تفاوت؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ الآيات.

٩- تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين، كما أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

١٠- الوعيد الشديد للشياطين بعذاب السعير في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

١١- أن النار موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه أعتد للشياطين عذاب السعير، ثم ذكر ما أعتده لأتباعهم الذين كفروا بربهم من عذاب جهنم الحسي والمعنوي وأن مآل الفريقين المتبوع والتابع عذاب جهنم وعذاب السعير.

قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الواو: استئنافية. والكفر في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، أي: جحدوا وجود الله، وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئًا من ذلك، ولم يؤمنوا.

وتقديم الخبر وهو قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يفيد تخصيصهم بالعذاب وحصره فيهم.

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها.

والجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفار يتخبطون في الدنيا بظلمات الكفر والشك والجهل كان عذابهم جهنم التي هذا وصفها.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: وساء وقبح المنقلب والمآل والمأوى والمرجع جهنم.

ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم سوئها وقبحها- إلا من وصفها بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا سيقوا ودفعوا إليها وأدخلوا فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك: ٨].

وعبر عن سوقهم إليها وإدخالهم فيها بإلقائهم فيها؛ تحقيرًا وإهانة لهم، فهم يلقون فيها كما يلقى الحجر في اليم لا يؤبه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولأنهم أيضًا يساقون إليها سوقًا بشدة، ويدفعون إليها دفعا بعنف، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١].

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾، أي: صوتًا عاليًا فظيعًا قال في اللسان[1]: «الشهيق أقبح الأصوات».

والشهيق في الأصل ما يسمع من صوت الهواء الداخل إلى الرئة، ويقابله الزفير صوت الهواء الخارج من الرئة. قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٦].

وفي الأثر: «أن الرجل يجر إلى النار فتشهق إليه كما تشهق البغلة إلى الشعير»[2].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال عز وجل: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: ١٧].

وهذا من عذاب الأسماع التي صمت عن الحق، واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها تفور، أي: تغلي وتتقلب من شدة حرارتها يقال: فار القدر أو فار الماء في القدر إذا غلى وأخذ يتقلب من شدة الحرارة.

كما يقال فار القدر أو الإناء إذا امتلأ ماءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:

---

(١) مادة «شهق».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن يحيى فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٢٤٨.

٤٠، المؤمنون: ٢٧].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد: تقارب. و«كاد» كغيرها من الأفعال على الصحيح نفيها نفي، وإثباتها إثبات، فقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾، أي: تقارب.

﴿تَمَيَّزُ﴾ أصلها تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: تتفرق وتتقطع، وينفصل بعضها عن بعض، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي: من شدة الغيظ والحنق عليهم، لشدة غضب الجبار عليهم.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ﴾، أي: كلما ألقي وأدخل ﴿فِيهَا﴾، أي: في جهنم ﴿فَوْجٌ﴾، أي: جماعة كثيرة منهم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾؛ إنكارًا عليهم وتوبيخًا وتبكيتًا لهم وتعذيبًا لقلوبهم. و«خزنتها»: هم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾، أي: ألم يأتكم ويبعث إليكم ﴿نَذِيرٌ﴾ مخوِّف ومحذِّر ينذركم ويحذركم جهنم وعذابها، وهم رسل الله عز وجل وأنبياؤه كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على قلوبهم؛ لأن العذاب نوعان: عذاب جسمي حسي يؤلم الأبدان، وهو إصلاؤها بالنار، وعذاب معنوي يؤلم القلوب، وهو التوبيخ والتقريع لهم.

والاستفهام هنا للتقرير؛ ولهذا اعترفوا وأجابوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وأقروا بما قابلوا به نذر الله عز وجل ورسله فقالوا: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ وذلك لافتضاحهم بظهور الحقائق ومعاينتها، فليس المقام مقام إنكار، وليس الخبر كالعيان(١).

والمعنى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أنذرنا وحذرنا عذاب جهنم.

(١) كما جاء في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه أحمد ١/ ٢١٥.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير.

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، أي: نفينا وأنكرنا أن يكون الله نزل أي شيء من الكتب، وقلنا للنذر الذين جاؤونا مكذبين لهم:

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، «إن» نافية، أي: ما أنتم أيها النذر.

﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، أي: إلا في بُعْد وتَيه عن الحق كبير.

فجمعوا بين أمور ثلاثة، كل واحد منها أسوأ مما قبله: أولًا: كذبوا رسولهم. ثانيًا نفوا أن يكون الله نزل شيئًا من الوحي على الرسل لهداية الخلق، وبهذا كذبوا جميع الرسل والكتب، ثالثًا: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين لهداية الخلق بالضلال الكبير.

وهذه عادة المكذبين للرسل يرمونهم بأبشع الصفات؛ لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم، وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله والمصلحين والمربين؛ ليعلموا أن طريق الجنة شاق، وليس مفروشًا بالورود والرياحين، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الروم: ٢، ٣].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

وقد أحسن القائل:

**ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(٢)**

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت لوليد الأعظمي انظر «ديوانه الزوابع» ص٦٩.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ ندموا على تكذيبهم نذر الله وما نزله عليهم، وودوا وتمنوا أنهم سمعوا وتعقلوا ما جاءتهم به النذر فقالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾، أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر، ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ عقُل انتفاع بذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية، وهما: السمع والعقل؛ لعدم انتفاعهم بهما.

﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: ما كنا في عداد أصحاب السعير وساكنيها وملازميها فندموا حين لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر: ٥٦ـ٥٨].

قال ابن كثير[1]: «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾، أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم».

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾، أي: فاعترفوا على أنفسهم بذنبهم بتكذيبهم نذر الله وما نزل عليهم، ورميهم إياهم بالضلال الكبير، وأنهم ما سمعوا ما جاءتهم به النذر ولا تعقلوه.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا حكم من الله عز وجل عليهم بالبعد والهلاك، أي: فبعدًا وهلاكًا لأصحاب السعير وساكنيها وملازميها، فما أشقاهم وأرداهم وأي بعد وهلاك كبعد وهلاك من حكم الله عليهم بذلك فما لهم من سلامة ولا قرب.

وفي هذا الاعتراف من المكذبين دلالة على عدله عز وجل في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٥.

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقد روى أبو البختري الطائي، عمن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[1].

**الفوائد والأحكام:**

١- الوعيد الشديد للذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وأنها بئس المآل والمنقلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾.

٣- فظاعة جهنم وقبح صوتها وشدة غليانها وغيظها على من يلقى فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾.

٤- تبكيت وتوبيخ وتقريع خزنة النار لمن يلقون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي.

٥- إقرار المكذبين واعترافهم في ذلك اليوم بما جاءهم من النذر، وأنهم كذبوهم وكذبوا ما جاؤوا به من الوحي من عند الله ورموهم بالضلال الكبير، لكن هذا الإقرار لا ينفعهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

٦- شدة مكابرة المكذبين للرسل واجترائهم على رميهم بأقبح الصفات تنفيرًا للناس عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٠، وانظر أيضًا ٥/ ٢٩٣.

٧- شدة حسرة المكذبين للرسل وندمهم واعترافهم بذنبهم، وأنهم لم يستفيدوا من سمعهم ولا من عقولهم بل كانت وبالًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

٨- حكم الله- عز وجل- على المكذبين بالبعد والهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للشياطين وأتباعهم الكافرين من عذاب جهنم والسعير وحالهم فيها ومقالهم واعترافهم على أنفسهم وندمهم حيث لا ينفع الندم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لمن خشي ربه بالغيب من المغفرة والأجر الكبير وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال علمه وعدله عز وجل بين الخلائق وسعة علمه- سبحانه- بخلقه وأحوالهم وأقوالهم؛ ممتنًا عليهم بتذليل الأرض وتسخير خيراتها لهم، ومنبهًا أن إليه مردهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣- ٣٤].

والخشية: أشد الخوف؛ لأنها أخص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا قال بعض أهل العلم: من شرط الخشية عظم المخشي، وعلم الخاشي استدلالًا بهذه الآية.

﴿رَبَّهُم﴾، أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

وأضاف اسم الرب إلى ضميرهم؛ تكريمًا وتشريفًا لهم؛ لأن الربوبية قسمان: ربوبية خاصة، وربوبية عامة، والمراد بها هنا الربوبية الخاصة، ربوبية التكريم والتشريف والهداية والتوفيق والحفظ.

والمعنى: أنهم يخشون ربهم ويخافونه، فيمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهو سبحانه غيب لم يروه، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

[ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٩٤].

والغيب ما غاب عن الحواس، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني...»الحديث(٤).

وأيضًا: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله»- إلى أن قال: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، وأحمد ٢/ ٢٥١.

بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» الحديث[1].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر، قُدم؛ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: لهم خاصة مغفرة وأجر عظيم دون غيرهم.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، أي لهم مغفرة لذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب عظيم في جنات النعيم. وإذا كان المولى العظيم وصف أجرهم بأنه عظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه.

وسمى عز وجل ثوابهم أجرًا مع أنه لا يجب عليه- سبحانه- شيء لخلقه؛ تكرمًا منه- سبحانه- وامتنانًا عليهم؛ لأنه هو الذي تكفل به وأوجبه على نفسه، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن القيم[2]:

| | |
|---|---|
| مـا للعبـاد عليـه حـق واجـب | هـو أوجـب الأجـر العظـيم الشـان |
| كـلا ولا عمـل لديـه ضـائع | إن كـان بـالإخلاص والإحسـان |
| إن عـذبوا فبعدلـه أو نعمـوا | فبفضـله والفضـل للمنـان |

فجمع لهم عز وجل بين مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها، وبذلك يزول المرهوب، وبين إثابتهم بالأجر العظيم وبذلك يحصل المطلوب.

وقدم مغفرة الذنوب؛ لأن التخلية قبل التحلية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١.

(٢) في «النونية» ص١٤٩- ١٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

في ذكر هذا بعد ذكره عذاب من كفروا بربهم، وثواب الذين يخشون ربهم بالغيب إشارة إلى أن هذا الجزاء عن علم تام منه عز وجل بخلقه وأحوالهم وأقوالهم.

قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، أي: إن شئتم فأسروا قولكم، وإن شئتم فاجهروا به، فالسر والعلانية عنده- سبحانه- سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفِۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي القلوب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر، والاعتقادات والإرادات والحب والبغض، مما لم تنطق به الألسن لا سرًا ولا جهرًا.

وإذا كان عالمًا بما في القلوب فعلمه بما عدا ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، «ألا»: استفهام إنكار على من أنكروا علمه، عز وجل.

و«من» موصولة في محل رفع فاعل، والتقدير: ألا يعلم الخالق الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه مخلوقه ومصنوعه، وقد تكون «من» في محل نصب مفعول، أي: ألا يعلم الرب مخلوقه.

وفي هذا أبلغ التقرير لكمال علمه عز وجل بالدليل العقلي، وفيه أعظم الإفحام لمنكري علمه عز وجل، فحيث كانوا يقرون بأنه خالقهم وخالق صدورهم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع لا بد أن يعلم مصنوعه.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الواو: حالية، و«اللطيف الخبير» اسمان من أسمائه- عز وجل- كل منهما على وزن «فعيل».

يدل «اللطيف» على دقة لطفه وإحسانه- عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه سبحانه.

فـ«اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي، أي: المحيط علمًا بالدقائق والخفيات والسرائر والمضمرات.

قال ابن تيمية[1]: «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي:

**أحدها**: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها.

**الثاني**: أنه مستلزم للإرادة والمشيئة فيلزم تصور المراد، وهذه الطريقة المشهورة عند أهل الكلام.

**الثالث**: أنها صادرة عنه وهو سببها التام والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع، فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

**الرابع**: أنه «لطيف» يدرك الدقيق «خبير» يدرك الخفي. وهذا هو المقتضي للعلم بالأشياء فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام».

وقال ابن القيم[2]: «الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأمور وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحتويه الضمائر وتخفيه الصدور».

وقد أحسن القائل[3]:

**إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا ... خلوت ولكن قل علي رقيب**

**ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب**

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٤. وانظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

(٣) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

في هذا امتنان من الله عز وجل على عباده، أي: هو سبحانه الذي امتن عليكم بأن جعل الأرض كونًا وقدرًا مذللة منقادة للسير عليها والبناء عليها وحفرها وشقها واستخراج الماء منها واستخراج خيراتها؛ ولهذا قال:

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، أي: سيروا وسافروا حيث شئتم في طرقها وفجاجها وأرجائها ونواحيها وأطرافها في جبالها وأوديتها وسهولها.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، أي: وكلوا مما أودعه فيها، وأخرجه لكم منها من رزقه وعطائه مما يستخرج منها من الحبوب والثمار والفواكه وغير ذلك.

والتعبير بالأكل؛ لأنه الأهم فهو كسوة الباطن- لا يستطيع الإنسان الحياة بدونه وسائر الانتفاعات من الأرض وخيراتها- تبع لذلك.

قال ابن كثير[1] في الكلام على هذه الآية: «ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار؛ فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات».

وفي قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، كما قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا»[2].

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: وإليه وحده عز وجل نشر الخلائق من قبورهم، وعليه حسابهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد- ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد- التوكل واليقين ٤١٦٤، وأحمد ١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

وفي ذكر هذا بعد الامتنان بتذليل الأرض لهم يمشون عليها ويبنون ويسكنون ويأكلون من خيراتها تنبيه وتذكير إلى أن هذه الدار ليست دار بقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار، فهي دار عبور ومرور، لا دار استقرار وحبور، والجاهل المغبون من ركن إليها، والكيس الفطن العاقل الحازم اللبيب من لم يطمئن إليها.

كما رُويَ في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1].

**الفوائد والأحكام:**

١- التنويه بما أعده الله من المغفرة والأجر الكبير لمن يخشونه ويخافونه وهو غيب لم يروه، وإن غابوا عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأهل خشيته، وتكريمهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾.

٣- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن بالتخلية زوال المرهوب بمغفرة الذنوب، وبالتحلية حصول المطلوب بالأجر الكبير كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤- امتنان الله عز وجل على عباده المؤمنين بتسمية ثوابهم أجرًا، وإيجابه عز وجل على نفسه ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

٥- علم الله عز وجل واطلاعه التام على ما أسر به الخلق أو جهروا به وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. وفي هذا ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- من حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن».

٦- تأكيد علمه عز وجل بالخلق، وأنه أعلم بهم وأدرى؛ لأنه خالقهم وهم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «اللطيف» و«الخبير»، وما يؤخذ منهما من إثبات تمام لطفه عز وجل بإدراك أسرار الأمور، وإحسانه، وكمال خبرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

٨- نعمة الله عز وجل العظيمة على الخلق بتذليل الأرض لهم للسير عليها واستخراج خيراتها والأكل من رزقه الواسع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

٩- إن الرزق كله من الله تعالى؛ لأن الله أضافه إليه.

١٠- إثبات نشر الخلائق وبعثهم من قبورهم، ورجوعهم إلى الله تعالى وحسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

١١- الإشارة إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ۝١٩﴾.

لما ذكّر عز وجل الخلق بنعمته عليهم بتذليل الأرض لهم خوّف المكذبين وهددهم وتوعدهم بسلب هذه الصفة عنها بخسفها بهم وجعلها تمور، ثم خوفهم بإرسال الريح الحاصب عليهم، وبما حل بالمكذبين من قبلهم، ووجههم إلى رؤية عظيم قدرة الله عز وجل في الطير حال كونهن صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه: التهديد والوعيد، والخطاب للكفار المكذبين.

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، «مَن» للعالِم، وهي: اسم موصول بمعنى «الذي»، أي: ءأمنتم الذي في السماء، أي: الذي في العلو وهو الله عز وجل، الذي هو عال على خلقه بائن منهم مستو على عرشه، كما في حديث الجارية، قال ﷺ: «أين الله؟ قالت في السماء»(١).

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: يُغوِّر بكم الأرض، ويغيبكم فيها.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي: تموج وترتج وتتكفأ وتذهب وتجيء وتضطرب وتتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولًا ثابتة مستقرة مهيأة للاستقرار والحياة.

وفيما يقع ويشاهد من الزلازل المهلكة المدمرة التي تحصد أرواح مئات الآلاف من الناس وتقضي على الأخضر واليابس وتذر الديار بلاقع أعظم عبرة لمن يعتبر.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: بل ءأمنتم الذي في السماء، وهو الله- عز وجل.

﴿أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، أي: أن يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحصباء

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وهي الحجارة فتهلككم.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، أي: فستعلمون بعد حلول العقوبة فيكم من خسف الأرض بكم أو إرسال الريح الحاصب عليكم.

﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أي: كيف كان إنذاري لكم وعقوبة تكذيبكم للنذر، ومخالفتكم لهم، وكيف حل بكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

وفي هتين الآيتين تخويف وتحذير من الأمن من مكر الله وعقوبته في الدنيا لمن كفر به وخالف أمره بخسف الأرض بهم، أو بإرسال الريح الحاصب عليهم، وغير ذلك، وتنبيه لهم على قدرته التامة على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

لكنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد»: للتحقيق، أي: والله لقد كذب الذين من قبلهم، أي: من قبل قومك يا محمد من الأمم السابقة،

كذبوا نذر الله ورسله وأنبياءه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم، أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم بالإهلاك، أي: أن ذلك كان عظيمًا شديدًا فليأخذ قومك مما حل بأولئك الأقوام العظة والعبرة، فإن السعيد من وعظ بغيره.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾.

بعد ما خوفهم عذاب الله عز وجل وعقابه أنكر عليهم ووبخهم على عدم النظر والتأمل في عظيم آيات الله عز وجل وقدرته في جعل الطير تطير فوقهم صافات ويقبضن وإمساكها في الجو.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، أي: أعموا ولم يروا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء.

﴿صَافَّاتٍ﴾، أي: حال كونهن باسطات ناشرات لأجنحتهن في الجو والهواء حال الطيران، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أي: ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن حال الطيران، وعند وقوعهن.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾، «ما»: نافية، أي: ما يمسكهن في الجو والهواء عن السقوط.

﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه وتعالى برحمته ولطفه وقدرته بما سخر لهن من الهواء، وبما جعل لهن من الأجنحة والزعانف، والخلقة المناسبة لذلك.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، أي: إنه عز وجل ذو بصر وخبرة وعلمٍ في كل شيء من مخلوقاته، خلقًا لها وملكًا وتدبيرًا وغير ذلك.

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد شمول بصره وخبرته وعلمه بكل شيء أيًا كان ذلك الشيء.

والمراد: أولم ينظروا إلى الطير حال طيرانها، وعند وقوعها، فيتأملوا في عظيم قدرة الله عز وجل وبصره في مخلوقاته، حيث جعل الطير تطير على هذه الكيفية، وأمسكها في الجو والهواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ

لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- تخويف الكافرين والمكذبين بالعقوبات الكونية الدنيوية من خسف الأرض بهم أو إرسال الريح الحاصب عليهم، والوعيد والتهديد لهم بذلك، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠]

٣- التذكير بنعمة الله- عز وجل- بجعل الأرض مستقرة، وبعظيم قدرة الله عز وجل في إمساك الطير حال طيرانها بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

٤- إثبات اسم الله- عز وجل- «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له- عز وجل- وإثبات أنه- عز وجل- بكل شيء بصير، وعلى كل شيء مطلع وبه خبير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

بعدما أنكر عز وجل على المكذبين، وخوَّفهم عقابه الدنيوي وأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم منكرًا عليهم عدم التأمل والنظر في عظيم قدرة الله عز وجل في الطير تطير في الجو فوقهم، أتبع ذلك بإنكار ما يعتقدونه في معبوداتهم ويبتغونه منها من النصر والرزق غرورًا منهم وعتوًّا.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، أي: من هذا الذي هو جند لكم وعون لكم أيها الكافرون يملك نصركم ويقدر عليه.

﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: غير الرحمن، أهي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، كما تعتقدون ذلك؟ فليس الأمر كما تعتقدون، ولن يحصل لكم ما تؤملون.

﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما». أي ما الكافرون إلا في غرور من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾ [الحديد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)﴾ [الإسراء: ٦٤].

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر، وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها- كما قال عز وجل-: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا

﴿يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فلا ولي لهم من دون الرحمن ولا ناصر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، التوبة: ١١٦، العنكبوت: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: ١١٣].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ الاستفهام كسابقه: للإنكار، أي: من هذا الذي يرزقكم غير الله إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم، أهي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله. والجواب: لا أحد يرزقكم سوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿بَل﴾، «بل» للإضراب، ﴿لَّجُّوا﴾، أي: استمروا وتمادوا في طغيانهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: ٧٥].

﴿فِي عُتُوٍّ﴾ في قسوة، وعدم لين للحق، وعناد واستكبار، ومخالفة لأمر الله ونهيه، كما قال تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَنُفُورٍ﴾، أي: وشرود وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم، لا يستمعون إليه ولا يفقهونه، ولا يتبعونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ٤٦﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ

لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وكما قال نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح: ٥- ٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ذكر الله عز وجل فيما تقدم ما أعده لمن خشيه من المغفرة والثواب، وما أعده لمن كفر به من العقوبة والعذاب، ثم ضرب مثلًا فيه بيان الفرق الواسع والبون الشاسع بين حال المؤمن والكافر فقال: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أفمن يسير منكسًا على وجهه واقعًا عليه، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله ﴿أَهْدَى﴾، أي: أشد استقامة على الطريق.

﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: أمّن يسير سويًا منتصبًا على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله، لا شك أن هذا أهدى.

كما قال تعالى في سورة الفرقان في وصف نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥].

وهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر والمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [هود: ٢٤].

فمثَّل الله عز وجل الكافر بمن يمشي مكبًا على وجهه؛ لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل؛ مخالفًا لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الآيتين: ٣٩، ٤٠ ].

ومثَّل عز وجل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصبًا على رجليه على فطرة الله لأنه يمشي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: ضرب الله مثلًا لمن يشرك مع الله غيره ويعبد أكثر من معبود، ومن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، برجل مشترك بين عدة شركاء مختلفون حوله، ورجلًا خالصًا لرجل واحد.

فشتان بين من يمشي مكبًّا على وجهه منكوس الفطرة يشرك مع الله غيره، وبين من يمشي سويًا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها يؤمن بربه ويوحده، فما بينهما أبعد مما بين الثرى والثريا، وما بين المشرق والمغرب.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[١]

قال ابن كثير[٢]: «وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه، أي: من يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ على طريق واضح بيّن، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر سويًا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم».

كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[٣].

وليس في قوله: ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ ما يدل على أن من يمشي مكبًا على وجهه وهو الكافر عنده شيء من الهداية؛ لأن اسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. إذ ليس في النار شيء من الخيرية أو حسن المقيل البتة، فهي شر محض.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾، الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث من قومك، هو الذي ابتدأ خلقكم وأوجدكم من العدم.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص ١١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: كمل خلقكم بهذه الجوارح السمع والأبصار، والأفئدة، وهي العقول.

وخص هذه الجوارح بالذكر لفضلها فالسمع والأبصار أدوات وطرق وصول الحق إلى القلوب، والقلوب هي محل الإدراك ومناط التكليف وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: قليلًا الذي تشكرون، أو قليلًا شكركم، أي: قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

والآية خبر، وفيها معنى الأمر، أي: اشكروا.

والشكر: باستعمال هذه الجوارح وغيرها من نعم الله التي لا تحصى في طاعة الله عز وجل، بفعل أوامره وترك نواهيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل لهم يا محمد هو الله الذي بثكم ونشركم وفرقكم في أقطار الأرض وأرجائها على اختلاف صوركم وأشكالكم وألوانكم ولغاتكم.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: إليه تجمعون يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

قال ابن كثير[1]: «أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم».

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار؛ إنكارًا للبعث واستبعادًا لوقوعه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، أي: متى وقوع هذا الذي تعدنا به من البعث والحشر والجمع بعد التفرق والموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا وتخبروننا به، وجمعوا الضمير باعتبار الخبر عن الله ورسوله ﷺ، أو بضميمة المؤمنين إليهم، أو أن دأب المكذبين قول هذا لرسلهم.

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما علم وقت الحشر وقيام الساعة عند الله عز وجل، لا يعلمه غيره.

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ الواو: عاطفة و«إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أنذركم وقوع ذلك الوعد، وأخبركم أنه واقع لا محالة، وأحذركم عذاب الله.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن واضح، ومبين ما أمرت بإبانته لكم من النذارة والتحذير والتخويف من عذاب الله وقد أنذرتكم وبلغتكم، وقد أعذر من أنذر.

والحصر هنا إضافي، أي: ما أنا بالنسبة لأمر الحشر والبعث إلا نذير أنذركم بتحتم وقوعه، ولا أدري متى وقوعه.

لكنه ﷺ مع ذلك بشير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

ومكلف بالعمل كغيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾، أي: فلما رأوا ما وعدوا به من العذاب في الآخرة، وقيل عذاب يوم بدر ﴿زُلۡفَةً﴾، أي: قريبًا.

﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: ظهر على وجوه الذين كفروا بالله وأنكروا البعث والحشر الاستياء والكآبة والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين والمصير إلى النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٤٨)﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة: «تدْعون».

وقرأ الباقون بفتحها مشددة: ﴿تَدَّعُونَ﴾.

أي: وقيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَٰذَا﴾، أي: البعث والحشر والحساب والعذاب ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: الذي كنتم في دار الدنيا تستعجلون وقوعه، وتطلبونه، إنكارًا له واستبعادًا لوقوعه، قد رأيتموه عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر: ٧].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»(١) وهذا ما كانوا يستعجلونه كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦)﴾ [ص: ١٦]، أي: عجل لنا نصيبنا من الحساب. وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٢)﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) سبق تخريجه.

**الفوائد والأحكام:**

١- تسفيه عقول المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم نصرا ولا رزقًا وغرورهم ومكابرتهم في ذلك وعتوهم ونفورهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

٢- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له- عز وجل، وأنه سبحانه هو الرب الذي بيده النصر ومنه الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٣- أن الذي بيده النصر والرزق هو الله تعالى وحده.

٤- شتان بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فالكافر الفاجر كمن يمشي مكبًا على وجهه، والمؤمن البر كمن يمشي سويًا معتدلًا على طريق مستقيم، فالمؤمن أهدى وأقوم سبيلا، والكافر أعوج وأضل سبيلا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٥- أن اسم التفضيل قد يستعمل بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٦- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية فيما يدعو إليه وفيما ينفر منه لقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولك أخي الكريم أن تتخيل حالة كل من هذين الصنفين، والبون الشاسع بينهما.

٧- امتنان الله على الناس بإنشائهم، وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم وتذكيرهم بذلك، وبتمام قدرة الله تعالى ونعمته عليهم؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٨- قلة شكر الناس للنعم وقلة الشاكر منهم، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٩- تذكير الخلق بقدرته تعالى على بعثهم، فهو الذي نشرهم وفرقهم في الأرض، وإليه حشرهم وجمعهم وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:

٢٥، ٢٦].

١٠- استبعاد الكافرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ تكذيبًا لذلك، وإنكارًا له، وتكذيبًا له ﷺ ولما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١١- أن علم المعاد وبعث العباد عند الله عز وجل لا يعلمه سواه، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٢- تغير وجوه الكفار ومساءتها واسودادها عند معاينة العذاب قريبًا منهم وتبكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- تقريعهم وتعذيب قلوبهم معنويًّا بأن يقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: هذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين من قومك الذين يتربصون بهلاكك، كما قال الله عز وجل عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠].

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾، أي: إن عذبني الله ومن معي من المؤمنين فأهلكنا كما تتمنون، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأثابنا ونعّمنا.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فمن يجيركم من عذاب الله أيها الكافرون، فأنتم معذبون لا محالة ولا مجير لكم من عذاب الله، سواءً أهلكنا الله أو رحمنا، فاعملوا على خلاص أنفسكم بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

ولم يقل: فمن يجيركم من عذاب أليم- والله أعلم- للتنصيص على كفرهم، وربط العقوبة بالعذاب بسببها وهو الكفر، وليشمل هذا الوعيد كل كافر.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: قل هو الرحمن صدقنا به ربًا ومعبودًا وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: وعليه- وحده- اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا مع تمام الثقة به سبحانه.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين الإيمان به، وعبادته وبين التوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

والتوكل داخل في الإيمان ومن جملة لوازمه، لكنه خص بالذكر من بين سائر الأعمال؛ لعظم مكانته من الإيمان، وكون الأعمال صحتها وكمالها متوقفين عليه. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ الكسائي بالغيب: «فسيعلمون» وقرأ الباقون

بالخطاب: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾.

أي: فستعلمون من هو في بعد وتيه عن الحق، أهو نحن أم أنتم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة أهي لنا، أم لكم؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائرًا ذاهبًا في الأرض، لا تستطيعون الوصول إليه بأي وسيلة.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾، أي: فمن الذي يأتيكم ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾، أي: بماء نابع سائح جار ظاهر على وجه الأرض، تراه العيون، لا ينضب، تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم، أي: لا أحد يستطيع أن يأتيكم بذلك إلا الله عز وجل.

وفي هذا تخويف لهم من سلب نعمة الماء شريان الحياة ومادتها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وتذكير لهم بإنعامه وإفضاله عليهم بها، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

**الفوائد والأحكام:**

١- تربص الكافرين هلاك الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾.

٢- التهديد للكافرين، وأنه لا مجير لهم من العذاب الأليم في النار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣- التنزل مع الكفار والمكذبين لتقريرهم ليتبين لهم أنهم ليسوا على شيء لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وإلا فلا شك أنه ﷺ يعلم أنه ومن معه من المرحومين بإذن الله- عز وجل.

٤- أن عذاب الكافرين المكذبين مؤلم موجع حسًا للأجساد، ومؤلم موجع معنى للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل.

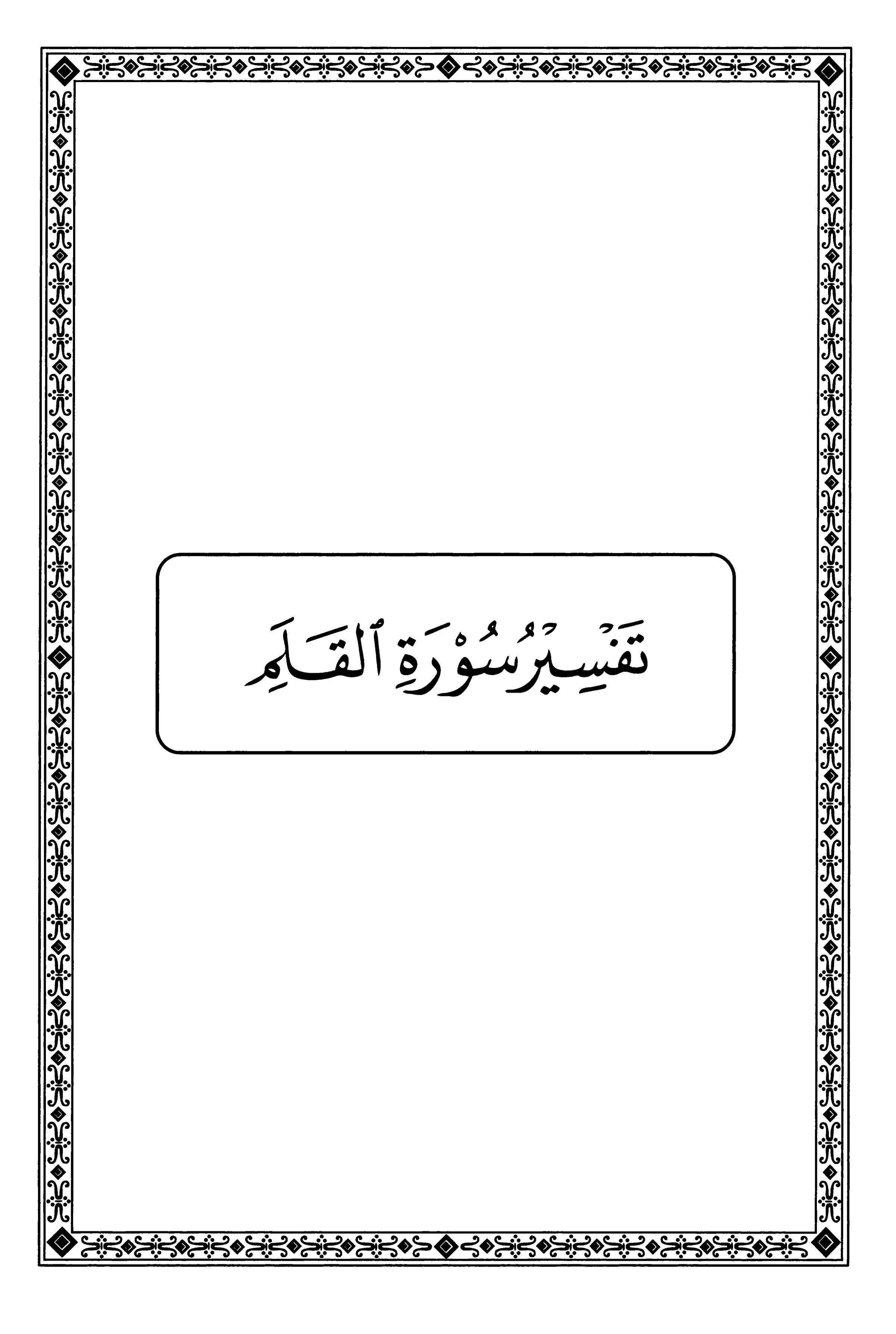
٦- وجوب الإيمان بالله والتوكل عليه، وأن الإيمان الحق لا يقوم إلا على هاتين الدعامتين؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن الله عز وجل بينهما في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٧- وعيد الكفار المكذبين بأنهم سيعلمون حقًا أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس ذلك هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما زعموا، وذلك بوقوع العذاب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

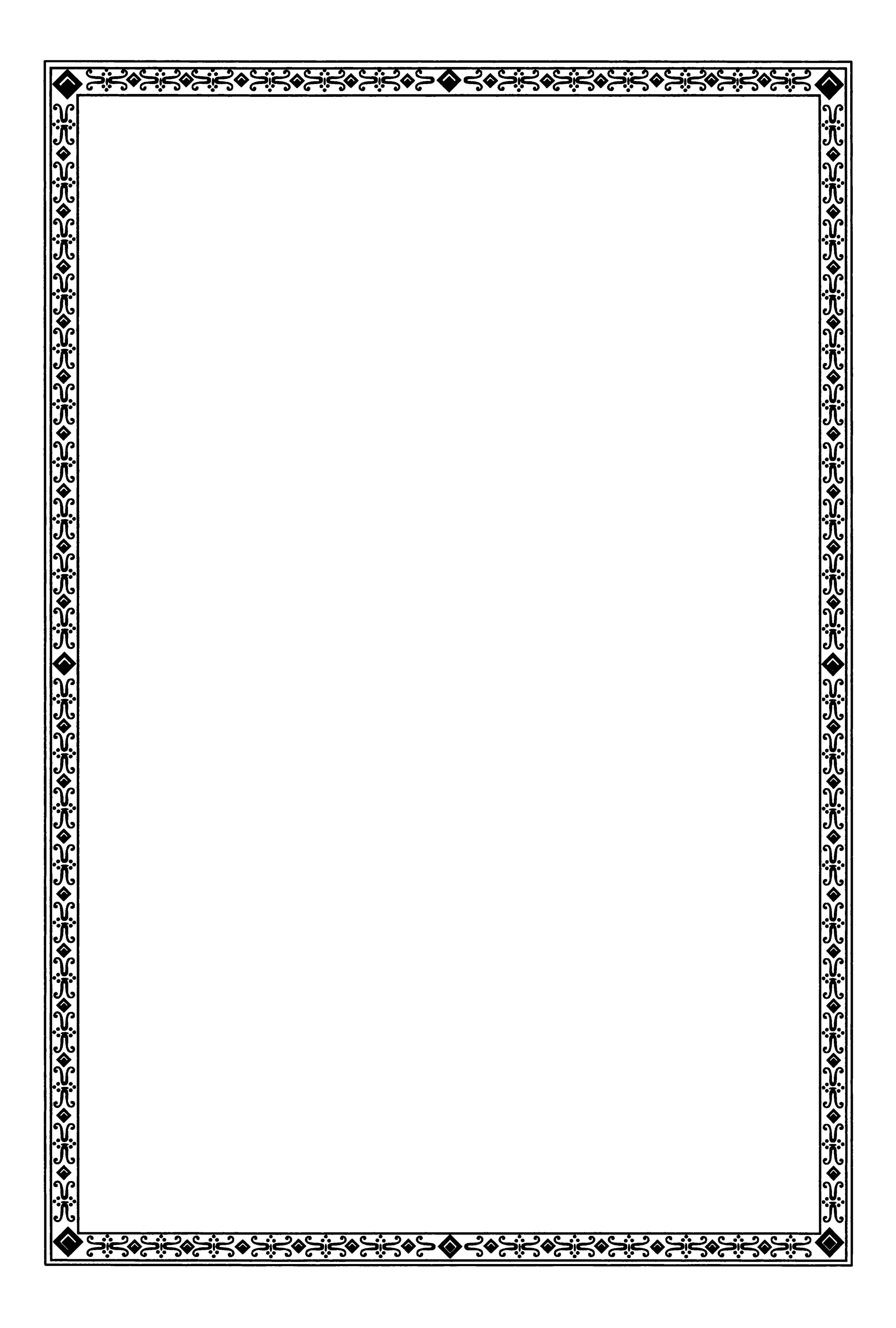
٨- امتنان الله عز وجل على الناس بالماء الذي يشربون، وتخويفهم من سلبه منهم وتغويره عنهم فلا أحد غيره - سبحانه - يستطيع أن يأتيهم بماء معين لا ينضب.

وبهذا جمع الله لهم بين التخويف بالعقاب الدنيوي والعذاب الأخروي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقَلَمِ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القلم»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالقلم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾.

وتسمى: «سورة ن»؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

### ب- مكان نزولها:

مكية.

### جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾؛ لبيان إعجاز القرآن والتحدي به.

٢- الإقسام بالقلم والكتابة؛ بيانًا لفضل العلم.

٣- امتداحه ﷺ والثناء عليه والشهادة له بما هو عليه والخلق العظيم، ووعده بالأجر غير الممنون، ونفي ما اتهمه به المشركون من الجنون والفتون، ووعيد المكذبين وذمهم، والتحذير من مهادنتهم وطاعتهم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

٤- أن ما يتقلب به المشركون من النعمة هو ابتلاء واستدراج لهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية: ١٧].

٥- ذكر قصة أصحاب الجنة، وإهلاكها بسبب ظلمهم وطغيانها بمنع المساكين حقهم فيها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٦- وعد المتقين بجنات النعيم، وبيان أنه لا يستوي المسلمون والمجرمون، والرد على من زعم ذلك من الكفار والمكذبين، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ

جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٧- حثه عز وجل النبي على الصبر لحكم ربه وما يلقاه من الأذى، ونهيه أن يكون كيونس عليه السلام في الاستعجال، وما ابتلاه الله به بسبب ذلك: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

٨- شدة عداوة الكفار للنبي ﷺ ولما جاء به من الذكر واتهامه بالجنون، والرد عليهم: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾.

قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، «ن»: أحد حروف الهجاء، وأحد الحروف المقطعة التي تكون أوائل السور نحو «ص» و«ق».

وقد سبق الكلام على هذه الحروف، وذكر أقوال أهل العلم في معناها والمراد بها في مطلع «سورة البقرة».

وبيان أن أظهر الأقوال في معناها أنها ذكرت في مطلع بعض السور للتحدي والإعجاز، وأن العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، والذين نزل القرآن بلغتهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها.

قال ابن القيم[1]: «الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسمًا به، وإما مخبرًا عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها... وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته».

﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ الواو: للقسم، و«القلم» مقسم به. والقلم: هو أداة الكتابة المعروفة، فبه كتب القدر، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت

---

(١) انظر: بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩.

رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟، قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[١].

وبه يكتب الملائكة أعمال بني آدم، وبه يكتب الذكر، وبه يكتب العلم.

قال الشاعر:

**العلم صيد والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقه**

**فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقه[٢]**

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: عاطفة و«ما» موصولة، أي: والذي يكتبون، وقد تكون «ما» مصدرية، أي: وسطرهم، أي: كتبهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣-٥].

فأقسم عز وجل بأداة الكتابة وهو القلم، وبالذي يكتبون، وهو العلم.

قال ابن تيمية[٣]: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون: فإن القلم يكون به الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه. أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوبًا، فليس كل معلوم مقولًا، ولا كل مقول مكتوبًا، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتابة دون الكلام فقط، أو

(١) أخرجه أبو داود في السنة- باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥، وأحمد ٥/ ٣١٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤٥.

(٢) انظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص٣٣-٣٤.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٤- ١٥.

دون العلم فقط».

ويؤخذ من افتتاح السورة بقوله: ﴿نٓ﴾، ومن الإقسام بالقلم، وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

وقد أكد القرآن الكريم هذا في مواضع عدة، بل إن أول آية وأول سورة نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

قال البخاري «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وامتن عز وجل على عباده بالعلم بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢).

وقد سجل هذا معروف الرصافي بقوله(٣):

هل العلم في الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوَّم

---

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩ـ كتاب العلم- باب العلم قبل القول والعمل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤- من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٨٩.

وحلـت لـه الأيـام عنـد قيامـه ... حباهـا وأبـدت منظـر المتبسـم
فـأشرق نـور العلـم مـن حجـراته ... عـلى وجـه عصـر بالجهالـة مظلـم
ودك حصـون الجاهليـة بالهـدى ... وقـوَّض أطنـاب الضـلال المخـيم
وأنشـط بـالعلم العـزائم وابتنـى ... لأهليـه مجـدًا لـيس بالمتهـدِّم
وأطلق أذهـان الـورى مـن قيودهـا ... فطـارت بأفكـارٍ عـلى المجـد حُـوَّم
وفـك إِسـار القـوم حتـى تحفـزوا ... نهوضًـا إلى العليـاء مـن كـل مجثـم

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا مالًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٢)].

وعن معاوية- رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[(٣)].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٧١، ومسلم في الزكاة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١.

بها ويعلمها»[١].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٢].

وقال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[٣].

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»[٤].

قال الشافعي[٥]: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

وبالعلم ارتفع كلب الصيد على غيره من الكلاب فجاز اقتناؤه وحل صيده.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: **«من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان»**[٦].

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١- من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه.

(٥) انظر: «المجموع» ١/ ٢٠، «نشر طي التعريف» ص١٦٢، «الأخلاق الزكية» ص٣٧. وليس فيها: «ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

(٦) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٤٨٠، ومسلم في المساقاة ١٥٧٤..

يحسنه»[١].

وقال علي رضي الله عنه[٢]:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الشاعر:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف
العلم مبلغ قوم ذروة الشرف ... وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلًا لا تدنسه ... في الموبقات فما للعلم من خلف[٣]

وقال الآخر:

فصاحة حسان وخط ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد بن أدهم
لو اجتمعت في المرء والمرء جاهل ... ينادى عليه لا يسام بدرهم[٤]

وقال الشافعي[٥]:

ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى- والله- بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وقال الآخر:

إذا ما مات ذو علم وتقوى ... فقد ثلمت من الإسلام ثلمه
وموت العابد القوام ليلًا ... يناجي ربه في كل ظلمه

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٧٤.

(٢) انظر: «ديوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ص٧، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣١.

(٣) الأبيات تنسب للطغرائي. انظر: «جواهر الأدب» ٢/ ٤٤٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣٤.

(٤) انظر: «نفحة اليمن» ص١٢٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٩.

(٥) انظر: «ديوانه» ص٣٨.

ومـوت فتـى كثـير الجـود محْـلٌ ... فـإن بقـاءه خصـب ونعمـه
ومـوت الفـارس الضـر غـام هـدم ... فكـم شـهدت لـه بالنصـر عزمـه
ومـوت الحـاكم العـدل المـولّى ... بحكـم الأرض منقصـه ونقمـه
فحسـبك خمسـة يُبكـى علـيهم ... وبـاقي النـاس تخفيـف ورحمـه
وبـاقي النـاس هـم همـج رعـاع ... وفي إيجـادهم لله حكمـه[(١)]

وقال الشافعي[(٢)]:

أخـي لـن تنـال العلـم إلا بسـتة ... سـأنبيك عـن مجموعهـا ببيـان
ذكـاء وحـرص واجتهـاد وبلغـة ... وإرشـاد أسـتاذ وطـول زمـان

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

هذا هو المقسم عليه، وهو نفي الجنون عنه ﷺ، وإثبات الأجر غير الممنون له، وأنه على خلق عظيم.

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، «ما»: نافية عاملة عمل ليس، والباء: للسببية، أي: لست يا محمد بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة.

﴿بِمَجْنُونٍ﴾، أي: بمعتوه فاقد العقل، كما يقوله الجهلة المكذبون المعاندون من قومك، كما هي عادة المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فأقسم عز وجل على تبرئة نبيه ورسوله ﷺ عما يقوله المشركون، من أنه مجنون.

وفي توسيط قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ بين اسم «ما» وخبرها إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه ﷺ، وأنه بهذه النبوة والرسالة منعم عليه مصطفى من بين العالمين، وتأكيد لنفي

---

(١) الأبيات للشيخ عبدالعزيز الديريني. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٢٠١، «رياض الرياحين في حكايات الصالحين» ص٢٢٢، «أبراج الزجاج في سيرة الحجاج» ص٢٠.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٣٨. وفيه: «وصحبة أستاذ...».

ما رموه به من الجنون، إذ كيف تجعل النعمة العظيمة سببًا للجنون، وكيف تجعل النعمة نقمة، فهم أولى بوصف الجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ نكَّر «أجرًا»؛ للتعظيم، أي: وإن لك لأجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا غير منقطع، على تبليغك رسالة ربك، وأدائك الأمانة، ونصحك للأمة، وجهادك في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٦]، أي: غير مقطوع.

وأيضًا: غير ممنون به عليك كما يمن الخلق بإتباعهم ما يُعطون بالمن والأذى من تكبرهم على من يعطونه واحتقارهم له ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قسم منه عز وجل، وهو أصدق القائلين، وشهادة منه عز وجل، وهو خير الشاهدين لرسوله ﷺ أنه على خلق عظيم، فأعظم به من قسم وأكرم بها من شهادة.

والمعنى: وإنك لعلى دين عظيم؛ لأنه ﷺ تخلق بأخلاق القرآن، وتأدب بآدابه امتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه حتى صار ذلك له سجية وطبعًا مع ما جبله الله عليه من كريم السجايا وعظيم الصفات، أدبًا وحياء، وشجاعة وكرمًا، صفحًا وحلمًا، شفقة ورحمة، صدقًا ومحبة.

ولهذا لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[1].

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟، وكان

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في التطوع- صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٣، ١١١، ١١٦، ١٨٨، ٢١٦.

ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزًا ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»[١].

فكان له ﷺ من كل خصلة من مكارم الأخلاق أعلاها وأكملها وأجلها في حق ربه، وفي تعامله مع أهله وأزواجه وأصحابه وسائر الناس.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»[٣].

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٤].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[٥].

وعن أبي مسعود البدري- رضي الله عنه- قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٥، وأخرجه مختصرًا البخاري في الوصايا ٢٧٦٨، ومسلم في الفضائل- كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا ٢٣٠٩، وأحمد ٣/ ١٠٧، ٢٠٠، ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب- صفة النبي- ﷺ ٣٥٤٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٣٧، والترمذي في اللباس ١٧٢٤.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٣٢.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما فيما رواه أبو ذر- رضي الله عنه عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ فرجع فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٤.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٥، والترمذي في المناقب ٣٨٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٩.

ترعد فرائصه، فقال له: «هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[(١)] وهذا تواضع منه ﷺ.

فلنا به ﷺ الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان ﷺ مع ما وهبه الله من خلق كريم يسأل ربه بقوله: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»[(٢)].

وأوصى ﷺ سلمان رضي الله عنه أن يقول: «اللهم إني أسألك صحة في إيمان وإيمانًا في حسن خلق»[(٣)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»[(٤)].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»[(٥)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أخيركم أحسنكم خلقًا» وفي رواية: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[(٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١- من حديث طويل- عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢، وقال: «حديث حسن صحيح» وأحمد ٦/ ٤٥١- ٤٥٢.

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٢٩، ٦٠٣٥، ومسلم في الفضائل ٢٣٢١، والترمذي في البر والصلة ١٩٧٥، وأحمد ٢/ ١٨٥.

(٧) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٦٢، والدارمي في الرقاق ٢٧٩٢، وأحمد ٢/ ٢٥٠.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال: جاءت الأعراب فسألوا رسول الله ﷺ وقالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟، قال: «خلق حسن» وفي رواية عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «أحسنهم خلقًا»(١).

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وقلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»(٤).

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٥).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٦).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة- ما جاء في معاشرة النساء ١٩٨٧، وقال «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٨.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩، ٤٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٠٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٣، وابن ماجه في المقدمة ٥١.

(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠.

وقد أحسن القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[(١)]

وقال الآخر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم[(٢)]

فما أجمل الخلق الحسن وأفضله، ويا فوز من منحه الله ذلك، فوفقه للإحسان والندى، قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى، والصبر عليه، وطلاقة الوجه وبشاشته وابتسامته، وغير ذلك.

وينبغي أن يعلم أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد أحسن القائل:

ببذل وحلم ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير[(٣)]

وقد رُويَ: «أن رجلًا وعظ المأمون وأغلظ عليه في القول، فقال له المأمون: إن الله قد بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤]»[(٤)].

وروي في العفو وحسن الخلق: «أن الحسن البصري قال له رجل: إن فلانًا قد اغتابك، فأرسل إليه طبقًا من الرطب، وقال: بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام»[(٥)].

وعن قتادة، قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟! كان إذا أصبح قال: «اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»[(٦)].

---

(١) البيت لأحمد شوقي. انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٤٨٨، «شعر شوقي في ميزان النقد» ص٨٥.

(٢) انظر: «الشوقيات» لأحمد شوقي ص٢٦١.

(٣) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٣٩، «شرح ابن عقيل» ص١٣٨، «شرح الشواهد الشعرية» ١/ ٤٠٤.

(٤) انظر: «تاريخ الطبري» ٨/ ٣٥٨، «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» ٨/ ٣٢٨، «مرآة الزمان» ١٣/ ١٨٣.

(٥) انظر: «تنبيه الغافلين» للسمرقندي ص١٦٤، «الرسالة القشيرية» ١٧/ ٢٩٢، «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٥٤، «نزهة المجالس» ١/ ١٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٨٦، وعبد الرزاق في «التفسير» ١/ ٤١٣ (١٣٤). وأخرجه عن الحسن في «المصنف» ٩/ ٧٧ (١٦٤٠٨).

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له وناله منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه. فقال: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في الجنة»[٢].

فتأمل أخي الكريم وأختي الكريمة في خُلُقه ﷺ، ولنا فيه أسوة، وتأمل فيما ذكرت لك من النصوص العظيمة والله الله بالخلق الطيب الحسن تبلغ به بإذن الله أعلى الدرجات، وتسعد به في دنياك وأخراك، ويحبك الله ويحبك الناس، وتدرك من الخير والفضل من الله- عز وجل- بلاكد ولا تعب- ما لا يدركه غيرك بالصيام والقيام وبذل المال وغير ذلك، وإياك والكبر والغلظة والفضاضة والجفاء والحقد والحسد وسوء الظن وسوء الخلق فإنها من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرة.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، أي: فسترى وتعلم يا محمد، وسيرى ويعلم المكذبون لك الزاعمون أنك مجنون، من المفتون منكم عن الحق الضال عنه أأنت أم هم، وفي هذا وعد له ﷺ ولأتباعه، ووعيد للمكذبين له.

وأدخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى العلم والإخبار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن القيم[٣]: «و«ستبصر» مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدي بالباء، كما

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٤٢.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٥١١.

تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي تاه وبعد عن طريقه عز وجل- الطريق المستقيم- وهم المكذبون لك وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بالمهتدين من العباد، ومنهم أنت وأصحابك وأتباعك، وفيه وعد لهم، كما أن في هذا بيان لحكمته عز وجل في هداية من يصلح للهداية دون غيره قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١١٦، ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

والمعنى: إن ربك هو أعلم بأنهم هم وأتباعهم الضالون عن سبيله، وهو أعلم بأنك وأصحابك وأتباعك أنتم المهتدون.

**الفوائد والأحكام:**

١- تحدي العرب بالقرآن وقد نزل بلغتهم؛ لقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

٢- إقسام المولى عز وجل بالقلم والكتابة على أنه ﷺ ليس بما أنعم الله به عليه بمجنون، وأن له أجرًا غير ممنون، وأنه على خلق عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

٣- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٤- تعظيم العلم؛ لأن الله أقسم بالقلم وما يسطر به من العلم.

٥- إثبات رسالة النبي ﷺ ونعمة الله عليه بالنبوة، ونفي ما رماه به المكذبون من الجنون؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

٦- عظم اجتراء المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله برميهم لهم بأقبح الأوصاف كالجنون والسحر والكهانة ونحو ذلك.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه له بذلك وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٨- وعد الله عز وجل لنبيه ﷺ بالأجر العظيم غير المقطوع وغير الممنون به عليه، كما يمن الخلق بما يُعطون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

٩- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ وشهادته له بالخلق العظيم، فأعظم بها من شهادة من خير الشاهدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

١٠- وعد الرسول ﷺ والمؤمنين معه ووعيد المكذبين له بظهور حقيقة كل منهم وطمأنة الرسول ﷺ، وأن العاقبة له وللمتقين لقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾.

١١- علم الله عز وجل التام بالضالين عن سبيله وبالمهتدين إليه، وفي هذا أيضًا وعد للمهتدين ووعيد للضالين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على نفى ما رمى به المكذبون رسوله ﷺ من الجنون، وعلى وعده ﷺ بالأجر غير المنقطع، والشهادة له بالخلق العظيم، والوعد له والوعيد لهم بأن الله سيبين لكل منهم حقيقة حاله، فهو عز وجل الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، ثم حذر النبي ﷺ من طاعتهم والتنازل معهم فيما يطلبون من المداهنة، ومن الاغترار بحلفهم الكاذب.

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلا تطع يا محمد المكذبين من قومك وغيرهم فيما يطلبون منك من المداهنة وغير ذلك مما فيه مخالفة الشرع وهم غالبًا لا يأمرون بخير.

وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين في مواضع عدة من كتابه، كما قال تعالى في مطلع سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨].

ونهيه ﷺ عن طاعة المكذبين والكافرين والمنافقين نهي له ولأمته، وليس في نهيه ﷺ عن طاعة المكذبين دلالة أو إشارة إلى أنه قد يطيعهم.

وقد ذكر ابن تيمية[1] رحمه الله أن قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ الآيات تتضمن أصلين:

«أحدهما: أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين، فكان فيه فوائد:

منها: أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥- ١٦.

والحلاف ولا يعمل بمثل عملها.. فإن النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به لوجوه، منها: أن ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله: (لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز) ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبسًا بهذه الأخلاق لما فيه من تشريفه وبراءته.

ومنها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره، فإنه محتاج إلى مخالطتهم؛ لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

ومنها: أنهم يُبدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا، ولو أبداها، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسدًا لم يقبل الأمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلًا لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسدًا لم يردها، وهذا معنى بليغ.

والأصل الثاني أنه ذكر قسمين، المكذبين، وذوي الأخلاق الفاسدة، وذلك لوجوه:

أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح، فضده التكذيب والعمل الفاسد.

والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، منهيون عن قبول ضده وهو التكذيب بالحق والترك للصبر».

﴿وَدُّوا﴾، أي: أحب المكذبون وتمنوا.

﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، أي: لو ترخص لهم وتلين- على حساب دينك- فيلينون، وذلك بأن تطيعهم في بعض ما يأمرونك به، أو تتنازل عن شيء من دينك، فيطيعونك في بعض ما لا يعارض أهواءهم.

أي: أحبوا ملاينته لهم بالتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق وقبول بعض ما هم عليه من الباطل، كما قال بعضهم: «اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة».

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بتثبيته له أمام هذه الدعوات، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وما نداءات القائلين بالتقارب بين الأديان، والتقريب بين أهل السنة والرافضة،

كما ينادي بذلك بعض المفتونين والمخدوعين، ممن لا يميزون بين الحق والباطل إلا من هذا المنبع الآسن، فإن الإيمان لا يجتمع مع الكفر، وإن السنة لا تجتمع مع البدعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

نهى عز وجل عن طاعة المكذبين عمومًا، ثم أكد النهي، وخص من بينهم الموصوفين بهذه الصفات القبيحة في الآيات.

قوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، أي: ولا تطع كل إنسان حلاف. و«حلاف»: على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حلاف في أقواله، كثير الحلف والأيمان الفاجرة الكاذبة؛ مما يدل على اجترائه على الله والاستهانة بأسمائه وصفاته.

ولهذا قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»[1].

﴿مَّهِينٍ﴾ في أفعاله، حقير ضعيف الرأي والتدبير. و«مهين» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه بلغ الغاية في المهانة والحقارة، وذلك أن كثرة الحلف تدل غالبًا على ضعف الحالف وكذبه وتستره بالأيمان الكثيرة الكاذبة، كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢].

ولا أذل ولا أحقر ولا أهون ممن عصى الله وخالفه، وآثر شهوات نفسه.

﴿هَمَّازٍ﴾ على وزن «فعّال»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الهمز، وهو الاغتياب والعيب للناس والاستهزاء بهم بقوله ولسانه، وقد يكون بالفعل والإشارة[2].

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر «فتح المجيد» ص٤١٦ - ٤١٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قال ابن تيمية[١]: «فالهمز أقوى من اللمز وأشد، سواء كان همز صوت أو همز حركة، والهماز المبالغ في العيب نوعًا وقدرًا».

وقد عظم الإسلام أمر الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٢].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾، أي: كثير المشي بالنميمة، والنميمة: نقل الحديث بين الناس للإفساد والتحريش بينهم.

قال ابن تيمية[٣]: «والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[٤].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤ـ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء- من الكبائر أن لا يستتر من بوله ٢١٦، ومسلم في الطهارة- الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤٧.

وفي بعض الروايات «لا يدخل الجنة نمام»[(١)].

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل»[(٢)].

ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت[(٣)]»[(٤)].

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾، «مناع»: كحلاف، و«مشاء» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه بلغ الغاية في منع الخير، فلا يمكن أن يعمل أو يقول أو يقدم خيرًا، بل يمنع ما عليه من حقوق من الأعمال والنفقات الواجبة والزكوات والكفارات ولا يبذل شيئًا مما لديه.

﴿مُعۡتَدٍ﴾، أي: معتد على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، متجاوز العدل إلى الظلم، والحق إلى الباطل في حقوق الخلق.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لمنعه الحقوق الواجبة لله وارتكابه المحرمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن تيمية[(٥)]: «وأما ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، فإن الظلم نوعان: ترك الواجب، وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي».

وقال السعدي[(٦)]: «﴿مُعۡتَدٍ﴾ على الخلق بظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- ما يكره من النميمة ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان- بيان غلظ تحريم النميمة ١٠٥، وأبو داود في الأدب- باب القتات ٤٨٧١، والترمذي في أبواب البر- ما جاء في النمام ٢٠٢٦، وأحمد ٥/ ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩١.

(٢) أي: أنهم يذكّرون بالله عز وجل بكثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة خوفهم وخشيتهم وتقاهم وورعهم.

(٣) أي: الذين يطلبون للبريء المشقة، بحيث يرمونه بما ليس فيه.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد- من لا يؤبه به ٤١١٩، وأحمد ٦/ ٤٥٩.

وأخرجه أحمد أيضًا: ٤/ ٢٢٧- من حديث عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٦) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٤٦- ٤٤٧.

﴿أَثِيمٍ﴾، أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله».

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العتل: هو الفظّ الغليظ الجافي، شرس الخُلُق، الذي لا ينقاد للحق.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر، وفي رواية «كل جواظ جعظري[1] مستكبر» وفي رواية: «كل جَّواظ زنيم متكبِّر»[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع»[3].

وقد وردت عدة أحاديث مرسلة وعدة آثار عن السلف أن العتل أيضًا هو الشديد الخلق صحيح الجسم الأكول الشروب الظلوم للناس[4]. وهو بمعنى ما سبق.

﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيم: ولد الزنا، الملحق بالقوم الملصق بهم وليس منهم، اللئيم المريب، المشهور بالشر والظلم من شدة تجبره وغلظته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: «الدعيّ، الفاحش اللئيم»[5].

قال الشاعر:

**زنـيم تـداعاه الرجـال زيـادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع**[6]

---

(١) الجواظ: الجموع المنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البطين. الجعظري: الفظ الغليظ، وقيل هو الذي ينتفخ بما ليس عنده، وفيه قصر. انظر: «لسان العرب»: مادة «جعظر» ومادة «جوظ».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٥، وابن ماجه في الزهد ٤١١٦، وأحمد ٤/ ٣٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٩، ٢١٤.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦١- ١٦٤، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٦) البيت ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة، وابن منظور في «اللسان» مادة «زنم» ونسبه إلى الخطيم التميمي الجاهلي.

وقال حسان رضي الله عنه[١] في ذم بعض المشركين:

**وأنت زنيم نيط في آل هاشم　　　كما نيط خلف الراكب القدح الفرد**

وقال الآخر:

**زنيم ليس يعرف من أبوه　　　بغيّ الأم ذو حسب لئيم**[٢]

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عتل بعد ذلك زنيم» قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة»[٣][٤].

قال ابن كثير[٥] بعد أن ذكر قول ابن عباس السابق: «ومعنى هذا أنه كان مشهورًا بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها».

وقال أيضًا[٦] بعد سياق كثير من الأقوال: «والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به بين الناس، وغالبًا يكون دعيًا ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه، ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث «لا يدخل الجنة ولد زنا»[٧] وفي الحديث الآخر «ولد الزنا شر الثلاثة»[٨].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو أشر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا»[٩].

قال ابن تيمية[١٠]: «ويشبه- والله أعلم- أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل

(١) انظر «ديوانه» ص١١٨.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦٤.

(٣) زنمة الشاة: شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقًا بها. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «زنم».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٧.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ٢١٩.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٢٢١.

(٧) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٣- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه أبو داود في العتق- عتق ولد الزنا ٣٩٦٣، وأحمد ٢/ ٣١١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٩.

(١٠) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

الزنيم من جنس واحد، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك».

فجمع الله عز وجل في وصف هذا الذي نهى نبيه ﷺ عن طاعته أقبح الصفات، فهو كثير الحلف، حقير مغتاب للناس، ساع بنقل الكلام بينهم بقصد الإفساد والتحريش بينهم، مناع لما عليه من حقوق لا يعمل ولا يقدم شيئًا من الخير، متجاوز الحلال إلى الحرام، والعدل والحق إلى الظلم والباطل، كثير الإثم، تارك للواجبات، مرتكب للمحرمات فظ غليظ جاف جموع منوع، زنيم ملحق ملصق في قوم وليس منهم.

فهذه تسع صفات تدل على إغراقه في الشر وبعده عن كل خير، وأنه وصل إلى الغاية العظمى في ذلك؛ لأن الذي وصفه بهذه الصفات ونعته بها هو العليم الخبير سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، فبعدًا لمن هذه صفاته وسحقًا.

وإذا سبرت أحوال المسلمين وجدت كثيرًا منهم لا يخلو من بعض هذه الصفات، مما يوجب علينا جميعًا محاسبة النفس في استعمال ما منحنا الله عز وجل من الجوارح الظاهرة والباطنة في طاعة الله، وفيما خلقت له، والبعد بها عما يسخط الله، ومحاسبة النفس في أداء الحقوق، وبذل الخير، والبعد عن الحرام والظلم والإثم، والغلظة والفظاظة والله المستعان.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «أأن كان» بهمزتين على الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وقرأ الباقون: ﴿أَن كَانَ﴾ بهمزة واحدة على الخبر، أي: بسبب أن كان ذا مال وبنين. أي: بسبب إنعامنا عليه بالمال والبنين.

وقوله: ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، أي: صاحب مال وبنين. فاغتر بماله وبنيه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمعنى: مقابل إنعامنا عليه بالمال والبنين اتصف بهذه الصفات المذمومة السابقة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: إذا قرئت عليه آياتنا الشرعية القرآن الكريم قال عنها.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: كذب بها وكفر، وقال: هي مما سطره الأولون من

الحكايات والخرافات التي لا تكاد تَصْدُق.

كما قال تعالى عنه في سورة المدثر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١- ٢٦].

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، أي: سنذله غاية الإذلال، وسنجعل له وسمًا يعرف به، حتى يتبين أمره ويفتضح، والوسم: ما يوضع على الشيء من علامة تميزه عن غيره، ومنه وسم بهيمة الأنعام: الإبل والبقر، والضأن والمعز بعلامة يعرفها بها صاحبها وغيره.

﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، أي: على الأنف؛ لأنه أبين وأرفع الوجه.

والمعنى: سنجعل فيه علامة سيئة على أنفه يشهّر به فيها، ونسوِّد وجهه ونبين أمره بيانًا واضحًا ونفضحه على رؤوس الخلائق كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٠]».

قال ابن تيمية[1]: «قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضًا، فإن الله جعل للصالحين سيما، وجعل للفاجرين سيما، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]».

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره فإنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

**الفوائد والأحكام:**

١- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، وهو نهي له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢- تمني المكذبين ومحبتهم ملاينة الرسول ﷺ لهم وملاينتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

٣- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ- وهو نهي له ولأمته- عن طاعة كل من كان كثير الحلف حقيرًا ضعيف الرأي، ينتقص الناس بقوله وفعله، ويمشي بينهم بالنميمة، مناعًا للخير، معتديًا على الخلق، تاركًا للواجبات، مرتكبًا للمحرمات، كثير الإثم، فظًا غليظًا، جافيًا كثير الشر، مغترًا بماله وبنيه، رادًّا للحق، زنيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

٤- وجوب الحذر من الاتصاف بالصفات الذميمة المذكورة في الآية.

٥- ينبغي عدم الاغترار بالمال والبنين لقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٦- الوعيد للموصوف بتلك الصفات الذميمة سواء كان هو الوليد بن المغيرة أو غيره بوضع وسم وعلامة على أنفه تشهيرًا به بين الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

* * *

**قال الله تعالى:** ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال ابن كثير(١): «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدًا ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾».

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الغيبة في قوله: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ من قومه.

والابتلاء: الامتحان، و يكون بالخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

**قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)**

أي: امتحناهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحناهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجًا لهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾، أي: كما امتحنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أصحاب البستان. وسمي البستان جنة؛ لأنه يُجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره، كما قال تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

وأصحاب الجنة هؤلاء هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله عز وجل بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

قال الإمام أحمد: «هذه مدينة ضروان قد مررت بها، وهي قريبة من عبد الرزاق، رأيتها سوداء حمراء، أثر النار تبين منها، ليس فيها أثر ولا زرع ولا خضرة»(١).

﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين حلفوا.

﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والصرم: الجذاذ والقطع، أي: ليقطعنها ويجذّن ثمرها.

﴿مُصۡبِحِينَ﴾: حال، أي: حال كونهم مصبحين، أي: داخلين في **الصباح- وذلك** اغترارًا منهم.

قال ابن كثير(٢): «أي: حلفوا فيما بينهم ليجُذُّنّ ثمرها ليلا لئلا؛ يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد في الليل»(٣).

﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ حصة المساكين، أو، ولا يستثنون في حلفهم، أي: لم يقولوا: إن شاء الله؛ ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم، فأهلكها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾، أي: فنزل بها بلاء محيط، وطرقها طارق ليلًا من أمر الله تعالى وعذابه.

﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: أصابتها آفة سماوية فأحرقتها حال كونهم نائمين. فالمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٣/ ١٠٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٣.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقد قيل:

يا راقد الليل مسرورًا بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أجج النارا[1]

وقال الآخر:

هي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم

كنا ملوكًا لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يُرمى بأفجع حتفٍ من بهن رُمي[2]

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: فأصبحت كالليل الأسود البهيم من شدة الاحتراق، أو كالهشيم اليابس وبقية الثمر المصروم، والزرع المحصود.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا قد كان هيء له» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ قد حُرموا خير جنتهم»[3].

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾، أي: فتنادوا وقت الصباح، أي: نادى بعضهم بعضًا، قائلين:

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾، أي: هيا اذهبوا إلى حرثكم، قال مجاهد: «كان حرثهم

---

(١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي. انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٢) الأبيات لأبي عبد الله الغفيلي. انظر: «نفح الطيب» ٤/ ٥٢٩.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٣ ونسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

عنبًا»(١).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين على الصرام والجذاذ، ولم يعلموا ما طاف بجنتهم وما حل بها من العذاب.

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ الواو: حالية. والمخافتة: المسارة بالكلام، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم لجذاذها حال كونهم يتناجون سرًا فيما بينهم- خوفًا أن يسمعهم أحد- بمنع حق الله تعالى فيها، قائلًا بعضهم لبعض:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾، أي: ينبغي أن لا يدخلن جنتكم اليوم، أي: يوم صرمها.

﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، أي: فقير محتاج يطلب منكم الصدقة والإحسان إليه منها، أو يلتقط ما يتساقط من ثمرها.

ومن شدة حرصهم وبخلهم مخافتتهم بهذا الكلام؛ خوفًا أن يسمعهم المساكين أو من يخبرهم.

﴿وَغَدَوْاْ﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم قبل انتشار الناس، حتى لا يراهم أحد.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾، أي: على إمساك ومنع لحق الله وحق المساكين وانفراد عنهم.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم على ذلك، حسب زعمهم واعتقادهم.

فظنوا أنهم بما أضمروه من جذاذها ليلا ومنع المساكين من دخولها قادرون على الحفاظ عليها وحيازتها، فأحاط بها من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال بسبب سوء نيتهم، بل وتصميمهم وعزمهم على منع حق الله تعالى فيها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: فلما وصلوا إليها، وشاهدوها على الوصف الذي ذكر الله ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ قد تبدلت خضرتها ونضارتها بالسواد.

﴿قَالُوٓاْ﴾ من شدة الحيرة والانزعاج والذهول: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: تائهون عنها أخطأنا طريقها، فليست هذه بجنتنا، وذلك لِما شاهدوا من البون الشاسع بين حالتها

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٤ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالأمس وحالها اليوم.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قالوا: هذا بعد أن تيقنوا أن هذه هي جنتهم استحالت هكذا، أي: بل هذه هي، حرمنا خيرها وثمرتها عقوبة لنا على سوء قصدنا.

وفي الحديث «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(١).

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأيا وأحسنهم طريقة.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه التوبيخ: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، «لولا» للتحضيض، أي: ألم أقل لكم هلا تسبحون.

ومعنى ﴿تُسَبِّحُونَ﴾، أي: تنزهون الله عما لا يليق به بقولكم: «سبحان ربنا، سبحان الله»، ومن ذلك أيضًا أن تستثنوا في يمينكم فتقولوا: والله لنصرمنها مصبحين إن شاء الله، فهذا من تعظيم الله عز وجل وتنزيهه أن يقع ما لا يريده.

أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ سبحوا الرب ونزهوه وندموا حيث لا ينفع الندم، وبعد أن وقع على جنتهم العذاب الذي لا يرفع.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: أقروا بظلمهم، أي: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بترك تسبيح الله والاستثناء في اليمين، وبسوء نياتنا في حرمان المساكين، وظالمين للمساكين بمنع حقهم

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾، أي: أخذ بعضهم يلوم بعضًا على ما حصل منهم، قائلًا بعضهم لبعض تخويفًا:

﴿يَا وَيْلَنَا﴾ الويل: كلمة تهديد ووعيد، أي: يا شدة عذابنا، أو ما أشد عذابنا، فلام بعضهم بعضًا على فعلهم، وتوقعوا عقوبة أشد مما وقع بهم وأعظم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، أي: إنا كنا متجاوزين الحق والعدل إلى الباطل والظلم.

فأقروا واعترفوا بذنبهم وخطئهم، وأن ما أصابهم بسبب طغيانهم واعتدائهم وبغيهم، وظلمهم للمساكين.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾، «عسى» للترجي، أي: نرجو ربنا خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا أن يبدلنا ويعوضنا خيرًا من جنتنا التي صارت كالصريم.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾، أي: إنا راغبون في التقرب إلى ربنا، وطاعته وترك مخالفته تائبون إليه، وراغبون فيما عنده من الخير الدنيوي والأخروي، وبأن يعوضنا عن جنتنا خيرًا منها في الدنيا، ويثيبنا على خسارتنا فيها وما فاتنا من ثمرتها.

ويحتمل أنهم أرادوا خيرًا منها في الآخرة، ويحتمل الأمران.

قال السعدي(١): «فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا ورغب إليه ورجاه أعطاه سُؤْله»،

ولعل من أسباب توفيق الله لهم إلى التوبة صلاح أبيهم الذي كان يأكل ثلث الثمرة ويتصدق بثلثها ويرد فيها ثلثًا، فإن صلاح الآباء قد ينفع الأولاد.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الكاف: صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي أهلك الله به حرثهم يعذب من عصى الله وخالف أمره ولم يشكره، ومنع حق الله فيما آتاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن تيمية(٢): «وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلخ فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال، إما إغراقًا، وإما إحراقًا، وإما نهبًا، وإما

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥١.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٨.

مصادرة، وإما في شهوات الغي، وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس لهم إقدام في صنايع المعروف، وهو قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وهو أحد نوعي الظلم، كما أخبروا به عن نفوسهم في قوله: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، وكما قال ﷺ: «مطل الغني ظلم»[1]. فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة».

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو: عاطفة، و«اللام» لام الابتداء والتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، مهما كان عذاب الدنيا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، «لو» شرطية، أي: لو كانوا يعلمون علمًا ينفعهم أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

وفي هذا وعيد للمكذبين للرسول ﷺ من قومه، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم في بعثته ﷺ فيهم، ووعيد لكل من كفر بالله، أو بنعمه، ولم يؤد شكرها وحق الله فيها.

وقد ذكر المفسرون- رحمهم الله- أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل الكتاب،

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات ٢٢٨٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٣٤٥، والنسائي في البيوع ٤٦٨٨، والترمذي في البيوع ١٣٠٨، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكانوا ورثوها من أبيهم، وكان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان يقسم ما يخرج منها أثلاثًا، يأكل منها ثلثًا، ويتصدق بثلث، ويرد فيها ثلثا، فلما مات وورثها عنه بنوه فخالفوا هذه السيرة الحسنة، وعزموا على منع المساكين من دخولها وأكل حقهم فيها، وحيازة ثمرها كله لهم، واتهموا أباهم بالحمق وسوء التصرف، فعوقبوا بنقيض قصدهم، فأحاط بها كلها من أمر الله ما أحاط بها، فخسروا رأس المال والربح والصدقة، ولم يبق لهم شيء.

وهكذا عاقبة من منع حق الله الذي شرعه في المال من حق الفقراء والمساكين وغيرهم من الصدقات والنفقات وغير ذلك؛ لأن حق الله الذي جعله في المال قليل من كثير، فمن منعه وشح به فقد عرض نفسه لمحق البركة وتلف القليل والكثير، مع العذاب الأخروي.

ولهذا جاء في الأثر: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»(١).

والشواهد على هذا من الواقع كثيرة فإن من أخذ المال من طرق حلال، وأنفقه في الحلال، وأدى حق الله فيه للفقراء والمساكين وغيرهم بارك الله له في ماله وسعد به في دنياه وأخراه، بخلاف من منع حق الله في ماله، فإن ذلك يكون سببًا لمحق بركته، بل سببًا لتسلط الآفات السماوية والأرضية عليه، وتسلط أهل السطو والسرقات عليه.

فالحقوق الواجبة في المال من الزكاة والنفقات والصدقات وغيرها إذا أخرجت من المال زكته وزادته نماءً وبركة، وإن تركت فيه كانت سببًا لمحق بركته وتلفه، مع العقوبة الشديدة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١/ ٢٤- من حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» ٦/ ٥٢٥.

القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار..»[1].

**الفوائد والأحكام:**

١- ابتلاء الله للكفار والمكذبين بما آتاهم من الأموال والأولاد مما حملهم على التكذيب والكفر والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

٢- أن الابتلاء يكون بالخير والشر.

٣- أن كفر النعم وعدم شكرها سبب لزوالها، وهكذا حصل لأصحاب الجنة المذكورة لما عزموا على منع حق المساكين فيها، وأقسموا على ذلك أهلك الله حرثهم، وقد حفظها الله عز وجل لأبيهم في حياته لشكره وأدائه حق الله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال مما يحمل على منع حق الله فيه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

٥- مشروعية الاستثناء باليمين حتى لا يقع الحالف في الحنث فيأثم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

٦- عظم عقوبات الله تعالى وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

٧- وجوب الاعتماد على الله وحوله وقوته، والبراءة من اعتماد الإنسان على حوله وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن المصائب والرزايا أكثر ما تقع على الناس في ساعة الغفلة والاغترار؛ لقوله

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٥٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

١٠- حرمان الإنسان الرزق بسبب الذنب يصيبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- الحذر من سوء النية والقصد وخطورة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

١٢- في قصص المبتلين وعقوبات العاصين عظة وعبرة لمن يعتبر.

١٣- توفيق الله عز وجل لأصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم إلى الندم وتسبيح الله عز وجل والاعتراف بظلمهم وإقبال بعض على بعض يتلاومون والإقرار بطغيانهم وسؤالهم الله عز وجل أن يبدلهم خيرًا منها ورغبتهم إليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٤- وجوب التوبة إلى الله عز وجل، وإثبات ربوبية الله الخاصة لمن تاب وأناب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

١٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لكل من كفر نعم الله من أهل مكة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

١٦- أن عذاب الآخرة لمن كفر نعم الله وعصاه ولم يشكره أشد من عذاب الدنيا وعقوباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

١٧- الحض والحث على العلم الذي ينفع صاحبه في الآخرة وهو العلم بالله عز وجل وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

نهى الله عز وجل عن طاعة المكذبين وبين أنه ابتلاهم بما أنعم به عليهم من النعم وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، كما ابتلى أصحاب البستان الذين منعوا حق الله فيه، فأحاط به من أمر الله ما أحاط به، عقوبة عاجلة وعذابًا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لمن عصى الله وكفر نعمه، ولم يؤد حق الله فيها، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من جنات النعيم التي لا تفنى ولا تعتريها الآفات، وأنهم لا يستوون مع المجرمين المكذبين والرد على من زعم ذلك، أو طمع فيه، وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك أداء ما عليهم من حقوق وواجبات بدنية أو مالية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف اسم الرب أو وصفه إلى الضمير العائد إلى المتقين تشريفًا وتكريمًا لهم، وإشارة لضمان ذلك لهم؛ لأن الرب هو الخالق المالك المتصرف.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي:المنازل التي أعدها الله لهم، وسماها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لما فيها من ألوان النعيم والنعم، ولما فيها من البساتين والأشجار والثمار، ولما فيها من أنواع التنعم، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتقريع، والنفي.

أي: أفنساوي بين المسلمين والمجرمين في الجزاء الدنيوي والأخروي، أي: لا يمكن أن نساوي بينهم؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى ذلك، وكذا عدله سبحانه،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فللمسلمين النعيم والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.

والمراد بالجعل هنا الجعل الشرعي الجزائي و«المسلمين» هم الذين استسلموا لله عز وجل وانقادوا له بجوارحهم الظاهرة والباطنة وهم المتقون.

و«المجرمين» هم الذين ارتكبوا الجرائم وخالفوا أمر الله ونهيه، وكذبوا رسله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، «ما»: استفهامية، أي: كيف تحكمون بهذا الحكم، وتظنونه، فشتان بين من اتقى الله واستسلم له، وانقاد ظاهرًا وباطنًا، وبين من عصى الله وخالف أمره وارتكب نهيه في الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام التي للتوبيخ والتقريع، أي: بل، ألكم كتاب منزل من عند الله فيه تقرؤون، فأخذتم منه هذا الحكم الجائر.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، أي: إن لكم في هذا الكتاب للذي تختارون لأنفسكم وتشتهونه.

والجواب: ليس لكم ولا عندكم كتاب أخذتم منه ذلك، فليس لكم ما تخيرون.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾، «أم» كالتي قبلها، ومثلهما التي بعدها، أي: بل، ألكم علينا ﴿أَيْمَانٌ﴾، أي: عهود ومواثيق ﴿بَالِغَةٌ﴾، أي: مؤكدة مستمرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تضمن وتتكفل ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، أي: للذي تحكمون به لأنفسكم وتختارونه وتريدونه لها.

أي: ليس لكم علينا عهود ومواثيق بذلك، فليس لكم ما تحكمون.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، «الزعيم»: الكفيل الضامن، أي: سلهم يا محمد أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن، إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾، أي: بل، ألهم شركاء من الأصنام والأنداد أشركوهم مع الله، فتكفلوا لهم بذلك وضمنوه لهم.

﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾، أي: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ويحضروهم؛ ليعطوهم ما تكفلوا به لهم.

﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم أن لهم ما يتخيرون وما يحكمون به لأنفسهم، أو إن كان هؤلاء الشركاء صادقين.

وكل ما ذكر منتف عنهم فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

**الفوائد والأحكام:**

١- وعد الله للمتقين وبشارتهم بما أُعد لهم عند ربهم من جنات النعيم وفي هذا ترغيب بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة للمؤمنين وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٣- شتان بين المسلمين وبين المجرمين فيما أعد الله لكل منهم فالمسلمون لهم السعادة وجنات النعيم، والمجرمون لهم الشقاء وعذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٤- كمال عدل الله عز وجل، وقيام أحكامه الكونية والشرعية والجزائية على العدل بأكمل صوره وأسمى معانيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٥- خطأ المكذبين والمجرمين وضعف رأيهم وبطلان معتقدهم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، وأن لهم ما يتخيرون وما يحكمون، فليس لهم ما يحكمون وما يتخيرون، ولا حجة لهم على ذلك ولا دليل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٦- تحدي المكذبين بأن يأتوا بمن يضمن لهم ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم من زعيم أو شريك، وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

٧- خذلان الشركاء يوم القيامة وبراءتهم ممن أشركوهم مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، وأنه لا يمكن أن يجعل المسلمين كالمجرمين في الجزاء، بل لكل جزاؤه، فللمسلمين الثواب، وللمجرمين العقاب، أتبع ذلك ببيان متى يكون ذلك فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيات.

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، «يوم» ظرف زمان متعلق بما قبله، أي أن جزاء المتقين بجنات النعيم، وجزاء غيرهم بما يستحقون يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا»[(١)].

وهذا الحديث أولى ما تفسر به الآية فيكون معناها: يوم يكشف الله عز وجل عن ساقه.

ويؤخذ منها ومن الحديث إثبات الساق لله عز وجل وكشفه ذلك اليوم، كما يليق بجلال الله وعظمته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ولا ينافي هذا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، أي: يوم يكشف عن ساق الجد، أي: يوم الكرب الشديد، والهول الفظيع، والأمر الشديد[(٢)]، كما يقال: كشفت الحرب عن ساقيها قال حاتم الطائي[(٣)]:

**أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها     وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا**

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٩، ومسلم في الإيمان ١٨٢.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٣/ ١٨٦- ١٩٦.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٥٠.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

فالآية تحمل على هذا وهذا ولا تنافي بينهما، وكل ما ذكر يحصل يوم القيامة وأشد منه.

وقد مال ابن تيمية وابن القيم[1]- رحمهما الله- إلى أن ظاهر القرآن لايدل على إثبات صفة الساق لله- عز وجل؛ لأن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل: عن ساقه، وإنما الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد.

والذي يظهر- والله أعلم- من سياق الآية والحديث أن الحديث شرح وتفسير للآيه، وبهذا تجتمع الآيه مع الحديث، في الدلالة على هذه الصفة.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ويطلب من المجرمين تبكيتًا لهم أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرون عليه ولا يستطيعون الانحناء- لتصلب ظهورهم-.

كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وذلك؛ لأنهم امتنعوا عن السجود لله عز وجل وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

والسجود في الأصل يطلق على الانقياد والخضوع مطلقًا، ويطلق على الصلاة كلها كما في قوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلت الطائفة الأولى فليكونوا من ورائكم يحرسون.

ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة كما هو المشهور وهو المراد في الآية هنا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذليلة منكسرة خاضعة أبصار المكذبين والمجرمين يوم القيامة.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾، أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾، أي: ذل وخوف وهوان وصغار.

﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو: حالية و«قد»: للتحقيق.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو أيضًا: حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا يطلب منهم السجود حال كونهم سالمي الأعضاء فلا يسجدون، فعوقبوا بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٩٤، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٥٢.

قال ابن كثير[1]: «ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون».

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«من» موصولة، والمراد بالحديث: القرآن، أي: فدعني يا محمد واتركني والذي يكذب بهذا القرآن، ولا تستعجل له، فأمره إليّ في حياته وبعد مماته، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن كذب بالقرآن، وتقوية لقلب النبي ﷺ، وتسلية له، ودفاع عنه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ هذا مما توعدهم الله به في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ وذلك باستدراجهم والكيد لهم؛ ليتمادوا في غيهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: نأخذهم شيئًا فشيئًا من حيث لا يعلمون، وذلك بتمتيعهم في الدنيا بالأموال والأولاد والأرزاق والأعمال والأعمار ليتمادوا في طغيانهم، ثم نأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم وأمدهم؛ لكي يتمادوا في غيهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ الكيد: المكر بخفية، أي: إن مكري الخفي.

﴿مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن كذب رسلي وكتبي، فكيف بمن كذب أفضل رسلي محمدًا ﷺ وأعظم كتبي القرآن الكريم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٥- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: أني أمهلهم وأنظرهم، بل وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم، ولا أهملهم، بل

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٥- ٢٢٦.

أكيد لهم في الخفاء، وأمكر بهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، «أم» هي المنقطعة، أي: بل أتسألهم أجرًا يعني على تبليغك الرسالة لهم؟

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾، أي: فهم من هذا الغرم وهو الأجر الذي طلب منهم.

﴿مُّثْقَلُونَ﴾، أي: أثقلهم هذا الغرم وعجزوا عن حمله، وحال ذلك بينهم وبين الاستجابة لدعوتك. والجواب: أنك لم تسألهم على ذلك أجرًا، فلماذا لا يستجيبون؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، أي: بل أعندهم الغيب، أي: أعندهم علم ما غاب عن الحواس من الغيبيات الموجودة، والسابقة واللاحقة من أحوال وأمور الدنيا والآخرة وعلم اللوح المحفوظ؟

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون، وأنهم على كفرهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان، وأنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله.

والجواب: أنه ليس عندهم علم الغيب فيكتبوا لأنفسهم ما يريدون، بل الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل: ٦٥].

وإذا لم يكن عندهم علم الغيب، فلماذا يكذِّبون رسل الله وكتبه، وهو عالم الغيب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

والشهادة وهو العليم الخبير.

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات الساق لله عز وجل على ما يليق بجلاله، كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتفق على صحته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

٢- شدة أهوال يوم القيامة وكربه.

٣- عقوبة المجرمين الكافرين بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة؛ لأنهم لم يسجدوا لله في الدنيا مع قدرتهم على ذلك، وفي هذا فضيحة وتوبيخ لهم، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

٤- انكسار وذل أبصار المجرمين يوم القيامة وهوانهم وصغارهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

٦- استدراج المكذبين وإمهالهم ثم أخذهم بشدة على غفلة منهم وغِرّة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

٧- أن الله عز وجل يكيد لمن كاد لدينه ولأوليائه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

٨- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم، فلم يسألهم النبي ﷺ أجرًا مقابل تصديقهم به وبما جاء به فيحتجون بثقل هذه الغرامة، ولم يكن لديهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون ويختارون لها ما يشتهون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآيات السابقة أن يترك أمر المكذبين إليه سبحانه فقال: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآيات وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، ثم أمره بالصبر لحكم الله، ومن ذلك الصبر على أذاهم.

قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الأمر والخطاب للنبي ﷺ، والصبر في اللغة: الحبس، أي: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وحكم الرب ينقسم إلى أقسام ثلاثة: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

أي: فاصبر لحكم ربك الشرعي في تبليغ رسالته وعبادته، واصبر لحكمه الكوني فيما ينالك من أذى قومك وغير ذلك.

قال ابن تيمية[١]: «وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية، والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضبًا لربه لأجل الأمر السماوي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم».

وقال السعدي[٢]: «﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، والحكم القدري يُصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره».

وأضاف عز وجل حكمه إلى اسمه عز وجل «الرب» الذي معناه الخالق المالك المدبر إشارة إلى أن الأمر له في ذلك كله.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥٤.

﴿وَلَا تَكُن﴾، أي: ولا تكن في الاستعجال والمغاضبة وقلة الصبر.

﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام- حين غضب على قومه، ولم يصبر، وذهب متجها إلى البحر، وركبه وما جرى له في ذلك حيث اقترع أهل السفينة لما ثقلت بهم واشتدت بهم الأمواج أيهم يُلقى لئلا يغرقوا، فوقعت القرعة عليه أكثر من مرة ابتلاءً من الله له، فألقوه فالتقمه الحوت وهو مليم.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، أي: إذ نادى ربه ودعاه، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مكظومًا.

ومعنى ﴿مَكْظُومٌ﴾، أي: مغموم مكروب، قد امتلأ همًا وحزنًا، في بطن الحوت، وغمرات اليم بعد ما التقمه الحوت وغاص به في لجج البحر.

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾»(١).

والمراد: لا تكن مثله في الاستعجال والمغاضبة، وليس النهي عن كونه مثله في مناداة ربه، فإن الله أثنى عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه بسببه فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، «لولا»: شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: لو لا أن أدركه نعمة من ربه، ولطف منه عز وجل، فرحمه وتاب عليه.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: تعظيم لهذه النعمة؛ لأنها من «ربه»؛ خالقه ومالكه ومدبره.

وفي إضافة «الرب» أو وصفه إلى ضميره تشريف وتكريم ليونس- عليه السلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، وأحمد ١/ ١٧٠.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾، أي: لطرح في الأرض الفضاء الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مذمومًا غير ممدوح، مليمًا بذنب، لكن الله عز وجل تداركه بنعمته ولطف به برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى؛ ولهذا قال:

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة؟ قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين» فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لايارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء»(٢).

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: استخلصه ربه واصطفاه واختاره ونقاه من كل كدر.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٤ في تفسير سورة الأنبياء.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بتوفيقه وتقديره الشرعي والكوني.

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المرسلين المخلصين العبادة له- سبحانه- وفق شرعه وأمره ونهيه الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فصارت حاله خيرًا وأحسن من حاله الأولى.

كما صارت حال آدم وزوجه عليهما السلام بعد توبتهما أفضل من حالهما قبل الذنب والأكل من الشجرة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[(١)].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الواو: استئنافية، أي: ويقارب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «ليَزلقونك» بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾.

أي:لينفذونك بأبصارهم، أي ليصيبونك بأعينهم ويصرعونك من شدة نظرهم إليك وحسدهم وحنقهم وغيظهم، لولا حفظ الله لك وحمايته إياك منهم.

وهذا غاية ما يقدرون عليه من الأذى له ﷺ، والله حافظه وناصره، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾، أي: حين سمعوا القرآن منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية دليل على أن العين حق، لكن إصابتها وتأثيرها بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث من طرق متعددة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٧، وأبو داود في السنة ٤٦٦٩، وأحمد ١/ ٣٩٠.

القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»[٢].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»[٤].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم»، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[٥].

وعنه رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك»[٦].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف قال: «مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبِطَ به[٧] فأُتي به النبي ﷺ فقيل

---

(١) أخرجه مسلم في السلام- باب الطب والمرض ٢١٨٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- باب العين حق ٥٧٤٠، ومسلم في الباب السابق ٢١٨٧، وابن ماجه في الطب، باب العين ٣٥٠٧، وأحمد ٢/ ٣١٨- ٣١٩، ٤٨٧.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الطب ما جاء أن العين حق والغسل لها ٢٠٦١، وأحمد ٢/ ٢٨٩، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء- ما جاء في الرقية من العين ٣٣٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٣٧، والترمذي في أبواب الطب ٢٠٦٠، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٥.

(٥) أخرجه مسلم في السلام- الطب والمرض والرقى ٢١٨٦، والترمذي في الجنائز- ما جاء في التعوذ للمريض ٩٧٢، وابن ماجه في الطب- من استرقى من العين ٣٥٢٣، وأحمد ٣/ ٢٨، ٥٦، ٥٨، ٧٥.

(٦) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢١٣٥، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٧) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

له أدرك سهلًا صريعًا، قال: «من تتهمون به»؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين»(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»(٣).

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق»(٥).

فهذه الأحاديث كلها تدل مع الآية على أن العين حق، وأنها قد تقتل وقد تمرض، وغير ذلك، وكل ذلك بإرادة الله عز وجل.

كما يدل بعض هذه الأحاديث على مشروعية التعوذ وتعويذ الأولاد من العين، والرقية والاسترقاء منها، وأنه ينبغي إذا رأى الإنسان ما يعجبه أن يدعو له بالبركة.

وإذا كانت الإصابة بالعين حقًا بإرادة الله عز وجل فليس معنى ذلك أن نستسلم للأوهام والوساوس، ولما يقوله السحرة والمشعوذون والدجالون ومردة الجان من الأكاذيب في هذا، بل يجب على المسلم الاعتماد على الله عز وجل والتعوذ والتحصن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب- باب العين ٣٥٠٩، وأحمد ٣/ ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- رقية العين ٥٧٣٨ ومسلم في السلام، استحباب الرقية من العين ٢١٩٣، وابن ماجه في الطب ٣٥١٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الطب- ما جاء في الرقية من العين ٢١٣٦، ٢١٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥١٠، وأحمد ٦/ ٤٣٨، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

بالأدعية والأوراد الشرعية، فإنها حصن حصين به يحفظ الله الإنسان من العين والسحر والجن وسائر الشرور قبل الإصابة بها وبعدها فإن شياطين الإنس والجن جعلوا من الإصابة بهذه الأمور مركبًا لهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ونقلهم من بر الأمان بالاعتماد على الله عز وجل والثقة به واللجوء إليه في حال السراء والضراء والتعلق به وحده سبحانه إلى حياة الأوهام والوساوس والمخاوف والقلق، ليروجوا أباطيلهم ودجلهم وكذبهم، ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل، فإذا جاءهم المريض، أو من ليس عنده إلا وساوس وأوهام سارعوا إلى إدخاله في دوامة لا يخرج منها مدة حياته. فحكموا- قطعًا- بأنه مسحور، أو مصاب بالعين، أو فيه مس من الجنون رجمًا بالغيب، فمن راجعهم لا يسلم من أحد الأمور الثلاثة حتى ولو كان جاء ليختبرهم وهو سليم معافى، حتى اتهم أناس بالسحر والعين وهم من ذلك براء، وحصلت بسبب ذلك عداوات وفرقة بين الأقارب والأزواج والإخوة والجيران، ومن بينهم تعامل وتعارف. وكل هذا من تلبيس الشيطان ووساوسه وأوهامه؛ ليفسد على الناس دينهم وعقائدهم، بل ودنياهم، ويؤجج ذلك ويروج له أكلة أموال الناس بالباطل من شياطين الإنس من السحرة والمشعوذين والدجالين ومرضى القلوب من بعض القراء هداهم الله، وكذا بعض مفسري الأحلام، ممن يريدون الشهرة، ولو على حساب دينهم- نسأل الله السلامة والعافية، وأن يكفي المسلمين شرورهم.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: ويقولون: إن محمدًا لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل، معتوه؛ لأنه جاءهم بالقرآن من عند الله عز وجل، وهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى القولي له ﷺ تارة يقولون مجنون، وتارة شاعر، وتارة ساحر، وتارة كاهن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا رد عليهم، أي: ليس محمد ﷺ بمجنون كما تزعمون، وما القرآن الذي جاءكم به إلا ذكر من عند الله عز وجل للعالمين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧].

أي: يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

**الفوائد والأحكام:**

١- تقوية الله عز وجل لقلب نبيه ﷺ وطمأنته له بأمره بالصبر، وإثبات ربوبيته الخاصة له وعونه له، وتشريفه بإضافة وصف الرب أو اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

٢- أن الصبر أكبر معين على القيام بالرسالة، والدعوة إلى الله، وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

٣- نهي الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ أن يكون في المغاضبة والاستعجال مثل يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾.

٤- أن ما حصل ليونس عليه السلام من الابتلاء من إلقائه في البحر والتقام الحوت له بسبب مغاضبته لقومه واستعجاله، وعدم صبره.

٥- أنه لا ملجأ في الشدائد إلا إلى الله عز وجل لهذا نادى يونس عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين عن الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها بل سرعان ما ينبهون عليها ويحدثون منها توبة؛ ولهذا هنا لم يصرح بما حصل من يونس عليه السلام، بينما صرح في ندائه ربه وتوبته إليه.

٧- نعمة الله العظمى على يونس عليه السلام حيث تداركه بنعمته وتاب عليه واستخلصه وجعله من الصالحين، فصارت حاله خيرًا وأحسن من حاله الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾.

٨- فضل نبينا محمد ﷺ على يونس عليه السلام وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

٩- شدة عداوة الذين كفروا للنبي ﷺ ولما جاء به، وحسدهم له ومحاولتهم إصابته بأبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾.

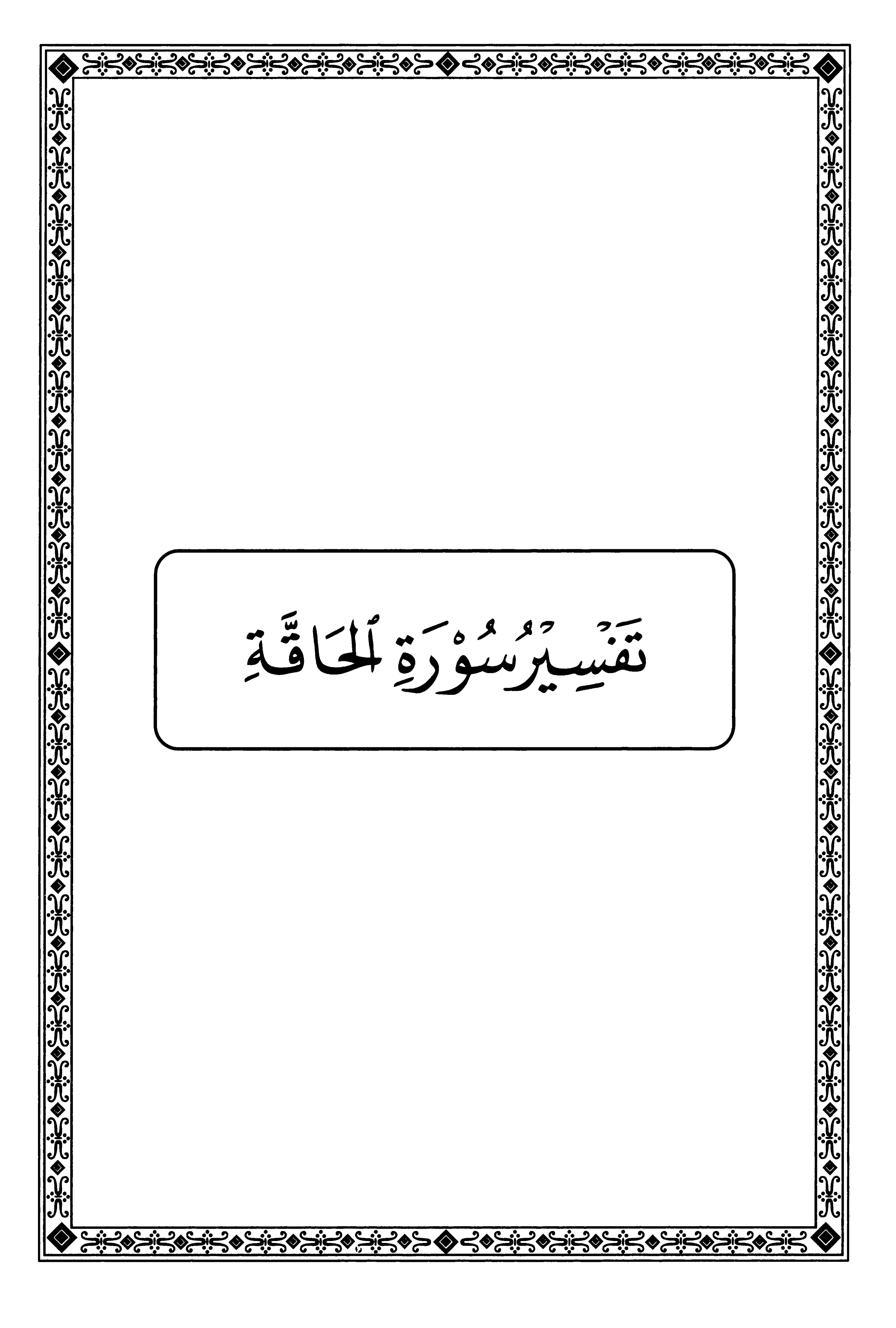
١٠- أن العين حق تصيب بإذن الله عز وجل. وذكر الله عز وجل والتعوذ به كما أمر وقاية منها بإذنه عز وجل قبل وقوعها وعلاج لها بعد وقوعها.

١١- أن ديدن المكذبين للرسل والدعاة إلى الله رميهم بأبشع الصفات تنفيرًا

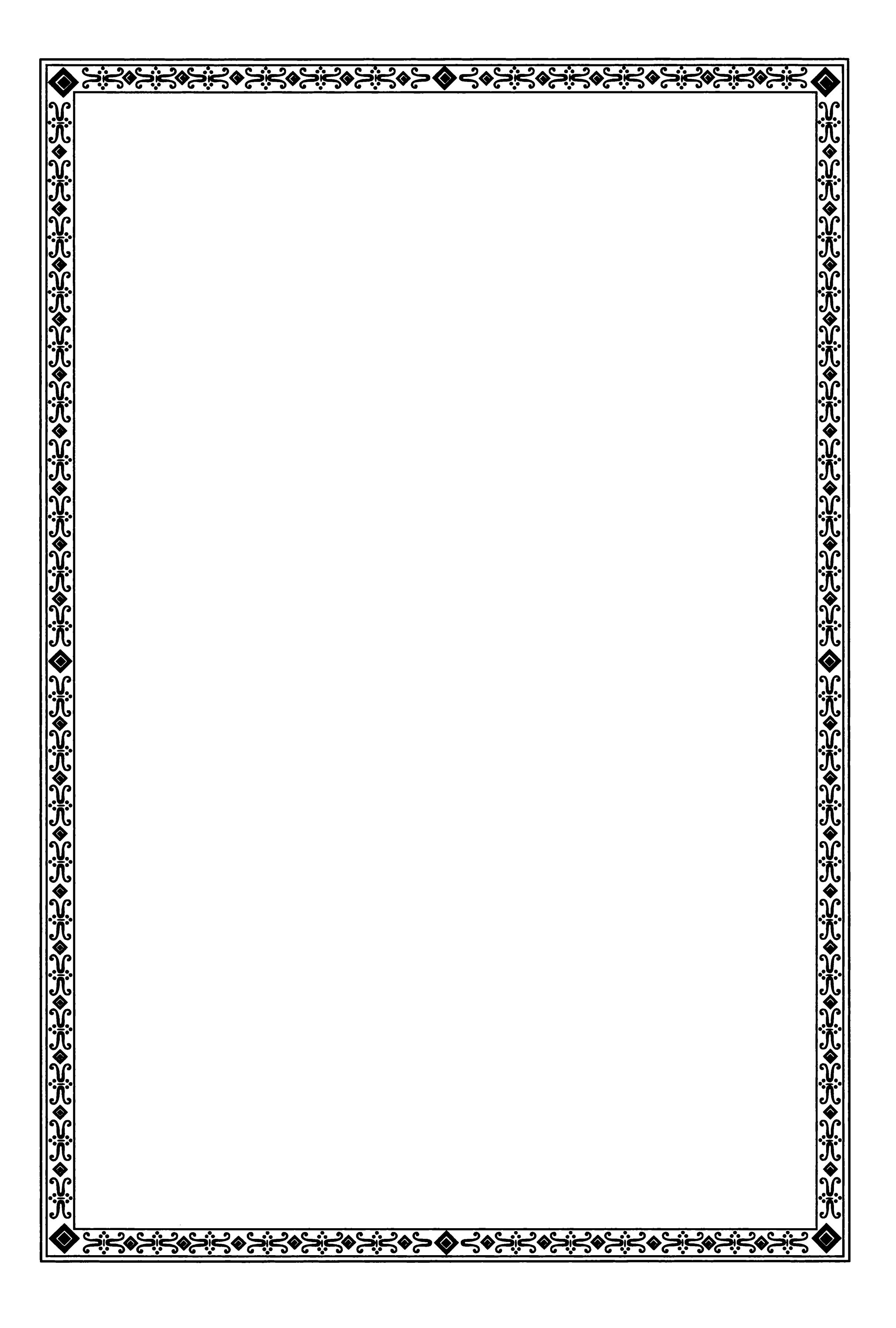
للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

١٢- الرد على المكذبين في رميهم الرسول ﷺ بالجنون، وإثبات أن ما جاء به من القرآن إنما هو ذكر للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الحَاقَّةِ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحاقة» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، أي قلت في خاطري، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾، قلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾، إلى آخر السورة؛ فوقع الإسلام في قلبي كل موقع(١).

ويُقال لها: «سورة السلسلة»؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾.

ويُقال لها: «الواعية» أخذًا من قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾.

### ب- مكان نزولها:

مكية.

### جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى قسمين: آخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧.

هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب عاد وثمود بالقيامة، وإهلاك عاد بالريح، وإهلاك ثمود بالصيحة الطاغية، وذكر تكذيب فرعون وقوم لوط وعصيانهم رسل ربهم، وأخذهم بشدة وإهلاكهم، ونجاة نوح ومن معه على السفينة لما طغى الماء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

٣- تأكيد أن القرآن الكريم حق وصدق، وليس بقول شاعر ولا كاهن كما زعم المكذبون، بل تنزيل من رب العالمين، وتذكرة للمتقين، وحسرة على الكافرين وحق اليقين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾.

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ القيامة، وسميت بذلك؛ لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة، ولأنها تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، «ما» استفهامية. وهذا تعظيم لأمرها وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقه، أمرها عظيم، وشأنها كبير.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، وتفخيم له بعد تفخيم.

والواو: عاطفة و«ما»: استفهامية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: وما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾ [الانفطار: ١٥-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ [النازعات: ٣٤- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ

﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٣- ٤٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ﴾ الآيات.

عظم الله عز وجل أمر القيامة وشأنها ثم ذكر بعض الأمم المكذبين بها وما حل بهم من العقوبات الدنيوية قبل القيامة تمهيدًا لتفصيل أهوال القيامة.

و«ثمود»: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة بمدائن صالح.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد الأولى، وهم عاد إرم.

كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الآيات: ٦- ٨] مساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾، أي: بالقيامة، وسميت بذلك؛ لأنها تقرع القلوب، وتفزع الناس وتزعجهم بأهوالها، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١- ٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل.

﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، أي: بالصيحة العالية الشديدة العظيمة الفظيعة التي تجاوزت الحد، التي قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالطاغية: الطغيان والمعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١]، أي: بسبب طغيانها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فبسبب طغيانهم أهلكوا بالطاغية، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ﴾، «الريح»: تستعمل غالبًا فيما يضر ويهلك، و«الرياح» بضد ذلك تستعمل غالبًا في الخير وفيما ينفع.

وفي الحديث في دعاء هبوب الريح: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا، اللهم

اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»[١].

وقد تستعمل «الريح» في الخير وفيما ينفع، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿صَرۡصَرٍ﴾: شديدة البرد، شديدة الصوت.

﴿عَاتِيَةٖ﴾: شديدة العصف والهبوب، عتت على «عاد» وزادت عن الحد.

وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[٢].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: سلطها عليهم.

﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾، أي: متتابعات كاملات بلا زيادة ولا نقصان مشؤومات نحسات كما قال عز وجل في سورة فصلت: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [الآية: ١٦].

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾، أي: مصروعين هالكين موتى.

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ كأنهم جذوع وسيقان نخل قطعت رؤوسها.

﴿خَاوِيَةٖ﴾ ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض، فهم أجساد بلا رؤوس، كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [القمر: ٢٠]

قال ابن كثير[٣]: «أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان»

﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ الفاء: عاطفة، و«هل»: حرف استفهام يفيد النفي.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص٨١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأبويعلى الموصلي في «مسنده» ٤/ ٣٤١ (٢٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢١٣ (١١٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٦.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: فهل تشاهد يا محمد ويا أيها الناظر لهم من باقية، أي: أنك لا ترى ولا تشاهد لهم من بقية، بل كلهم هلكوا وبادوا عن آخرهم. وهذه آثار الذنوب والمعاصي، فإنها تذر الديار بلاقع.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾، فرعون: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام والذي ادعى الربوبية والألوهية، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي بكسر القاف وفتح الباء: «ومَن قِبَله»، أي: أتباعه وجنوده من كفار القبط.

وقرأ الباقون: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومن قبله من الأمم المكذبين للرسل.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: قرى قوم لوط التي أسقطها الله عز وجل، وجعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]. والمراد بالمؤتفكات أهلها.

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾، أي: بالفعلة والأعمال الخاطئة، من الكفر وتكذيب رسل الله وكتبه والخطايا والمعاصي، ومنها إتيان الذكران من العالمين.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، أي: فعصوا رسول ربهم إليهم، و«رسول»: اسم جنس، أي: رسل ربهم، والضمير الواو في «عصوا»، وضمير «هم» في قوله «ربهم» يعودان إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات، أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٤].

ومن كذب رسوله كمن كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١].

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: فأخذهم الله جميعًا أخذة زائدة في شدتها وعظمتها على الحد والمقدار، مهلكة.

يقال: ربا، أي: زاد، ومنه سمي الربا، وهو الزيادة.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾، أي: لما زاد الماء على الحد، وارتفع على الأرض، وغمر السهل والجبل، وعمّ أهل الأرض الطوفان والغرق، إلا من كان مع نوح عليه السلام في السفينة.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: في سفينة نوح عليه السلام الجارية على وجه الماء بقدرة الله عز وجل، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا من سواكم من أهل الأرض، فالناس بعد هذا كلهم من سلالة نوح عليه السلام وممن نجوا معه في السفينة.

فامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم في الجارية وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، اللام: للتعليل، والضمير «ها» يعود إلى نعمة الله عز وجل ومنته في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه، أي: لنجعلها لكم عبرة وعظة تتذكرون بها نعمة الله تعالى عليكم وعلى أجدادكم؛ لأن النعمة على السابق نعمة على اللاحق.

ويحتمل عود الضمير على السفينة وكونها تجري على الماء، أي: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها.

قال ابن كثير(١): «عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار».

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢،١٣]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

وقيل: الضمير يعود إلى نفس سفينة نوح عليه السلام بقيت حتى أدركها أول هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: وتسمعها وتحفظها وتعقلها أذن سامعة حافظة عاقلة،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم، ووعى».

والمعنى: ويعقلها أولو الألباب ويأخذون العبرة منها وفي هذا تعريض بأهل الإعراض والغفلة والبلادة وعدم الفطنة؛ لعدم وعيهم وتفكرهم في آيات الله الكونية والشرعية، وعدم انتفاعهم بها.

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات القيامة وتحقق وقوعها وظهور الحقائق فيها لهذا سميت الحاقة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾.

٢- شدة أهوال القيامة وأحوالها، وعظم أمرها وخطرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

٣- تكذيب ثمود وعاد بالقيامة وما حل بهم من العقوبات العاجلة، فثمود أهلكوا بالصيحة الشديدة وعاد أهلكوا بالريح الصرصر العاتية؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾.

٤- ارتكاب فرعون ومن قبله وقوم لوط للأفعال الخاطئة ومعصيتهم لرسل ربهم وأخذهم بشدة وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾.

٦- شدة عذاب الله وعقابه وأخذه للظالمين والمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾.

٧- التحذير من مسالك المكذبين للبعث المخالفين للرسل كثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات، ومن أفعالهم الخاطئة بذكر ما حل بهم من العقوبات الشديدة

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

والهلاك المدمر.

٨- سوء عاقبة الكفر والذنوب والمعاصي وأن عاقبتها الهلاك والدمار وترك الديار بلاقع.

٩- امتنان الله عز وجل على العباد وتذكيرهم بنعمة الله- عز وجل- على آبائهم بإنجائهم من الغرق بسفينة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾.

١٠- في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وتسيير السفن على البحار نعمة من الله- عز وجل، ودلالة على عظم قدرته- عز وجل، وعبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة عقوباته للمكذبين، وإنجاءه للرسل وأتباعهم في الدنيا، وهذا من الجزاء الدنيوي الدال على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ثم أتبع ذلك بما هو أشد وأعظم، وهو القيامة ومقدماتها وأهوالها وأحوالها والجزاء الأخروي للفريقين.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة بأمر الله عز وجل، وهي النفخة الثانية، إذا تكاملت الأجساد نابتة فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩].

وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وأكدها بقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: مرة واحدة بلا تكرار؛ لأن أمر الله عز وجل نافذ لا يخالف ولا يمانع، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾: رفعت من مكانها بأمر الله عز وجل.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: فدقتا وسويّتا. قال الطبري[1]: «زلزلتا زلزلة واحدة».

وقال ابن كثير[1]: «أي: فمدت مد الأديم العكاظي، وتبدلت الأرض غير الأرض».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢٤.

وقال السعدي[٢]: «أي فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها فكان الجميع قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا».

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، أي: فيوم ذاك وحينه قامت القيامة، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها، وقربه لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، أي: تفطرت وتصدعت. كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١].

﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة متداعية بعد أن كانت محبوكة قوية متماسكة، لا فطور فيها ولا شقوق، وبعد أن كانت يضرب فيها المثل في قوة الخلق وكبره وشدته.

كما قال عز وجل: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ الملك: اسم جنس، أي الملائكة الكرام.

﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، أي: على جوانب السماء وأطرافها وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، أي: ويحمل عرش ربك يا محمد ورب كل مخلوق.

والعرش هو أكبر المخلوقات وأضافه إليه عز وجل؛ لأنه سبحانه استوى عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

---

=

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦١.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: ويحمل عرش ربك فوق الخلائق يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بُعْدما بين شحمة أذنه وعنقه مَخْفِقُ الطير سبع مئة عام»(١).

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»(٢).

وقيل المراد بالعرش الذي يوضع في الأرض لفصل القضاء، كما قيل: إن المراد بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانية صفوف من الملائكة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، أي: في ذلك اليوم تعرضون على الله للحساب والجزاء.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «لا يخفى».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ على التأنيث.

أي: لا تخفى عليه عز وجل منكم خافية من أقوالكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وغير ذلك؛ لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وقال: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب الجهمية ٤٧٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر البعث ٤٢٧٧، وأحمد ٤/ ٤١٤.

وأخرجه الترمذي في أبواب القيامة- ما جاء في العرض ٢٤٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولا من أبي موسى».

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٣٠- من حديث أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما- موقوفًا عليهما.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»(١).

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات النفخ في الصور ورد الأرواح إلى أجسادها وبعث الناس للحساب والجزاء وقيام القيامة الكبرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.

٢- عظم أهوال يوم القيامة ففيها تحمل الأرض والجبال وتدك دكة واحدة وتنشق السماء وتتصدع وتتداعى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾.

٣- سرعة نفوذ أمر الله- عز وجل- وعظم قدرته.

٤- انتشار الملائكة على أرجاء السماء، وحمل ثمانية منهم عرش الرحمن فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

٥- إثبات العرش لله عز وجل واستوائه عز وجل عليه فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطابه تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٨- عرض الخلائق على الله عز وجل في ذلك اليوم، وعرض أعمالهم لا يخفى منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٠.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة النفخ في الصور والقيامة وبعض أهوالها وأحوالها، وعرض الخلائق على الله عز وجل، ثم أتبع ذلك بتفصيل حساب من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وماذا يقول كل منهما، وماذا يقال له، وحال كل منهما ومآله وجزائه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: أداة تفصيل، و«من»: موصولة.

أي: فأما الذي أعطي كتاب عمله بيده اليمنى، وهو المؤمن، تمييزًا وتكريمًا له ورفعة.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

أي: فيقول لكل من لقيه من شدة فرحه واغتباطه واستبشاره وسروره:

﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، أي: خذوا وهاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، والهاء في «كتابيه» في الموضعين للسكت، وكذا في «حسابيه» في الموضعين، وفي «ماليه»، و«سلطانيه».

فهو لما شاهد وقرأ في كتابه من الحسنات العظيمة الماحية للسيئات مما يبشر بالمغفرة والثواب العظيم ينادي فرحًا مسرورًا، هاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧- ٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: «إن الله

يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾»[1].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، أي: إني علمت وتيقنت في حياتي في الدنيا أن البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأني ملاق ومقابل حسابي وجزائي في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: فاستعد- بتوفيق الله وفضله- بالعمل بما يكون سببًا للنجاة في ذلك اليوم.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: في عيشة مرضية يرضاها لنفسه، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٨- ١٠].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، أي: في جنة رفيعة المحل والمنازل والقصور والدور، نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم؛ كيفا وكمًا ونوعًا وأبدية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[2].

﴿قُطُوفُهَا﴾ قطوفها: ما يقطف من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾، أي: قريبة المنال، يتناولها من يريدها على أي حال كان واقفًا أو جالسًا أو مضجعًا أو غير ذلك، لا يحول دونها شوك أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾، أي: يقال لهم هذا القول؛ تكريمًا لهم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

وامتنانًا عليهم وتفضلًا، أي: كلوا من كل طعام لذيذ، واشربوا من كل شراب شهي. وخص الأكل والشرب من بين ألوان وأنواع النعيم؛ لأهميتهما فهما كسوة الباطن.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال، أي: حال كون الأكل والشرب هنيئًا، والهنيء هو اللذيذ الطعم المستطاب أكله وشربه من غير مكدر ولا منغص.

﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة، أي بسبب الذي أسلفتم، وقدمتم من الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفعل لأوامر الله وترك لنواهيه.

﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، أي: في الأيام الماضية الفائتة في الدنيا التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

فالأعمال الصالحة سبب لهذا النعيم، وليست عوضًا عنه، خلافًا للمعتزلة. وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

بعدما ذكر الله مقال من يؤتى كتابه بيمينه ومآله، وما يقال له أتبع ذلك بذكر مقال من يؤتى كتابه بشماله ومآله، جمعًا بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، أي: وأما الذي أوتي كتاب عمله بيده الشمال بعد أن تلوى وراء ظهره تمييزًا له وإذلالًا وخزيًا له وفضيحة وعارًا، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٢].

﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة الهم والغم والحزن: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، أي: أتمنى أني لم أعط كتابي، وذلك لما يرى من السيئات الكثيرة والقبائح الفظيعة والبشارة له بدخول النار.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾، أي: ويا ليتني لم أدر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم أحاسب.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾، أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، أي: فلم أحي بعدها.

وقيل: إنه تمنى أن يموت مع أنه لم يكن شيء في الدنيا أكره إليه من الموت.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾، «ما»: نافية، أي: ما نفعني مالي، ولا دفع عني شيئًا من عذاب الله تعالى لأني لم أقدم منه شيئًا للآخرة.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، أي: ذهب واضمحل ما كان لي من الحجة والتسلط والقوة، من الجنود والمنعة والعدد والعدة والجاه العريض وغير ذلك.

أي: أن مالي وسلطاني ما نفعاني وما دفعا عني عذاب الله تعالى.

﴿خُذُوهُ﴾ أمر من الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد بأن يأخذوا من أوتي كتابه بشماله ويمسكوا به بشدة وعنف وبلا رحمة في المحشر.

﴿فَغُلُّوهُ﴾، أي: فقيدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته.

كما قال تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

وقد ذكر المفسرون أنه إذا قال الله للزبانية ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ الجحيم: النار العظيمة شديدة التوقد والاشتعال والحرارة والظلمة بعيدة القعر.

﴿صَلُّوهُ﴾: أدخلوه واغمروه فيها، وقلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٍ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ذَرۡعُهَا﴾، أي: طولها بالذراع ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾، «الذراع»: من المرفق إلى نهاية الأصابع بذراع الرجل المعتدل، وقيل بذراع الملك.

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾، أي: فانظموه فيها، وذلك بأن تدخل السلسلة من دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها في نار جهنم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضَاضَة

مثل هذه، وأشار إلى مثل جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾، أي: إنما عذب بما ذكر بسبب أنه كان ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: لا يصدق بالله العظيم الذي له غاية العظمة، بل يكفر بالله وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ولا ينقاد لأمره ونهيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث أهله وغيرهم على إطعام المسكين من ماله وغيره.

والمسكين هو الفقير المحتاج، الذي أسكنه الفقر وأذله.

وإذا كان لا يحث على إطعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المساكين، فلا إحسان لديه في عبادة الله، ولا إلى عباد الله، لهذا عذب بما ذكر.

فهو لا يقوم بحق الله بعبادته وطاعته، ولا يؤدي حقوق خلقه في ما استخلفه الله فيه من المال؛ لأن الدين الإسلامي قائم على دعامتين هما: الإحسان في عبادة الله، إخلاصًا له، ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان بالقول والفعل وبذل المال والجاه وغير ذلك.

ولهذا أمر الله بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وقرن بينهما في نحو اثنين وثمانين موضعًا لأن في الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

بل إن القرآن كله والسنة النبوية كلها الأمر فيهما دائر بين الأمر بالإحسانين: الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، وقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يكررها حتى ما يفيض بها لسانه»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم- صفة طعام أهل النار ٢٥٨٨، وأحمد ٢/ ١٩٧ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز- ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وأخرجه أحمد أيضًا ١/ ٧٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و٣/ ١١٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿هَٰهُنَا﴾، أي: في الآخرة.

﴿حَمِيمٌ﴾، أي: قريب، أو صديق مشفق يشفع له ويدفع عنه عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

والناس في الدنيا يتناصرون بينهم، ويدافع بعضهم عن بعض، ولكن في ذلك اليوم لا أحد ينتصر لأحد، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، أي: وليس له في ذلك اليوم طعام إلا من غسالة صديد وقيح ودم أهل النار، وهو شر طعام أهل النار في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم. وقيل: المراد بالغسلين شجرة الزقوم.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾، أي: لا يأكل هذا الغسلين إلا أهل الخطايا المتعمدة من الكفر وسائر المعاصي والذنوب، الذين أخطؤوا الطريق المستقيم، وسلكوا طريق الجحيم.

والخاطئون: جمع خاطئ، وهو من تعمد الخطأ.

فالخاطئون من تعمدوا الكفر والمعاصي والذنوب بخلاف المخطئ فهو من وقع في الخطأ سهوًا ومن غير قصد.

**الفوائد والأحكام:**

١ - انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: مؤمن آخذ كتابه بيمينه وكافر آخذ كتابه بشماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الآيات، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

٢- فضل اليمين على الشمال.

٣- فرح واستبشار من أوتي كتابه بيمينه وعرضه لكتابه على من لقيه، وذكر السبب الذي أوصله إلى ذلك وهو إيمانه بالبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

٤- عظم ما أعد الله لمن أوتي كتابه بيمينه من الثواب والأجر العظيم فعيشته

راضية، ومسكنه جنة عالية، ثمارها دانية، مع النعيم المعنوي بالتهنئة لهم على ما قدموا في الأيام الماضية، لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

٥- وجوب الإيمان بالبعث والاستعداد بالعمل الصالح.

٦- حزن واستياء من أوتي كتابه بشماله وهو الكافر، وتمنيه أنه لم يؤت كتابه ولم يدر ما حسابه، وأنه لم يبعث بعد الموتة الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾.

٧- اعتراف من أوتي كتابه بشماله بأنه لم ينفعه ماله الذي كان يجمعه، ولا دفع عنه عذاب الله سلطانه وقوته في الدنيا، وهما اللذان كانا من أسباب تجبره وتكبره ورده الحق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

٨- شدة عذاب من أوتي كتابه بشماله، والجمع له في النار بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ ففي هذا الأمر والقول عذاب معنوي، وفي إيقاعه عليه عذاب حسي.

٩- أن سبب تعذيب المعذبين هو عدم إيمانهم بالله العظيم، وعدم أداء حقوق المساكين من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

١٠- وجوب الإيمان بالله؛ إحسانًا في عبادته وإخلاصًا له، والإحسان إلى خلقه وبهذا ينجو الإنسان من العذاب ويظفر بالثواب.

١١- ليس لمن أدخل النار قريب أو صديق ينفعه أو يدفع عنه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾.

١٢- ليس للمعذب في النار طعام سوى غسالة وصديد أهل النار مما لا يأكله إلا من ارتكبوا الخطايا والآثام من الكفر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة القيامة وأهوالها، وانقسام الناس فيها إلى قسمين من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وجزاء كل منهما، ثم أتبع ذلك بالإقسام على أن القرآن حق والرد على المكذبين.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاء: للاستئناف، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، والقسم هو الحلف.

والمعنى: فأقسم بالذي ترون وتشاهدون أيها الخلق من الأشياء والذي لا ترونه ولا تشاهدونه منها، أي: أقسم بالأشياء كلها ويدخل في ذلك نفسه المقدسة.

وهذا أعم قسم في القرآن الكريم، فإنه يعم العالم العلوي والسفلي، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، من الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي وكل شيء، وكل ذلك من آيات الله ودلائل قدرته وربوبيته وصدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله وكلامه وتنزيله، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأنه حق من عند الله، كما أن هذه الأشياء كلها حق ما يرى منها وما لا يرى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾: هذا هو جواب القسم، والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، واللام: للتوكيد، أي: إن القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: محمدًا ﷺ؛ لأنه هو المبلغ عن الله عز وجل؛ لهذا أضافه إليه.

كما أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام؛ لأنه الواسطة الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [الآيات: ١٩ - ٢١].

وأضافه إلى الرسول بلفظ القول بينما أضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ

﴿يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ لأنه عز وجل هو المتكلم به، ولأن الرسول مأمور بأن يقول لمن أرسل إليهم ما أمره الله به، كما قال عز وجل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠]. ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال ابن القيم[(١)]: «وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير».

وقوله: ﴿كَرِيمٍ﴾، أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهو كريم ﷺ بتبليغ رسالة ربه إلى الناس وبيان ما أنزل إليه من الوحي أتم بيان وأكمله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[(٢)].

وهو ﷺ كريم جواد بالمال جاءه رجل فسأله فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه قائلًا: «يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».

وفي رواية «وما يخاف الفقر»[(٣)].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرًا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢- من حديث أنس- رضي الله عنه.

وأوسع من الصبر»[١].

ولقد أحسن القائل:

هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

تعوّد بسط الكف حتى لو انّهُ ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله[٢]

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، «ما»: نافية، أي: وما هو - يعني القرآن الكريم بقول شاعر كما تزعمون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور: ٣٠].

وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ فتوعده الله عز وجل بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧)﴾ [المدثر: ٢٦، ٢٧].

﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وهشام بالياء: «مَّا يُؤْمِنُونَ» وكذا في قوله: «ما يذكّرون»، وقرأ الباقون في الموضعين بالخطاب، أي: قليلًا إيمانكم.

والمراد: أنه لا إيمان عندكم، أي: فالذي حملكم على قولكم: إنه شاعر، هو عدم إيمانكم.

وهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الله، وأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

لكن هذا لم يُدخلهم في الإيمان؛ لأنهم كذبوا بتوحيد الألوهية وبالرسالات والكتب السماوية، وبهذا ينتقض إقرارهم بتوحيد الربوبية؛ لأن من لازمه الإقرار بتوحيد الألوهية.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٣.

(٢) الأبيات للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/ ٢٥، «نهاية الأرب» ٣/ ١٨٤.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، أي: وليس القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكاهن: هو من يدعي علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ [النمل: ٦٥].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم.

والذي حملكم على رميه بالكهانة هو عدم تذكركم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا أنه رسول الله حقًا وصدقًا.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أن هذا القرآن العظيم منزل من رب العالمين؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم.

والعالمين: جمع «عالَم»؛ عالَم الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك من العوالم.

فهو كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس من كلام البشر، كما زعم المشركون أن الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه، وليس مخلوقًا كما يقول المعتزلة.

تكلم الله عز وجل به حقيقة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ولا يحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين حق قدره ونسبه إلى ما لا يليق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾.

بعد ما بين الله عز وجل أن القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل، جاء به من عنده المبلغ عنه رسوله ﷺ، ونفى أن يكون قول شاعر وكاهن كما زعم المشركون أتبع ذلك ببيان أنه لا يمكن أن يكون الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه كما يزعمون أيضًا.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ الواو: استئنافية، و«لو» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: ولو كذب وافترى علينا، واختلق من عند نفسه ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، أي: بعض الأكاذيب والافتراءات والاختلاقات، أي: بأن يكون افترى القرآن من عند نفسه، كما يزعم المشركون، أو زاد فيه أو نقص أو غيَّر وبدّل في الرسالة ونسب ذلك إلينا.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، أي: لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بيمينه، وبقدرة وقوة شديدة.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، «الوتين:» نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، وهلك الإنسان، وقيل نخاع الظهر.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله- وحاشاه من ذلك- لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذَّب وتقوَّل عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره له وتأييده بالمعجزات والآيات البينات وتمكينه له أعظم شهادة منه على صدق رسالته.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الفاء: عاطفة، و «ما» نافية تعمل عمل ليس، و(أحدٍ) في محل رفع اسمها، و «حاجزين» خبرها منصوب بالياء.

أي: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أيًّا كان ﴿عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ يحجزون عنه عذابنا إذا استحق ذلك، ولا أحد منكم يمتنع منا إذا أردنا إهلاكه، لا بنفسه ولا بغيره.

وليس بيننا وبين أحد من الخلق نسب ولا حسب، وإنما المعول في ذلك تقوى الله وطاعته.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولكنه ﷺ لم يتقول شيئًا من عند نفسه، ولم ينطق بشيء مما جاء به عن الهوى، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولهذا كان يقول ﷺ: «من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي»[(١)].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن الكريم، ﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: لتذكير وموعظة للمتقين، يتذكرون به عظمة الله عز وجل، وأسماءه وصفاته وأفعاله وثوابه وعقابه ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وما أعده لأوليائه من الجنان والنعيم، وما أعده لأعدائه من النار والجحيم، يتذكرون به أمور دينهم ودنياهم وأخراهم.

و«المتقين»: الذين يتقون الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وخص المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، أي: وإنا لنعلم- أنه مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم أيها الناس من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله (وإنا) وفي قوله (لقطعنا) لأنه العظيم سبحانه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: التكذيب بالقرآن والرسالة.

﴿لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: أسى وندامة على الذين كذبوا وكفروا يوم القيامة، حيث لا ينفع الأسى والندم ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى القرآن.

قال ابن كثير[(٢)]: «ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ من حديث جابر رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]». ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

وقال ابن القيم(١): «إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدّق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة».

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: وإن القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، و«اللام»: للتوكيد و«حق اليقين»: أعلى مراتب العلم. أي: وإنه للحق المتيقن، الذي لا مرية فيه.

أي: وإن القرآن للحق المتيقن، والخبر الصدق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: ٢].

وأيضا هو حق اليقين لما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية والبراهين القطعية.

قال السعدي(٢): «فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. و«اليقين» مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: بقولك: سبحان ربي العظيم. والذي معناه تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين وعما لا يليق بجلاله.

و«العظيم» من أسماء الله- عز وجل على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة العظمة له- عز وجل، أي: الذي لا أعظم منه، وله الكبرياء والعظمة. فَعَظِّمه بعبادته والخضوع له وتقواه حق تقاته، وذِكْر أوصاف جلاله ونعوت كماله.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦٨.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»(١).

رُويَ بسند فيه انقطاع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع»(٢).

**الفوائد والأحكام:**

١- إقسام الله عز وجل بما يُرى وبما لا يُرى- وهو أعظم قسم في القرآن- على تعظيم القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، نزّله الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا كاهن، وذم الذين لا يؤمنون ولا يتذكرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

٢- أن لله- عز وجل- أن يقسم بجميع مخلوقاته، وبما شاء منها.

٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه علو الذات وعلو الصفات، وربوبيته العامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤- أن القرآن كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم الضال.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة – التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧- ١٨. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤٥.

٥- ثناء الله- عز وجل- على رسوله ﷺ والرد على من يزعمون أنه تقوَّل القرآن من عند نفسه، وبيان عدم استطاعة الرسول ﷺ، لا هو ولا غيره التقول على الله والكذب عليه، ولو تقول عليه متقول لأهلكه؛ لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٦- لا أحد يستطيع أن يمتنع من الله- عز وجل وعذابه، لقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

٧- أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة وعبرة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٨- علم الله عز وجل بأن من الناس من يكذب بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ، والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾.

٩- أن التكذيب بالقرآن حسرة وندامة على الكافرين، لإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

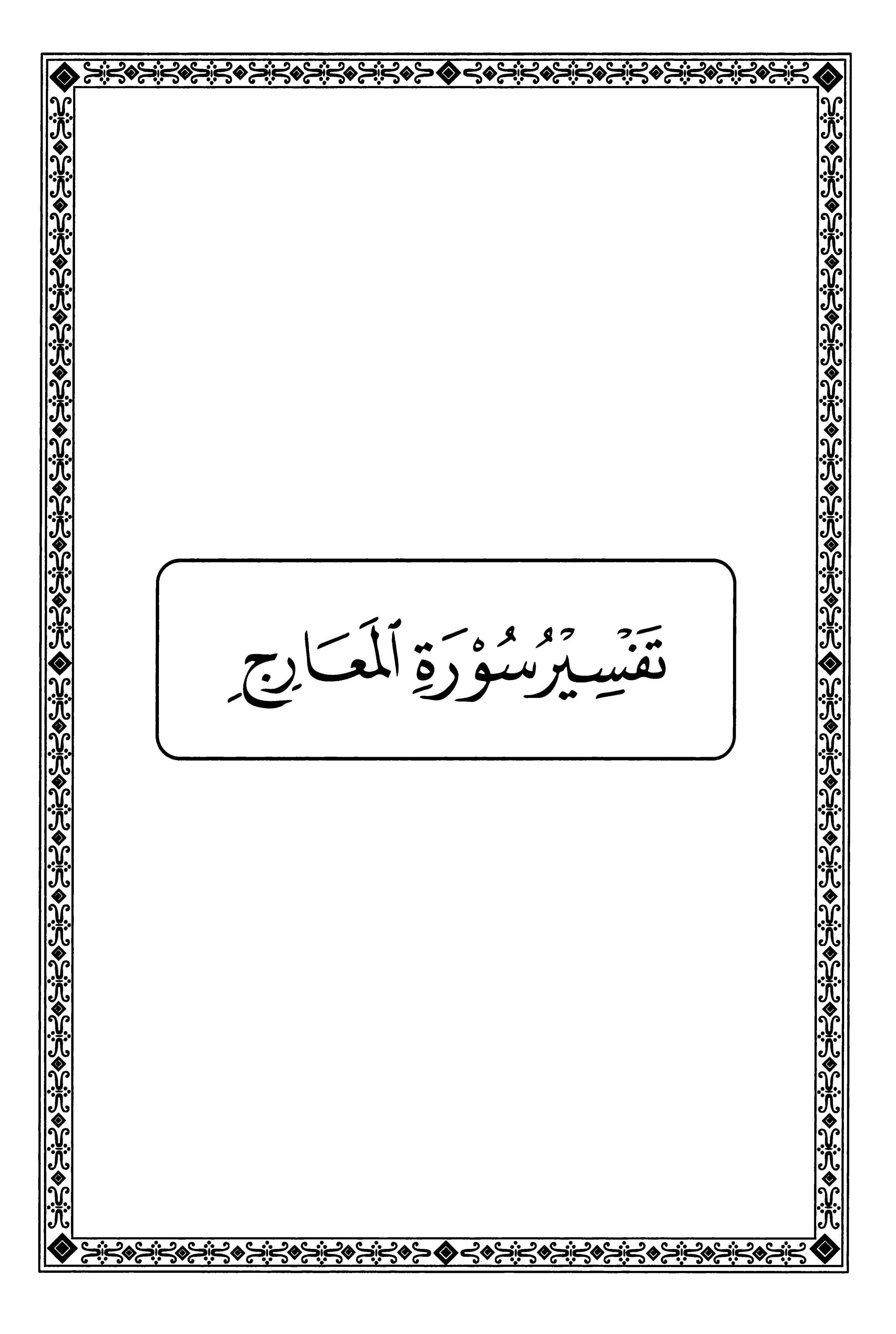
١٠- أن القرآن الكريم هو الحق المتيقن، والخبر الصدق الذي لا شك فيه ولا مرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

١١- مشروعية تسبيح الله عز وجل بتعظيمه وعبادته، وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

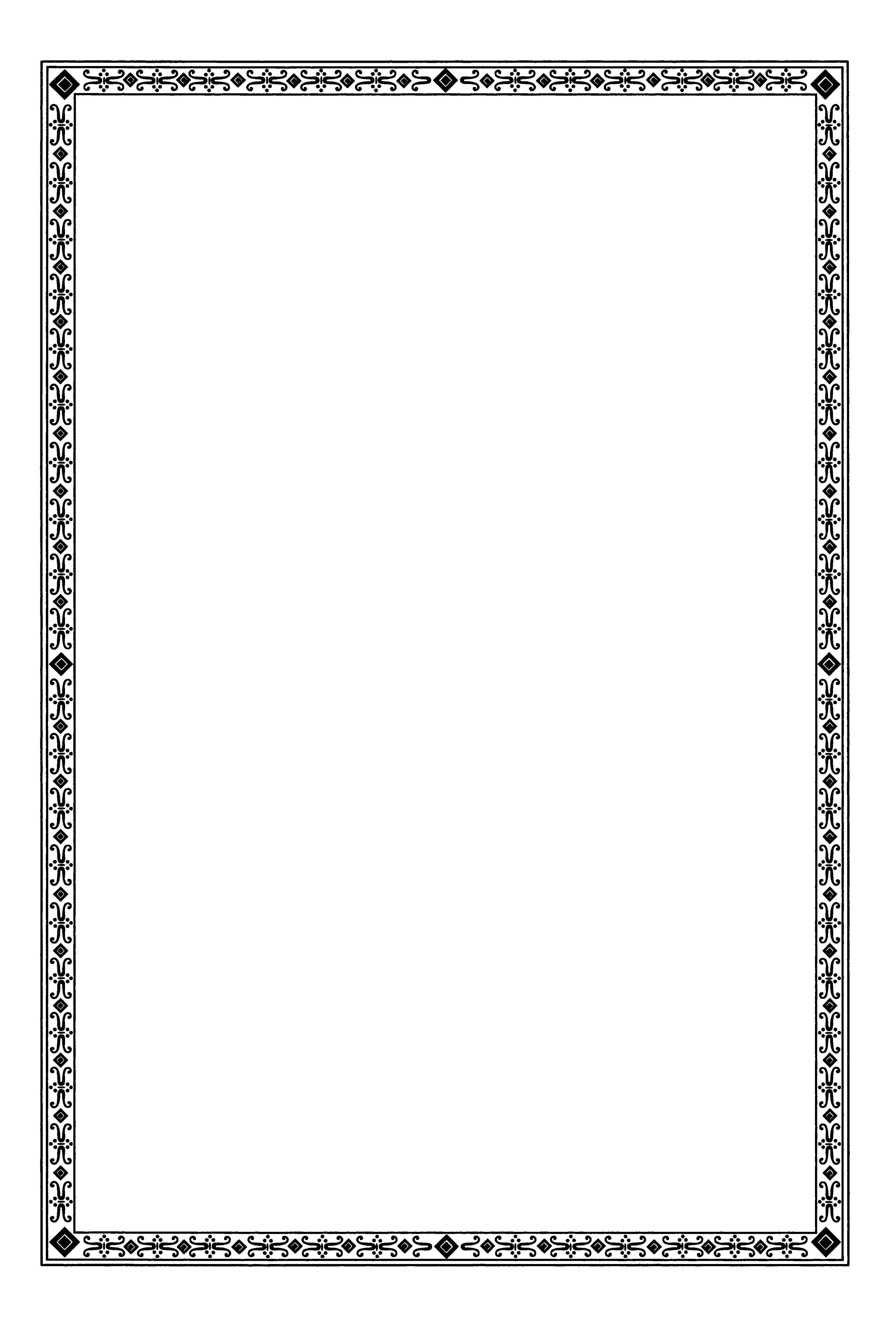
١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ ولأوليائه عز وجل، وتشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٣- إثبات اسم الله- عز وجل «العظيم» وصفة العظمة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ ولهذا تكلم- عز وجل- عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآيات..

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ المَعَارِجِ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المعارج»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾.

وتسمى: «سورة سأل سائل»، و «سورة الواقع»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾.

### ب- مكان نزولها:

مكية.

### جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر سؤال المشركين عما توعدوا به من العذاب، متى يكون؟ استعجالًا له وتكذيبًا له، والرد عليهم وتهديدهم بشدة أهوال ذلك اليوم، وسوء حالتهم آنذاك، والمصير إلى جهنم ولظاها: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

٢- بيان ضعف الإنسان وهلعه وجزعه عند حصول الشر ومنعه عند حصول الخير، وأنه لا يسلم من هذا الوصف إلا المصلين المتصفين بالصفات المذكورة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٣- تهديد الكفار ووعيدهم: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ

عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨)﴾.

قوله: ﴿سَآئِلُۢ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر «سال» بألف دون همز.

وقرأ الباقون بألف وهمز.

ومعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾: دعا داع، واستفتح مستفتح، تكذيبًا واستبعادًا وتعجيزًا ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ الباء تدل على تضمين الفعل «سأل» معنى فعل آخر نحو: «استعجل» أو «أجيب» ونحو ذلك.

وهذا أولى من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر- وإن كان الجميع واردًا في القرآن الكريم؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر أكثر ورودًا في القرآن الكريم فينبغي الحمل عليه، فهو أولى، فيكون التقدير هنا: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، أو استعجل سائل بعذاب واقع، أي: كان لا محالة.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق «بواقع»، أي: كائن للكافرين لا محالة لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم، فمنه ما قد يعجل لهم في الدنيا، ومنه ما يدخر لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٢)﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦)﴾ [ص: ١٦].

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ الآيات نزلت

في النضر بن الحارث بن كلدة»[1].

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، أي: ليس لهذا العذاب دافع يدفعه، ولا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا العذاب واقع بهم من الله عز وجل فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعًا ولا منعًا.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي: صاحب السموات والعلو والجلال والعظمة والدرجات، والفواضل والنعم.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قرأ الكسائي: «يعرج» بالياء على التذكير.

وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَعْرُجُ﴾.

أي: تصعد الملائكة والروح إليه عز وجل.

والملائكة: خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور يعبدون الله، ويأتمرون بأمره، ولا يعصونه كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والروح: جبريل عليه السلام، ملك الوحي، كما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

فيكون عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام.

ويؤيد هذا ويقويه قوله عز وجل في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد الملائكة، وجبريل عليهم السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

ويحتمل أن يكون «الروح»: اسم جنس لأرواح بني آدم؛ لأن الروح إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، فأما روح المؤمن فما يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء السابعة بقربه عز وجل، وأما روح الكافر فتغلق دونها أبواب السماء فتعاد إلى الأرض.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون- يعني بها- على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟»..إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟» إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..» الحديث[1].

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾؛ قال: «لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة»[2].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»[3].

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧، ٢٩٥- ٢٩٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٩، وقال: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

قال: «منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، و﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]. يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام﴾»[٣].

قال السعدي[٤] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: «ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر الله لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حدلها وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى- إلى أن قال: «هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا في يوم القيامة لكن الله تعالى يخففه على المؤمن».

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر يا محمد على طاعة الله- عز وجل، وعلى دعوة قومك،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة- باب في حقوق المال ١٦٥٨، والنسائي في الزكاة- التغليظ في حبس الزكاة ٢٤٤٨، وأحمد ٢/ ٢٦٢، ٤٨٩- ٤٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وابن حبان ٧٣٣٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣، وأبو يعلى ١٣٩٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٧٠- ٤٧١.

وعلى أقدار الله المؤلمة، ومن ذلك أذى قومك وتكذيبهم لك واستعجالهم العذاب.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾، «صبرا»: مصدر مؤكد، و«جميلًا» صفة له.

والمعنى: صبرًا لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تَضَجُّر، ولا شكوى فيه لغير الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾، «إنهم» يعني المشركين والمكذبين للنبي ﷺ.

﴿يَرَوْنَهُۥ﴾، أي: يرون العذاب، وقيام الساعة، ﴿بَعِيدًا﴾، أي: مستحيل الوقوع وينكرونه.

ولهذا استعجلوا وقوعه، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾، أي: أنه عز وجل يرى قيام الساعة ووقوع العذاب قريبًا؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، كما أخبر به عز وجل فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١].

وكذلك المؤمنون يعتقدون قرب ذلك؛ لأن الله أخبر بذلك فهو آت، وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان قصير، وكذلك عمر الدنيا كلها قصير بما في ذلك حياة البرزخ بالنسبة للآخرة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾، أي: أن قيام الساعة ووقوع العذاب الذي يستعجلونه، والذي هو قريب يكون ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

و«المهل» دردي وعكر الزيت المغلي، أو الرصاص المذاب والفضة المذابة و«العهن» الصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فمن علامات قيام الساعة، ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة

الخلقة تذوب، فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة، أو كالرصاص المذاب.

وكون الجبال الشامخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة.

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠].

وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قرأ أبو جعفر بضم الياء: «ولا يُسأل»، أي: ولا يُطلب بعضهم من بعض، فلا يقال للحميم أين حميمك.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾، أي: ويوم لا يسأل قريب قريبه عن حاله؛ لانشغال كل بنفسه.

والحميم: القريب المشفق، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [غافر: ١٨].

فالناس في الدنيا وبخاصة الأقارب يتناصرون فينصر بعضهم بعضا، وربما بالباطل لكن في ذلك اليوم هيهات لا أحد ينصر أحدا.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: يُبَصَّر الأقارب بعضهم بعضا ويُعَرَّف بعضهم بعضا، ولا ينفع أحد أحدًا، بل يفر بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾، أي: يحب ويتمنى من اكتسب الجرائم من الكفر والذنوب والمعاصي،

وحق عليه العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾، أي: لو يتخلص وينجو ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، أي: من عذاب ذلك اليوم يوم القيامة.

﴿بِبَنِيهِ﴾، أي: بأبنائه، وخص الأبناء دون البنات، لأنهم يعدون للدفع والمنع في الدنيا غالبًا أما في الآخرة فهم والبنات سواء لا يملكون شيئًا من ذلك.

﴿وَصَاحِبَتِهِۦ﴾ زوجته التي قد تكون أحب الناس إليه، ولا يرضى في الدنيا أن تنظر إليها العيون، ويقدم نفسه فداءً لها، وحفاظًا عليها في ذلك اليوم يوم القيامة يود لو قدمها فداء لنفسه.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الأخ من اشترك معك في أصليك «أبيك وأمك» وهو الشقيق، أوفي أحدها وهو الأخ لأب، أو الأخ لأم.

والأخ من أهم من يعد في الدنيا للمناصرة وفي الحديث «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[١].

وإن كان الحديث عامًا في أخوة الإسلام لكن يدخل فيه دخولًا أوليًا من جمع بين الأخوتين أخوة الإسلام وأخوة النسب.

ويقول شاعرهم:

**أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا لـه ... كسـاع إلى الهيجـا بغـير سـلاح[٢]**

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: وعشيرته الأقربين، ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾، أي: التي تضمه في النسب وتنصره وتدافع عنه في الشدة ويأوي إليها.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويود لو يفتدي من العذاب بكل الذين في الأرض جميعًا ولو كان أغلى ما لديه، وأحب شيء إليه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، أي: ثم يخلصه ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم، أو ثم يخلصه الله عز وجل مقابل ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥، من حديث أنس، رضي الله عنه.

(٢) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

قال ابن كثير[1]: «أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه».

﴿كَلَّآ﴾: للردع والزجر والنفي، أي: ليس له ما يود.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: النار، ﴿لَظَىٰ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به، لشده لظاها واشتعالها وحرارتها.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بالرفع: «نزاعةٌ».

أي: تنزع الشوى، وهو جلدة الرأس، أو ما دون العظم من اللحم، أو مكارم وجهه، وأطرافه، فهي تنزع اللحم حتى تصل إلى العظم، بل حتى تنفد إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

والمعنى: ﴿كَلَّآ﴾، ليس له ما يود، وليس له إلا النار الموصوفة بها ذكر.

﴿تَدْعُواْ﴾، أي: تنادي النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾، أي: الذي أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: أعرض عنه بجوارحه فلم يستعملها في طاعة الله، بل استعملها في معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ٧].

قال ابن كثير[2]: «تدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب».

﴿وَجَمَعَ﴾، أي: وجمع المال بعضه على بعض، وربما من أي طريق كان.

﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: جعله في أوعية وصناديق وأوكاه بالأقفال، ومنع حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجواحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «لا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت»(١).

وكان عبد الله بن عكيم- رضي الله عنه- لا يربط كيسه، ويقول: «سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾»(٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يا ابن آدم، سمعت وعيدًا، ثم أوعيت الدنيا»(٣).

ومن هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(٤). وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال.

**الفوائد والأحكام:**

١- سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعادًا لوقوعه وتكذيبًا به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢- علو الله وعظمته وجلاله وإفضاله وإنعامه لقوله: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾.

٣- إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل من بينهم، وعروجهم إلى الله عز وجل؛

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة- الصدقة فيما استطاع ١٤٣٤، ومسلم في الزكاة- الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء ١٠٢٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٦٥.

(٣) ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عمرو بن عوف- رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

٤- إثبات يوم القيامة وطوله؛ لقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

٥- أمر النبي ﷺ بالصبر الجميل على طاعة الله تعالى وعلى أقداره المؤلمة ومن ذلك الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أمر له ولكل من سلك طريقه من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

٦- استبعاد المشركين للعذاب، وللبعث والحساب، بل وإنكارهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾.

٧- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه لقوله (ونراه) وهو العظيم سبحانه.

٨- قرب قيام الساعة وعذاب المكذبين؛ لأن ذلك آت لا محالة وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان بل عمر الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

٩- شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)﴾.

١٠- تمني المجرم أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس عليه وأقربهم إليه، وغيرهم، وبكل شيء، ولكن هيهات ليس له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

١١- شدة النار ولظاها وعذابها، ومناداتها على أصحابها، ممن أدبر وتولى عن الإيمان وكان همه جمع الحطام وكنزه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)﴾.

١٢- التحذير من الإدبار والتولي والإعراض عن الحق، والتهالك في جمع حطام الدنيا.

* * *

**قال الله تعالى:** ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها، وتمنيهم التخلص من عذاب ذلك اليوم، وأن لظى مرصدة تدعو كل من أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه، وأعرض عنه بجوارحه، وجعل همه الدنيا ثم أتبع ذلك ببيان ضعف الإنسان عموما فهو جزوع إن أصابه الشر، ومنوع إن أصابه الخير، إلا المؤمنين المصلين الذين ذكر الله صفاتهم في هذه الآيات، فهم عند المصيبة يصبرون، وعند الخير لا يمنعون.

قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾، أي: أوجد حال كونه هلوعًا.

وقد فسر عز وجل قوله: ﴿هَلُوعًا﴾ بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

أي: إذا أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك ﴿جَزُوعًا﴾، أي: كثير الجزع والضجر والأسى، وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى ما هو أشد من ذلك. نسأل الله الثبات والسلامة والعافية.

قال ابن كثير(١): «أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير».

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾، أي: وإذا حصل له الخير، بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

﴿مَنُوعًا﴾: شديد الحرص كثير المنع والإمساك، يمنع حق الله في ذلك.

فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع»[(١)].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أي: إلا المؤمنين المصلين الموصوفين بما ذكر بعد من الصفات فهم مستثنون مما ذكر؛ لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد، وحصن منيع، وهو إيمانهم بالله عز وجل، وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قال ابن كثير[(٢)]: «أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه».

وقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ولم يقل: إلا المؤمنين؛ لأن الصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات وأعظمها، ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمنا.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، أي: الذين هم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل، لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان.

لهذا أكد هذا المعنى في آخر صفاتهم في هذه الآيات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [الآيتان: ١، ٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِمَ

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- باب في الجرأة والجبن ٢٥١١، وأحمد ٢/ ٣٢٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤.

عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»[١].

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾، أي: في أموالهم حق محدد، ونصيب مقرر، مقدر من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس، أي: يبتدئ بالسؤال، وله حق.

كما جاء في الحديث: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»[٢].

«والمحروم»: الذي لا يسأل مع فقره وحاجته، ولا يفطن له فيتصدق عليه، فهو محروم من العطاء لتعففه عن السؤال.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، أي: والذين يصدقون ويوقنون بيوم القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وإدانة كل بما عمل؛ ولهذا استعدوا له بالأعمال الصالحة. والتصديق بيوم الدين يستلزم التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون وجلون، كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٦- ٢٨].

وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبده خوفًا من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبده محبة له.

فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفًا من عذابه ورجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾، أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن عقل عن الله عز وجل أمره، إلا بأمان من الله عز وجل.

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا،

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ١٧٦، ١٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة- حق السائل ١٦٦٥، وأحمد ١/ ٢٠١ من حديث علي بن أبي طالب وحسين بن علي رضي الله عنهما.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا»[١].

وفي خبر الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله عز وجل له رمانة ينزل كل يوم يأخذ منها، فلما قال الله عز وجل لملائكته: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي»، قال: لا يا رب، بل بعملي فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر، فقال الله عز وجل: «أدخلوا عبدي النار بعدلي»، فقال: لا، يارب: «أدخلني الجنة برحمتك فأدخل الجنة»[٢].

فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس بعوض عنه، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فالعبد المؤمن في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، لا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، أي: حافظون لها عن الحرام من الزنا واللواط، وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك.

ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، «إلا»: أداة استثناء.

أي: إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أو ما ملكته أيمانهم من الإماء.

فالأزواج أباح الله لهم ذلك بعقد النكاح بينهم، وما ملكته أيمانهم أباحهن الله لهم بملك اليمين.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، أي: فإنهم لا لوم عليهم في ذلك؛ لأن الله أباح الأزواج بعضهم لبعض بعقد النكاح بينهم، وأباح ملك اليمين من الإماء بعقد الملك.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠- من حديث جابر- رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، أي: فمن طلب غير ذلك، والإشارة لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

أي: فمن طلب إشباع الشهوة في غير ما أباح الله، وهو ما بين الزوجين، وبين السيد وأمته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، أي: فأولئك المبتغون وراء ذلك هم العادون على حدود الله، المجاوزون الحلال إلى الحرام، كالزنا واللواط ونكاح المتعة ونحو ذلك.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، وأكد عظم اعتدائهم وجرمهم وتجاوزهم لحدود الله بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ الأمانات: جمع أمانة وهي تشمل كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

أي: والذين يرعون الأمانات، فيؤدون الأمانات إلى أهلها؛ امتثالًا لقول الله عز وجل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ولتعظيم الله عز وجل لها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولأمره ﷺ بأدائها قال ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[1].

ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله عز وجل، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله امتثالًا؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، والدارمي في البيوع ٢٥٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فمن أخص صفات المؤمنين رعاية الأمانات والعهود، كما قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد: ٢٠].

كما أن الخيانة ونقض العهود من أخص صفات الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ قرأ يعقوب وحفص عن عاصم بألف بعد الدال على الجمع: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد «بشهادتهم».

أي: يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم، امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بأدائها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

وقد خص الله عز وجل هذه الصفات لفضلها، وافتتحها بذكر الصلاة واختتمها بذكر الصلاة في هذه السورة وفي سورة «المؤمنون» وذلك؛ لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام، فهي عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟، قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟، قال: «الجهاد في سبيل الله»(٢).

وفي الآية الأولى منهما وصف المؤمنين بالديمومة على الصلاة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وفي الآية الأخيرة منهما وصفهم بالمحافظة عليها فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فوصفهم أولًا بالديمومة على الصلاة، ووصفهم ثانيًا بالمحافظة عليها، كما وصفهم في سورة المؤمنون أولًا بالخشوع فيها، ووصفهم ثانيًا بالمحافظة عليها وفي هذا ما لا يخفى من تأكيد عنايتهم بها.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات، والتصديق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

وقد ذكر عز وجل هذه الصفات بأوسع من هذا في مطلع سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- فضل الصلاة لوقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان- كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات.

﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم.

ونكّر «جنات»؛ تعظيمًا لها، وهي جنات الفردوس التي أعدها الله عز وجل لنزل أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، كما قال تعالى في نهاية هذه الصفات في سورة المؤمنون ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

ولهذا جاء في الحديث: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[(١)].

﴿مُكْرَمُونَ﴾، أي: لهم فيها أنواع الكرامة، والنعيم الحسي والمعنوي، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات: ٤١، ٤٢].

**الفوائد والأحكام:**

١- ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، فلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة. ففي ذلك الحصانة التامة بإذن- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٢- أن الصلاة والمداومة عليها وحفظها مع الصفات المذكورة أكبر معين بتوفيق الله- عز وجل- على الثبات أمام تقلبات الحياة، والصبر عند الضراء وعدم الجزع، والشكر عند السراء، والبذل وعدم المنع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآيات.

٣- بيان صفات المؤمنين كاملي الإيمان، وهي: المداومة على الصلاة، وإيتاء الزكاة،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والتصديق بيوم القيامة، والخوف من عذاب الله، وحفظ فروجهم إلا فيما أباح الله لهم، وحفظ أماناتهم وعهودهم ورعايتها، وقيامهم بالشهادة وأداؤها على الوجه المطلوب وحفظ صلاتهم بإقامتها كما شرعها الله عز وجل- فأكرم بها وأنعم من أوصاف عظيمة وصفات كريمة بها السعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧)﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٤- وجوب المداومة على الصلاة والمحافظة عليها بإقامتها تامة كما شرعها الله، وإيتاء الزكاة وغيرها من النفقات الواجبة لمستحقيها، والترغيب في صلاة النوافل والصدقات.

٥- وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الجزاء على الأعمال، والخوف من عذاب الله عز وجل.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة، للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِم﴾.

٧- وجوب حفظ الفروج عن الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾.

٨- إباحة وطء الأزواج وملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

٩- وجوب حفظ الأمانات والعهود ورعايتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

١٠- وجوب القيام بالشهادات وأدائها بتمامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾.

١١- عظم ما أعد الله عز وجل للموصوفين بهذه الصفات عنده من الجنات، والكرامة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)﴾.

ذكر الله عز وجل صفات المؤمنين المصلين وما أعد لهم من الكرامة في الجنات، ثم أنكر على الكفار وتوعدهم وهددهم.

قوله: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الفاء: استئنافية، و«ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم ﴿قِبَلَكَ﴾، أي: أمامك وحولك وعن يمينك وعن شمالك.

﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين مادي أعناقهم، اغترارًا منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾: جماعات متفرقين.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟»(١).

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، أي: أيطمع كل واحد منهم.

﴿أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: أيطمع كل واحد منهم في إدخاله جنة يتنعم فيها.

﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر لهم، فليس لهم ما يطمعون به من دخول الجنة، بل ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أوجدناهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانته وحقارته وضعفه، وهو المني، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأحمد ٥/ ٩٣، ١٠١.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ٥- ١٠]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ [الواقعة: ٥٧].

فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيده ومعرفته.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا»: صلة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: أقسم برب المشارق والمغارب.

وجمعت المشارق والمغارب مراعاة للجمع قبلهما كما في قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وقوله: ﴿عِزِينَ﴾.

والمراد: مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارق ومغارب سائر الكواكب(١).

وفي إقسامه عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب تعظيم لنفسه عز وجل، وتنبيه على عظم وسعة خلقه وملكه وتدبيره.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته على تبديل خير منهم.

أي: خيرًا من هؤلاء الكفار بأن نذهب بهم ونأتي بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الآية: ١٧].

بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: إنا لقادرون على أن نبدل خيرًا منهم يوم القيامة بأن نعيدهم بأبدان خير من هذه الأبدان.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين، ولن يفوتنا ذلك، أو يمتنع منا إذا أردناه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣، ٤].

قال ابن القيم[1]: «وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب فيفوت عليه».

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فدع يا محمد هؤلاء الكافرين واتركهم.

﴿يَخُوضُوا۟﴾ بالباطل بأقوالهم.

﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾، أي: يضيعوا أعمارهم باللهو واللعب بأبدانهم وأفعالهم والتمتع بالدنيا بلا عمل صالح ينفعهم غدًا.

قال ابن القيم[2]: «فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تَكلّمٌ بالحق، ولا عملٌ بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين».

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، أي: حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله بمجيئه ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة أمرهم، وسيجازون على أعمالهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٢٩.

لهم ووعيد أكيد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ هذا وما بعده وصف لحالهم في ذلك اليوم. و«الأجداث»: القبور.

﴿سِرَاعًا﴾، أي: مسرعين إلى الداعي، أي: يوم يبعثون ويقومون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد، وقرأ الباقون: «نَصْب» بفتح النون وإسكان الصاد.

أي: كأنهم في سرعة نهوضهم من قبورهم وسرعتهم إلى أرض المحشر ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾، و«النصب»: الصنم، أو العلم والغاية.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون والإيفاض: الاستباق والإسراع، أي: كأنهم في سرعتهم إلى أرض المحشر يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم يستلمها أولًا.

وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: كلهم يؤم صوت الداعي، ويتبعه لا يعوج عنه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذليلة أبصارهم منكسرة خاضعة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، أي: تغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله تعالى في الدنيا؛ لأن العز كل العز بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية

الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

فجمع لهم بين ذل الظاهر بخشوع أبصارهم، وذل الباطن بما يغشاهم من الذل كما قال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾، أي: يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا وتفخيمًا لأمره، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، أي: الذي كان المشركون يوعدون بمجيئه وهم به يكذبون وقد رأوه عيانًا، وهذه حالهم فيه.

**الفوائد والأحكام:**

١- التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن اليمين وعن الشمال غرورًا منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾.

٢- مدى سفه الكفار وعظم جهلهم حيث يطمعون بدخول الجنة والنعيم بلا عمل منهم سوى التكذيب بالحق ورده، والإنكار عليهم في ذلك وردعهم وزجرهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وضعفه وحقارته ومهانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾.

٣- أن حكمة الله عز وجل في إيجاد البشر تقتضي إثابة المطيع وعقوبة العاصي.

٤- إقسام الله عز وجل بنفسه وهو رب المشارق والمغارب على قدرته على تبديل الكفار المكذبين بخير منهم، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾.

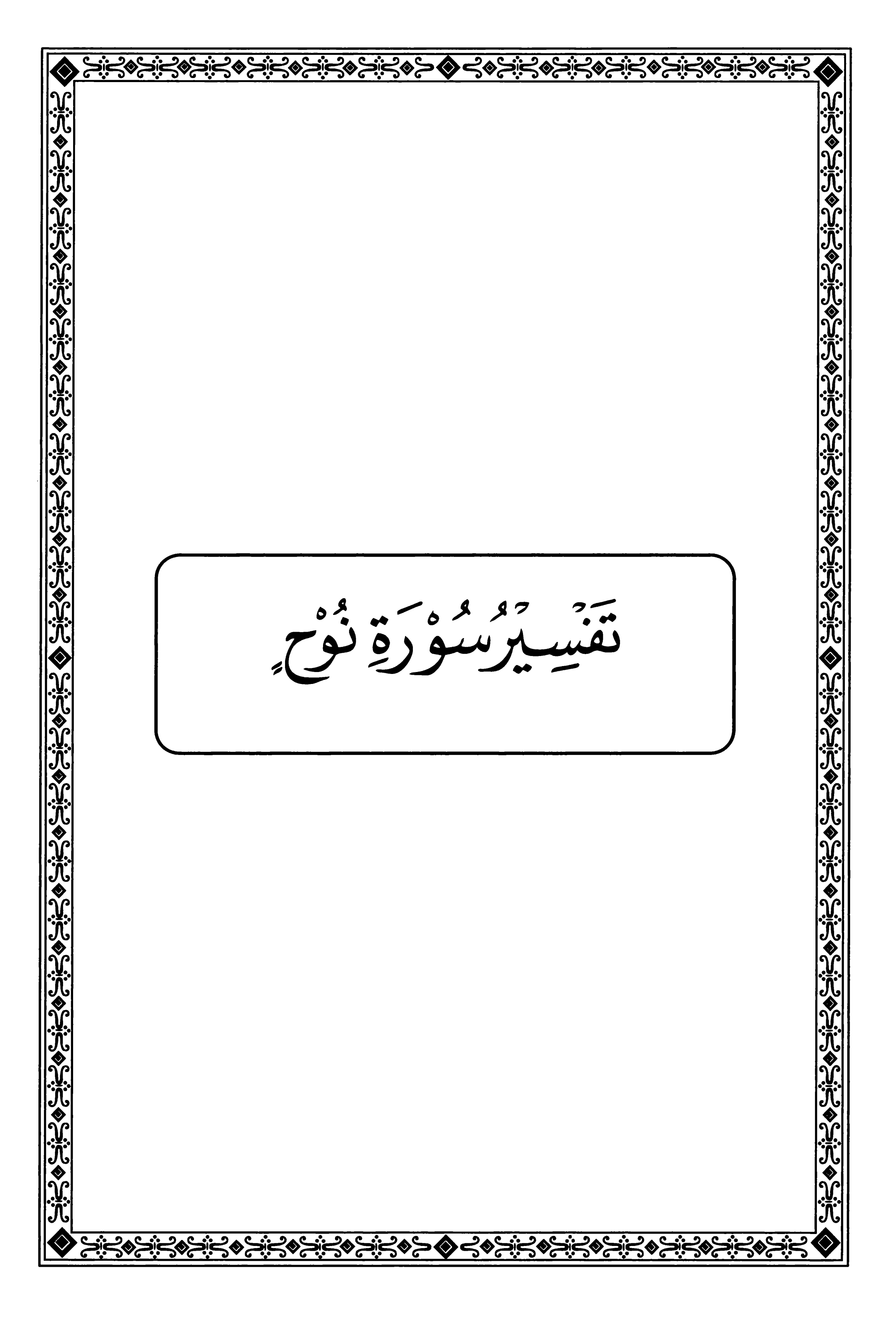
٥- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بترك الكفار في خوضهم ولعبهم وتضييع أعمارهم حتى يوافوا يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، وتسلية له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

٦- إثبات البعث وخروج الكفار مسرعين من قبورهم، ذليلة أبصارهم، تغشاهم

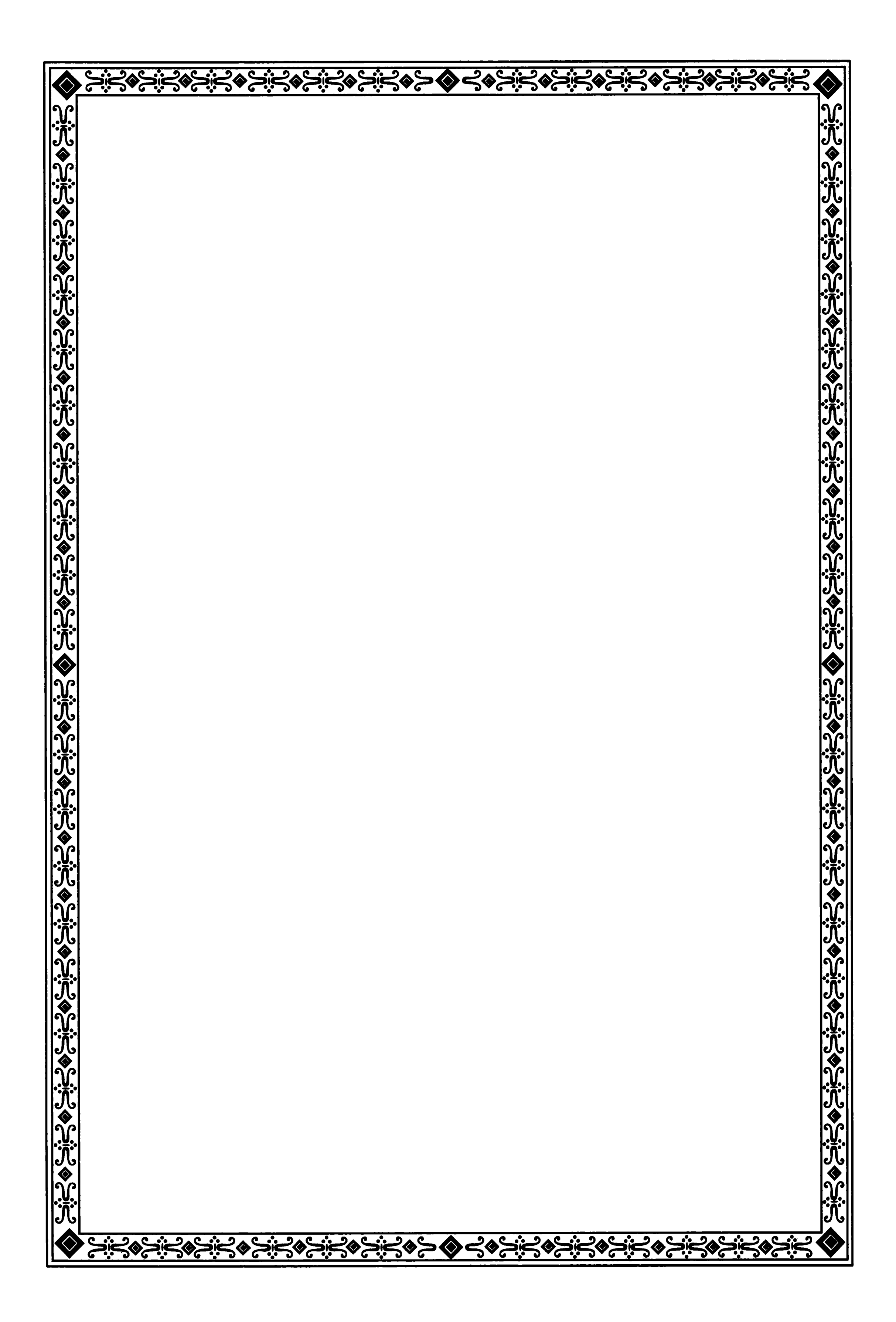
ذلة وهوان، يتسابقون إلى المحشر يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾.

٧- الإشارة إلى شدة يوم القيامة وأهواله، وأنه اليوم الذي تُوعِّد به الكفار والمشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة نوح»؛ لافتتاحها بذكر رسالة نوح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١﴾، ولاشتمالها على دعوته.

### ب- مكان نزولها:

مكية.

### جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت هذه السورة عن إرساله عز وجل نوحًا إلى قومه وإنذاره لهم، وأمْره إياهم بعبادة الله تعالى، وتقواه، واستغفاره، وطاعته، ووعدهم بالمغفرة والإمهال إلى أجل مسمى.

٢- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم استجابتهم له مع تنويعه لهم أساليب الدعوة، وترغيبهم بكثرة الأمطار والأموال والجنات والأنهار.

٣- أمره لهم بالتأمل في مظاهر قدرة الله تعالى، في خلق السموات والقمر والشمس، وفي إنباتهم من الأرض، وإعادتهم فيها ثم إخراجهم، وجعلها لهم بساطًا؛ ليسلكوا منها سبلًا فجاجًا.

٤- شكواه عليه السلام إلى ربه عز وجل مرة ثانية عصيانهم له، واتباعهم من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، ومكرهم مكرًا كبارًا، وتواصيهم بالتمسك بمعبوداتهم من دون الله التي أضلت كثيرًا من الخلق.

٥- دعاء نوح عليه السلام عليهم بزيادة الضلال، وإغراقهم، وإدخالهم النار بسبب خطيئاتهم؛ فلا ناصر لهم من دون الله. ودعاؤه عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، ودعاؤه بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات، وأن لا يزد الظالمين إلا تبارًا.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة سورة عظيمة تمثل منهج الدعوة إلى الله عز وجل كما هي طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله عز وجل وشكوى الحال إليه سبحانه.

وقد أفرد عز وجل قصة نوح عليه السلام وحدها؛ لطول لبثه فيهم وتكرار دعوته إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله: ﴿إِنَّآ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، له كمال العظمة والكبرياء.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: بعثناه ليؤدي رسالتنا إليهم.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ونوح: هو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض بعد آدم، وآدم نبي وليس برسول.

وهو نوح بن لامَكَ، وهو أحد أولي العزم الخمسة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، «أن»: حرف مصدري ونصب، أي: بأن أنذر قومك، أو: لأجل أن تنذر قومك.

والإنذار هو: الإعلام مع التخويف والتحذير، أي: أن أعلم قومك وخوفهم وحذرهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: من قبل أن يحل بهم عذاب مؤلم موجع لهم حسًا ومعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ صدر خطابه عليه السلام لهم بالنداء تنبيهًا لهم وتعظيمًا للأمر، وخاطبهم بقول: «يا قوم» استعطافًا لقلوبهم. والقوم: هم الجماعة الكثيرة من الناس رجالًا ونساء.

﴿لَكُمْ﴾، أي: لكم خاصة، لا لغيركم، كما قال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»(١).

﴿نَذِيرٌ﴾، أي: منذر ومحذر ومخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ بين النذارة واضح البرهان، أي: بيّن في نفسه أنه نذير، ومبين ما أرسل للإنذار والتخويف منه كما قال ﷺ: «إني أنا النذير العريان»(٢).

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: بأن اعبدوا الله وحده بالخضوع والتذلل له، وإخلاصه بالعبادة.

﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه، والتي من أعظمها الشرك ووسائله.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: امتثلوا أمري بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ هذا من البشارة التي جاء بها نوح عليه السلام مع الإنذار، كما هي طريقة جميع الرسل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأمره الله عز وجل في مطلع السورة بالإنذار لقومه، وصرح لهم عليه السلام بأنه لهم نذير مبين، ولم يأت التصريح بالبشارة والله أعلم- وإنما دل عليها مضمون الآيات

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لما هم عليه من شدة الكفر والتكذيب والعناد، كما هو ظاهر من الآيات.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن ويقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلها وهو مقتضى الأدلة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ويؤجلكم إلى أجل ووقت محدد وهو مقدار بقائكم في الدنيا، وذلك بدفع العذاب الدنيوي العاجل عنكم، والمباركة في أعماركم؛ لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر»(٢).

وقال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»(٣).

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: وقته الذي وقته لموتكم، أو لوقوع العذاب عليكم.

﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي: إذا حضر لا يمكن تأخيره وتأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة العلم النافع لأنبتم إلى ربكم، ولما كفرتم وكذبتم بالحق، أي: اعلموا ذلك.

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٢- أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي الإنذار من العقوبات والعذاب لمن عصاهم، والبشارة لمن أطاعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الآيات.

٣- أن الهدف من إرسال الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

٤- وعد نوح عليه السلام لقومه وبشارته لهم- إن أطاعوه- بمغفرة الله عز وجل لذنوبهم وتأخيرهم إلى أجل مسمى بتأخير العذاب الدنيوي عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٥- أن للاستقامة على عبادة الله تعالى وتقواه وطاعته، أثرها العظيم في البركة في العمر، والتأخير إلى أجل مسمى.

٦- أن أجل الله بالموت أو بإيقاع العذاب على المكذبين إذا جاء لا يمكن دفعه ولا تأجيله، ولا منعه، وما قدره الله كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

٧- أن الكفار لا علم عندهم يهتدون به إلى ما ينفعهم وينجيهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

**قال الله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

توجه نوح عليه السلام في الآيات السابقة بالنداء إلى قومه ينذرهم ويأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ويعدهم على ذلك بالمغفرة من الله عز وجل، وتأخيره العذاب عنهم ويحذرهم من تعجيله لهم في الدنيا.

ثم توجه بالنداء إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما لقي من قومه من البعد والفرار، والاستكبار والمكر الكبّار، وعبادة الأصنام والضلال والإضلال، وذكر صبره عليه السلام عليهم تلك المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عامًا فإليه عز وجل المشتكى في جميع الأحوال.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾، أي: قال نوح يا رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتقواك، وطاعتي.

﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، أي: في الليل والنهار، أي: في جميع الأحوال والأوقات.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾، أي: إلا بعدًا عن الحق والإيمان، ونفورًا منه، وإعراضًا عنه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ «كلما»: ظرف، واللام للتعليل ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، أي: سدوا آذانهم بأصابعهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه؛ استكبارًا وعنادًا، كما قال الله عز وجل عن كفار مكة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

[فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾، أي: غطوا رؤوسهم بثيابهم، لئلا يسمعوا، أو تنكروا له لئلا يعرفهم مبالغة في إظهار الكراهة له ولدعوته.

﴿وَأَصَرُّوا۟﴾، أي: استمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتشددوا في ذلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ «استكبارا»: مصدر مؤكد، أي: استكبروا استكبارًا عظيمًا، أي: استنكفوا وتكبروا عن قبول الحق واتباعه والانقياد له.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

بعدما بين دعوته لهم في جميع الأوقات في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بين أنه دعاهم في جميع الأحوال.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، أي: ظاهرًا بمسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾، أي: دعوتهم علانية وصرخت وصحت بهم.

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، أي: ودعوتهم خفية فيما بيني وبينهم، وأسررت لهم في ذلك غاية الإسرار.

فدعاهم عليه السلام ليلًا ونهارًا وجهرًا وعلنًا وسرًا، مجتمعين وفرادى، ونوّع في أسلوب الدعوة؛ لعل ذلك ينجح معهم وينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ذنوبكم، وتوبوا وارجعوا إليه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: ذا مغفرة عظيمة، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، إذا صدق العبد في التوبة والرجوع إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

هذا رزق وفضل من الله عز وجل عاجل لهم في الدنيا، مع مغفرة ذنوبهم والثواب الآجل في الآخرة، إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، أي: يرسل السماء عليكم بالمطر غزيرًا متتابعًا، وينزل عليكم من بركات السماء ورزقها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

قال ابن كثير[(١)] في كلامه على الآية ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: «أي: متواصلة الأمطار؛ ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا رُويَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء[(٢)]، التي يستنزل بها المطر، وقرأ الآية التي في سورة «هود» حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]».

﴿وَيُمْدِدْكُم﴾، أي: ويعطكم ويزدكم من فضله وخزائنه التي لا تنفد.

﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ وهي كل ما يتمول ويملك من أنواع الأموال من الذهب والفضة والدراهم والدنانير، والعقار والأثاث والمتاع وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩- ٢٦٠.

(٢) «المجاديح» هي وسائل استخراج الماء كالدلاء ونحوها، فيكون معنى قول عمر رضي الله عنه أنه بذل أهم أسباب استنزال المطر والغيث من الله عز وجل وهو استغفاره سبحانه وتعالى.

﴿وَبَنِينَ﴾، أي: ويمددكم ببنين، وهم الذكور من الأولاد، وخصهم بالذكر؛ لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال عز وجل متوعدًا للوليد بن المغيرة ومذكرًا له: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: ١١- ١٣].

وكثرة الأموال خير إذا استعين بها على طاعة الله تعالى.

ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(١).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾، أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾، أي: ويجعل لكم أنهارًا تجري وسط هذه الجنات تشربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحروثكم ومواشيكم، وتتمتعون برؤيتها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وهكذا أمر الله محمدًا ﷺ أن يقول لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال هود لقومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

صالح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود: ٦١].

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾.

أمرهم عليه السلام بالاستغفار ورغبهم بالمغفرة من الله- عز وجل- وإنزال المطر وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، ثم وبخهم وأنكر عليهم عدم الخوف من الله عز وجل، فقال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ الآيات.

قوله: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾، «ما»: اسم استفهام معناه الإنكار عليهم.

﴿وَقَارٗا﴾، أي: عظمة وتقديرًا، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، ولا تخافون بأسه ونقمته ولا تقدرونه حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ الواو: حالية، و«قد»: للتحقيق، أي: والحال أنه قد خلقكم أطوارًا، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

ومعنى قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾، أي: والحال أنه عز وجل خلقكم خلقًا من بعد خلق، وطورًا من بعد طور، فطورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، ثم عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر، ثم اكتمال حمله في بطن أمه، ثم ولادته، ثم فترة الرضاع، ثم سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة ثم الهرم، ثم الرد إلى أرذل العمر.

وفي تذكير الخلق في ابتداء خلقهم وأطواره تنبيه على قدرته التامة على بعثهم وإعادتهم بعد موتهم.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري.

أي: ألم تعلموا كيف أوجد الله سبع سموات.

﴿طِبَاقًا﴾: بعضها فوق بعض، كل سماء مقبية على الأخرى، وأوسع منها، سمك كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة والتي تليها مسيرة خمس مئة عام، كما جاء في الحديث[(١)].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، أي: وجعل القمر في هذه السموات السبع نورًا، مستفادًا من نور الشمس.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أي: وجعل الشمس فيهن، وفي هذا الكون مصباحًا مضيئًا، وسميت الشمس سراجًا؛ لحرارتها، ولأنها أشد إضاءة من القمر.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

قال ابن كثير[(٢)]: «أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلًا منهما أنموذجًا على حدة؛ ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسرّ؛ ليدل على مضي الشهور والأعوام».

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، «نباتا»: مصدر مؤكد، أي: أنبتكم من الأرض نباتًا بخلق أبيكم آدم وإيجاده من التراب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إذا متم ودفنتم فيها.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، «إخراجا»: مفعول مطلق منصوب، أي: ويخرجكم منها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٠.

إخراجًا، ببعثكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، أي: مبسوطة مسطحة، ممهدة مستقرة مثبتة بالجبال الراسيات، صالحة مهيأة للانتفاع بها والاستقرار والحياة والبناء عليها، والحرث والزرع فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، اللام: للتعليل، أي: جعلها لكم بساطًا؛ لأجل أن تسلكوا منها طرقًا واسعة مختلفة أين شئتم من أرجائها، ولولا أنه بسطها ما أمكنكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وهذا يوجب التأمل في كمال قدرته عز وجل في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة.

ولهذا أنكر عليهم نوح عليه السلام في هذه الآيات لم لا يعظمون الله ويخافونه؟ مذكرًا ومنبهًا لهم على عظيم قدرة الله عز وجل، وعظيم نعمه عليهم في خلقهم، وخلق السموات السبع الطباق، وإنارتهن بالقمر، وجعل الشمس سراجًا، وخلقهم من الأرض، وإعادتهم فيها، وإخراجهم منها، وبسط الأرض لهم؛ ليستطيعوا العيش والاستقرار عليها، ويسيروا في جوانبها، ويستخرجوا من خيراتها، مما يوجب عليهم أن يعظموه عز وجل، ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا.

### الفوائد والأحكام:

١- بذل نوح عليه السلام غاية جهده في دعوة قومه في جميع الأوقات ليلًا ونهارًا وبشتى الأساليب؛ جهارًا وإعلانًا وإسرارا، وصبره على أذاهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. فينبغي للدعاة أن يستلهموا الدروس من هذا، في تنويع أساليب الدعوة

والصبر على الأذى في سبيلها.

٢- شدة عناد قوم نوح عليه السلام وفرارهم منه ومن دعوته وإصرارهم على الباطل، واستكبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه نوح عليه السلام- وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٤- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

٥- وجوب استغفار الله تعالى والتوبة والإنابة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

٦- أن الاستغفار والتوبة سبب لمغفرة الذنوب وسعة الرزق من المطر والمال والبنين والجنات والأنهار، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾.

٧- لا حرج في أن يقصد المسلم في استغفاره ودعائه صلاح أمر دينه ودنياه وآخرته.

٨- جمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب بالوعد لهم بالمغفرة في الآخرة، والترغيب لهم في الرزق في الدنيا بالمطر وبالأموال والبنين والبساتين والأنهار.

٩- إنكار نوح عليه السلام على قومه عدم تعظيمهم لله وعدم خوفهم منه، وقد خلقهم سبحانه وتعالى طورًا بعد طور وأحسن خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾.

١٠- توجيه نوح- عليه السلام لقومه للنظر والتأمل في عظمة قدرة الله عز وجل في خلق سبع السموات الطباق وجعل القمر فيهن نورًا والشمس سراجًا، وفي إنباتهم من الأرض ثم إعادتهم فيها ثم بعثهم وإخراجهم منها، مما يوجب عليهم تعظيم الله- عز وجل وعبادته وحده لا شريك له. وكل إنسان مدعو إلى هذا التأمل؛ لقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

١١- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث حيث خلق السموات والشمس والقمر، وأنبت الخلائق من الأرض.

١٢- تذكير نوح عليه السلام لقومه بنعمة الله عليهم بجعل الأرض بساطًا مستوية ليسلكوا طرقها وفجاجها ويستخرجوا من خيراتها. وفي هذا نعمة علينا وعلى كل مخلوق يدب على وجه الأرض، فلله الحمد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

دعا نوح عليه السلام قومه وأنذرهم، وشكا إلى الله ما لقي منهم مبينًا أنه نوّع لهم في أساليب الدعوة ورغبهم ورهبهم، وخوفهم بالله، وبين لهم عظيم قدرته وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات والأرض.

ثم شكا إلى الله عز وجل ثانية تماديهم في العصيان واتباعهم من لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا الخسار، وما حصل منهم من المكر الكبار، وعبادة الأصنام، وإغراقهم في الضلال والخطايا، مما سبب إغراقهم وإدخالهم النار ثم دعا عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، وسأل الله عز وجل المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات ودعا على الظالمين بالتبار والخسار.

قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ شكا نوح عليه السلام إلى ربه ثانية ما لقي من قومه قائلًا ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، أي: خالفوني وكذبوني بعد الإنذار والإعذار بتنويع أساليب الدعوة لهم والترغيب والترهيب، وتخويفهم وتذكيرهم بعظمتك وقدرتك وعظيم نعمك عليهم.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام: ﴿وَوَلَدُهُ﴾، وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام: «ووُلْده».

أي: واتبعوا وأطاعوا وقلدوا الملأ والأشراف الذين مُتِّعوا بالأموال والأولاد واغتروا بالدنيا وركنوا إليها وغفلوا عن أمر الله تعالى، فصارت أموالهم وأولادهم خسارة ونقصانًا عليهم واستدراجًا لهم، وسببًا لطغيانهم وضلالهم وبعدهم عن طريق الحق، ومن تبعهم فهو مثلهم في الخسار والبوار.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾، «مكرا»: مصدر، و«كبارا»: صفة له.

والمكر: هو الكيد بخفية في التمرد ومخالفة الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ [سبأ: ٣٣].

والمعنى: ومكروا مكرًا كبيرًا عظيمًا بليغًا، فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال.

﴿وَقَالُواْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض، أو قال لهم أصحاب الأموال والأولاد داعين إلى الشرك مزينينه لهم::

﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، أي: لا تتركنّ معبوداتكم عمومًا وما عليه آباؤكم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾، أي: ولا تتركنّ خصوصًا: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾.

فنهوهم أولًا عن ترك عبادة آلهتهم عمومًا، ثم نهوهم ثانيًا عن ترك عبادة هذه الآلهة الخمسة خصوصًا؛ لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله.

قرأ نافع وأبو جعفر بضم الواو: «وُدًّا» وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَدّٗا﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسّخ العلم عبدت»[1].

وعن محمد بن قيس قال: «إن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ٤٩٢٠.

آدم، وكان لهم، أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم»(١).

قال ابن القيم(٢): «قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل».

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾، أي: وقد أضلوا بدعوتهم إلى عبادة هذه الآلهة وعبادتهم إياها كثيرًا من الخلق، وأبعدوهم عن عبادة الله وحده، فضل عن الحق بسبب عبادتها خلق كثير، وهو أول شرك حصل في بني آدم واستمر وانتشر بعد ذلك.

ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام قائلًا ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ هذا دعاء منه عليه السلام على الظالمين من قومه، الذين ظلموا بعبادتهم غير الله وإشراكهم مع الله غيره.

وأظلم الظلم الشرك كما قال لقمان لابنه فيما حكاه الله عنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى: ولا تزد الظالمين إلا بعدًا وتيهًا عن الحق، أي: زدهم بعدًا وتيهًا عن الحق.

وذلك بسبب ظلمهم وشركهم، فإن المعصية تجر إلى المعصية بعدها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ قرأ أبو عمرو: «مما خطاياهم» بالألف بغير همز،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٠٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٨.

وقرأ الباقون: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بالهمز والتاء.

أي: من كثرة ذنوبهم وكفرهم ومخالفتهم رسولهم، وبسبب ذلك أغرقوا بالطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، أي: فنقلوا من الغرق إلى الحرق، ومن عمق البحار إلى عذاب النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، كما قال عز وجل عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، أي: فلم يجدوا لهم أنصارًا وأعوانًا ينقذونهم من عذاب الله ويدفعونه عنهم، لا من العذاب الدنيوي، ولا من العذاب الأخروي.

كما قال عز وجل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، أي: لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن الدار ويدور ويتحرك، بل أهلكهم واستأصلهم عن آخرهم.

وقد استجاب الله دعاءه، فأهلك بالغرق جميع من على وجه الأرض إلا من ركب معه في السفينة، حتى ولده لصلبه كان ضمن المغرقين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: ٤٣].

وقد قيل: إن دعوته عليهم بعد ما أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم امرأة كلما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها

رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم هذه المرأة»[١].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

قال ابن كثير[٢]: «وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق قومه بتكذيبهم لما جاء به».

وهنا نجد الفرق بين موقف نوح عليه السلام حين عصاه قومه وخالفوه وآذوه، وبين موقف محمد ﷺ إذ أخذ يردد حين آذاه قومه قائلًا: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٣].

ولما قال له ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين يعني جبلي مكة، قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»[٤].

وبهذا وغيره فاق ﷺ وساد جميع الرسل وكان له الحوض المورود والشفاعة الكبرى والمقام المحمود، حين يعتذر عن الشفاعة جميع الأنبياء، من أولي العزم وغيرهم حتى إن نوحًا عليه السلام يعتذر بقوله «إني استعجلت فدعوت على قومي اذهبوا إلى غيري».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة»[٥].

وليت من يعتدون في الدعاء وكذا من يدعون بما لم تجربه سنن الله الكونية ونحو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤. «هذا حديث غريب ورجاله ثقات».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥-١ من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٩٩.

ذلك من الأدعية التي لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، بل ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما فيه مبالغة واعتداء في الدعاء أقول: ليتهم يلحظون هذا الأدب النبوي الكريم في الدعاء فإنه أحرى لقبول دعائهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾، أي: إنك إن تتركهم فلا تهلكهم يضلوا عبادك المؤمنين الموجود منهم ومن سيوجد، أي: إنهم خطر وضرر على المؤمنين في دينهم في الحال والاستقبال.

﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي: ولا يلدوا ولا ينسلوا إلا فاجرًا بعمله مرتكبًا للفجور والفواحش والذنوب ﴿كَفَّارًا﴾ بقلبه.

و«كفار» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر بربه وبنعمه، أي: إن بقاءهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال ابن كثير[1]: «أي فاجرًا في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا».

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

دعا نوح عليه السلام على الكافرين من قومه بالهلاك ثم دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات، وبالخسران على الظالمين.

قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾، أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي أو منزلي ﴿مُؤْمِنًا﴾، أي: حال كونه مؤمنًا، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2].

وخص هؤلاء المذكورين؛ لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء فقال:

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا يشمل

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- من يؤمر أن يجالس ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد- ما جاء في صحبة المؤمن ٢٣٩٥.

الأحياء منهم والأموات.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، أي: إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا في الدنيا والآخرة.

**الفوائد والأحكام:**

١- شكوى نوح عليه السلام حاله إلى ربه عز وجل لما عصاه قومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ الآيات.

٢- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله- عز وجل- وحده، فهو الذي يسمع الشكوى، ويكشف الضر والبلوى.

٣- الحذر من فتنة المال والأولاد والاغترار بها، والحذر من تقليد واتباع من اغتروا بذلك فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٤- عظم كفر قوم نوح وكبر مكرهم وشدة تعلقهم بمعبوداتهم الباطلة وإضلالهم بهذه المعبودات كثيرًا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

٥- الحذر من الشرك وأسبابه فإن هذه الأوثان كانت في الأصل أسماء لرجال صالحين، صوروا للتأسي بهم في العبادة، ثم لما طال الزمن أوحى الشيطان إلى الناس فعبدوهم.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾.

٧- جواز الدعاء على الظالمين والكافرين الضالين المضلين بزيادة الضلال والتبار والخسار والهلاك؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

٨- إغراق قوم نوح عليه السلام، وإدخالهم النار بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وليس لهم من دون الله من أنصار؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

٩- الإشارة إلى أن النار موجودة الآن معدة لأهلها تعذب بها أرواحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

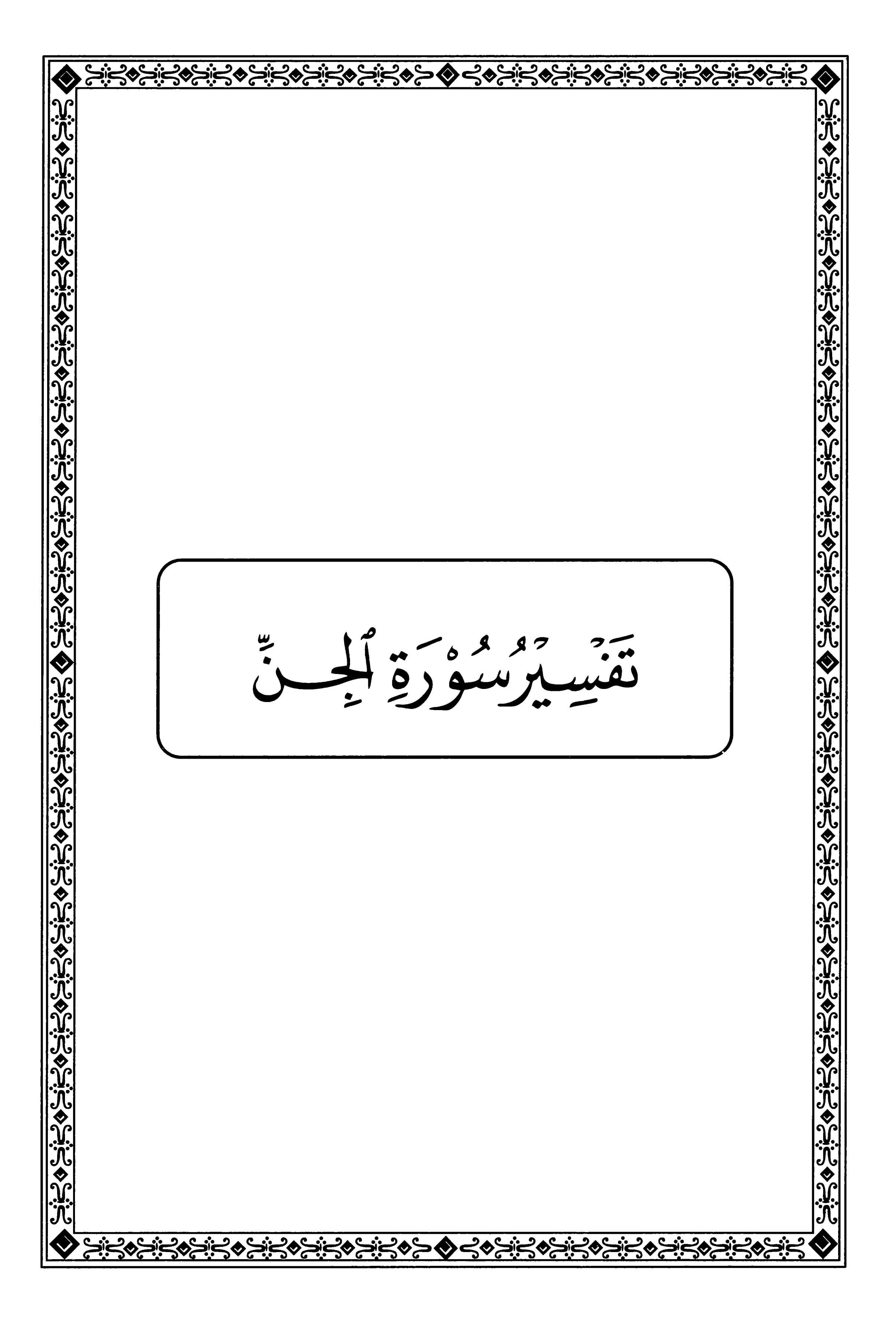
١٠- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.

١١- يجب الحذر من دعاة الضلال من أهل الكفر والشرك ونحوهم.

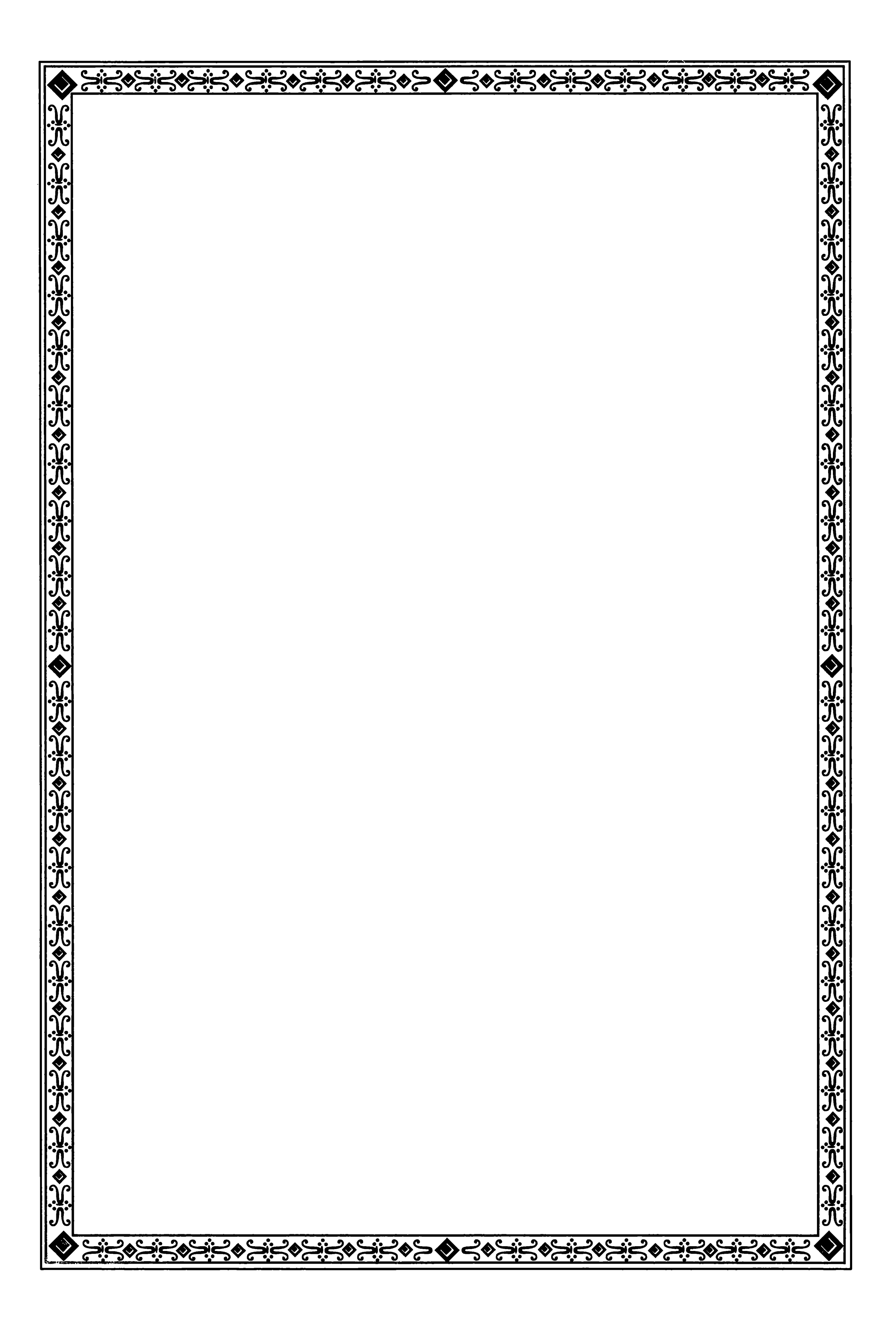
١٢- دعاء نوح عليه السلام لوالديه ولمن دخل بيته مؤمنًا ولجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

١٣- مشروعية الدعاء للوالدين وغيرهم من الأقارب المؤمنين، ولعامة المؤمنين والمؤمنات.

* * *



# تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡجِنِّ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجن»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الآية: ١]، ولما اشتملت عليه السورة من ثنائهم على القرآن، وإيمانهم به، وذكر بعض أحوالهم، وبراءتهم من الشرك، وغير ذلك.

وتسمى: «سورة قل أوحي»، و«سورة قل أوحي إليَّ».

### ب- مكان نزولها:

مكية.

### جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر وحي الله عز وجل إليه ﷺ بأنه استمع إليه نفر من الجن، وإعجابهم بالقرآن، وأنه يهدي إلى الرشد، وإيمانهم به وبراءتهم من الإشراك بالله، وتمجيدهم لله تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وذكر ما كانوا عليه هم والإنس من الكذب على الله وإنكار البعث وغير ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

٢- حفظ السماء بعد نزول القرآن بالحرس والشهب من استراق السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

٣- تسليمهم لأمر الله تعالى، وبيان أن منهم الصالحون، ودون ذلك، واختلاف طرائقهم، وأن منهم المسلمون ومنهم القاسطون، واعترافهم بضعفهم وعجزهم أمام قدرة الله تعالى، وتأكيدهم إيمانهم بربهم وعظيم رجائهم به، وخوفهم من وعيده: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

٤- أن النعمة قد تكون فتنة واستدراجًا: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً

غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

٥- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

٦- بيان أنه ﷺ لا يملك من الأمر شيئًا لا لنفسه، ولا لغيره، ولا يعلم الغيب، وليس إليه إلا تبليغ رسالة ربه، والإنذار والتهديد لمن يعصى الله ورسوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

٧- اختصاصه عز وجل بعلم الغيب، وأنه قد يطلع من ارتضاه من الرسل على شيء من ذلك لمصلحة الرسالة والدعوة: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا- والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم. قالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن»[1].

وقد سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ذكر

(١) أخرجه البخاري في الأذان- الجهر بقراءة صلاة الفجر ٧٧٣، ومسلم في الصلاة- الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٤٩، والترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٣، وأحمد ١/ ٢٥٢، ٢٧٤.

حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قراءته ﷺ على الجن[1].

قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للناس ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، أي: أوحى الله إليّ.

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: أنه استمع جماعة من الجن إلى قراءتي القرآن.

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما سمعوه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، أي: سمعنا قرآنا عجيبًا بديعًا، بليغًا ليس من كلام الإنس والجن، يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، أي: يدل إلى الرشد. و«الرشد» في الأصل؛ الاهتداء إلى طرق الخير عامة، والمراد به في الآية: الاهتداء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

كما قالوا فيما ذكر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولهذا وصف الله المؤمنين في سورة الحجرات بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾.

﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له واتبعناه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، أي: ولن نشرك بربنا أحدًا من الشركاء والمعبودات، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة – الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٥٠، والترمذي في الطهارة ٣٢٥٨، وأحمد ١/ ٤٣٦.

وفي قولهم: ﴿بِرَبِّنَآ﴾ إقرار منهم بربوبيته لهم وأنه الخالق المالك المدبر لهم ويلزم من هذا أن يفردوه بالعبادة وحده، فجمعوا بين الإيمان بالله وترك الشرك، بين الإيمان والتقوى، بين الإخلاص والمتابعة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بفتح الهمزة في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾، وكذا ما بعده إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ اثنتا عشرة همزة، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾.

وقرأ الباقون بكسرها في الجميع(١).

أي: وأنه تعاظم وارتفع جلال ربنا وقدره وسلطانه وعظمته وغناه وآلاؤه ونعمه على خلقه، وتعالى بذاته وصفاته وأسمائه فله علو الذات والصفات وعلو القدر وعلو القهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠، سبأ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾، «ما» نافية، أي: ما جعل لنفسه صاحبة، والصاحبة: الزوجة.

﴿وَلَا وَلَدًا﴾ الولد: جنس الأولاد من الذكور والإناث، أي: تعالى وتنزه سبحانه عن الصاحبة والولد؛ لأن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي كمال العظمة والغنى، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وفي هذا وما بعده ما يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله عز وجل، وعن فهم للإيمان، وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا، ومن الثواب العظيم في الآخرة وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ السفيه: من لا يحسن التصرف. والسفه يكون في الدين، ويكون في المال، ويكون في الولاية.

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٩١

والمراد به هنا السفه في الدين، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى في وصف اليهود ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأول من يدخل في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ إبليس وأتباعه وأعوانه.

﴿شَطَطًا﴾، أي: قولًا جائرًا عن الصواب، مفرطًا في الكذب، وباطلًا كبيرًا، وزورًا عظيما، من الإشراك بالله، ونسبة الصاحبة والولد له.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مشددة: «تَقَوَّلَ» وقرأ الباقون بضم القاف وإسكان الواو مخففة ﴿تَقُولَ﴾.

أي: حسبنا أنهم لا يقدمون ولا يتجرؤون على الكذب على الله بالإشراك به ونسبة الولد والصاحبة إليه اغترارًا منا بما عليه السادة والرؤساء من الإنس والجن، وإحسانًا منا الظن بهم، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك القول، وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل.

وبدؤوا بذكر الإنس؛ لأنهم أول من خوطب بالقرآن، وأول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن.

وأيضًا لئلا يعتقد إخوانهم من الجن أنهم ظاهروا الإنس عليهم.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيمًا لهم وخوفًا منهم، حيث كان الواحد منهم إذا نزل واديًا قال «أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه»[1].

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: فزاد الجنُّ الإنس خوفًا وذلًا ورعبًا وإرهابًا وفزعًا، وزاد

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٢١١.

الإنسُ الجنَّ طغيانًا وإثمًا فازدادت جرأة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم؛ ليبقى الإنس على تعظيمهم والخوف منهم والتعوذ بهم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: وأنهم، أي الجن ظنوا وحسبوا كما ظننتم وحسبتم أيها الإنس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: أن لن يبعث الله بعد هذه المدة أحدًا من الرسل، أي: أن لن يبعث الله رسولًا.

ويحتمل أن المعنى: وأنهم ظنوا كما ظن الإنس أن لا بعث ولا حساب فأقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾، أي: التمسنا السماء وطلبنا خبرها، كما كنا نفعل من ذي قبل.

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، أي: فوجدناها قد ملئت بالحرس الشديد، والشهب، التي يرمى بها من استرق السمع، فلم نستطع الوصول إليها، ولا الدنو منها، وذلك حفظًا لها وحفظًا لكتابه العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾، أي: وأنا كنا قبل ذلك، ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾، أي: من السماء.

﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، أي: للاستماع، أي لاستراق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء، فيلقونها على ألسنة الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، أي: فمن يرم ويحاول الاستماع لخبر السماء الآن بعد نزول القرآن يجد له شهابًا من النجم مرصدًا معدًا له لا يخطئه بل يصيبه فيحرقه ويهلكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوا باطلًا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا

بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»(١).

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ﴾، أي: وأنا لا ندري ولا نعلم ما هذا الأمر الذي حدث وحفظت من أجله السماء بالحرس الشديد والشهب.

﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أهو شر أريد بالذين في الأرض وساكنيها.

﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾، «أم»: عاطفة، ويجوز كونها بمعنى: «بل» والجملة بعدها استئنافية، أي: بل أراد بهم ربهم.

﴿رَشَدًا﴾، أي: خيرًا وصلاحًا ونجاحًا وفلاحًا فعرفوا بفطنتهم أن هذا ينذر بحدوث أمر عظيم، وحدث كبير خيرًا كان أو شرًا.

وفي ضمن ذلك إشارة إلى أن هذا ابتلاء فيه الرشاد والخير لأقوام، وفيه الشر والهلاك لأقوام.

وقد أسندوا الشر إلى ما لم يسم فاعله، وأسندوا إرادة الرشد إلى الله عز وجل تأدبًا في العبارة، كما في قول المؤمنين في الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فنسبوا الإنعام إليه، والغضب لما لم يسم فاعله، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٢).

ويؤخذ من الآيات عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه إليه فمن أجل ذلك حرست السماء بالحرس الشديد والشهب.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٤، وأحمد ١/ ٢٧٤ وقال الترمذي «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ ووحي الله- عز وجل- إليه، وأن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن، وإثبات وجود الجن، وإعجابهم بالقرآن، وإقرارهم بهدايته، وإيمانهم به وبراءتهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

٢- إثبات أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فلا علم له إلا بما أوحاه الله إليه.

٣- في أمره ﷺ بالإخبار باستماع نفر من الجن إلى قراءته وإعجابهم بالقرآن وهدايته- وتأثرهم وإيمانهم به إثارة لمشاعر الإنس ألا يكون الجن خيرًا منهم في هذا وحث لهم على المنافسة.

٤- عظمة القرآن وهدايته إلى الرشد والحق، وإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لهذا تأثر الجن وأعجبوا به لما سمعوه وآمنوا به وأعلنوا تعظيم الله عز وجل والبراءة من الشرك ومن الكذب على الله.

٥- أن الإيمان ينافي الشرك ولا يجتمع معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾.

٦- تعظيم الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وإثبات ربوبيته - عز وجل- الخاصة- للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾.

٧- اجتراء سفهاء الجن والإنس على نسبة الصاحبة والولد لله والإشراك به والكذب عليه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)﴾.

٨- التحذير من الاستعاذة بغير الله من الجن أو غيرهم وأن في الاستعاذة بغير الله زيادة ذل وخوف للمستعيذ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

٩- تقرير وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والرد على منكريه من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

١٠- حراسة السماء وحفظها بالشهب بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم حفظًا من الله عز وجل لكتابه العظيم ولنبيه ﷺ وتعظيمًا لمبعثه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

١١- إقرار الجن واعترافهم بأنهم لا يعلمون الغيب، ولا يدرون ما الحكمة فيما حصل من حراسة السماء، وفي هذا أبلغ الرد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين والدجالين الذين يعتمدون على الجن فيما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

١٢- أدب الجن في كلامهم وخطابهم إذ نسبوا الشر لما لم يسم فاعله، ونسبوا الرشد إلى الرب سبحانه فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وهكذا ينبغي التأدب في مثل هذا كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك».

١٣- إثبات ربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الصالحون: جمع صالح، والصالح من صلح عمله بأن جمع بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ومنا من هم دون الصالحين، أي: مقتصدون، وقيل: ومنا غير ذلك، أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

والطرائق: جمع طريقة، والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة، أي: كنا أصنافًا مختلفة، ومللًا ونحلًا شتى، ذوي مذاهب متفرقة، وآراء وأهواء متباينة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطيع الخروج من حكمه وقدرته.

﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾، أي: ولن نعجزه هاربين، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، أي: وأنا لما سمعنا الهدى، أي: القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، كما في قولهم قبل هذا: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ [الآية:٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا بجوارحنا، وهم بهذا يفتخرون، وحَق لهم ذلك، فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾، أي: فمن يؤمن بربوبيته- عز وجل- وألوهيته وأسمائه

وصفاته، وينقد لشرعه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الزيادة، أي: فلا يخاف نقصًا في حسناته وثوابه، ولا زيادة في سيئاته وعقابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وإذا سلم المؤمن من البخس والرهق، ومن الظلم والهضم حصل له الخير.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾، أي: المنقادون بجوارحهم لأمر الله وشرعه الخاضعون له بالطاعة.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾، «القاسطون» جمع «قاسط»، من «قسط» الثلاثي بمعنى جار وظلم، أي: ومنا الجائرون العادلون عن طريق الحق، وعن الصراط المستقيم.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: فالذي أسلم، أو فالذين أسلموا ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أشاروا إليهم بإشارة الجمع باعتبار معنى «من»، وأشاروا إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لشأنهم.

﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، أي: طلبوا وتوخوا وأصابوا طريق الرشاد والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وبحثوا عنه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾، أي: للنار وقودًا تسعر وتوقد بهم جزاء ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

قال ابن القيم[1]: «قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]».

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، أي: وأن لو استمروا على الطريق والنهج والمسلك المذكور نهج القاسطين ومسلكهم مسلك الظلم والجور.

﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أي: لأسقيناهم ماءً كثيرًا، يكون سببًا لسعة رزقهم ورغدهم.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نختبرهم ونبتليهم في سعة الرزق استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويؤيد هذا المعنى من السياق قبله قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فأقرب ما تفسر به الطريقة مسلك هؤلاء، وقوله بعده ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

ويحتمل أن معنى الآية ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المثلى طريقة الإسلام الملة الحنيفية وثبتوا واستمروا عليها.

﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيرًا غزيرًا يكون سببًا لسعة رزقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥.

وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي: لنختبرهم ونبتليهم فيما أعطيناهم أيشكرون فيستمرون على الاستقامة والطاعة أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون.

ويقوي هذا القول حمل الاستقامة على المعنى الظاهر والمتبادر منها، وهو الاستقامة على الإسلام وطاعة الله تعالى.

لكن يضعفه قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ لأن الله عز وجل وعد المؤمنين المستقيمين على أمره وطاعته بتوسيع الرزق لا ليفتنهم، كما في الآيتين المذكورتين بل إكرامًا لهم.

وكما هو مقتضى دلالة عموم نصوص الكتاب والسنة، وإن كان كثرة المال والرزق قد تكون في الأصل فتنة، لكن لغير من وفقهم الله للاستقامة على دينه وطاعته، فإن الله يدرأ عنهم أسباب الفتنة ويحفظهم كما حفظوه، ما لم يغتروا بأنفسهم وهذا ينافي استقامتهم على طاعة الله تعالى.

فالسياق السابق واللاحق وقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ كل هذا يقوي الاحتمال الأول؛ ولهذا قال ابن كثير(١) بعد ذكره: «وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾».

﴿وَمَن يُعْرِضْ﴾، أي: ومن يعرض بقلبه ويتول ببدنه.

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، أي: عما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «نسلكه» بالنون.

ومعنى «يسلكه»: يدخله، كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما أدخلكم فيها، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

ومعنى الآية: يدخله عذابًا شاقًا يعلوه ويغلبه، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٠.

[المدثر: ١٧]، أي: سأكلفه مشقة من العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

**الفوائد والأحكام:**

١- أن الجن مذاهب مختلفة وملل شتى، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المسلمون، ومنهم القاسطون الجائرون الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

٢- إثبات أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا أيقن هؤلاء النفر من الجن بتوفيق الله لهم لما سمعوا القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

٣- اعتزاز هؤلاء النفر من الجن بإيمانهم بالقرآن وما فيه من الهدى لما سمعوه وفرحهم واستبشارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٤- ما أسعد من آمن بربه واستقام على شرعه يوفى أجره كاملًا من غير نقص من حسناته ولا زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

٥- الوعد والبشارة والتهنئة لمن أسلموا بإصابتهم طريق الرشد والخير والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

٦- الوعيد للقاسطين الظالمين بكونهم لجهنم وقودًا وحطبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

٧- أن الاستقامة على دين الله وطاعته سبب لنزول الأمطار والبركات والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

٨- أن إنزال المطر وإغداق النعم قد يكون ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

٩- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد لمن يعرض عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لعباده المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾، ولقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾.

١١- الوعيد والتهديد لمن يعرض عن ذكر ربه بإدخاله في العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

١٢- أن الجن مكلفون مجزيون بأعمالهم كالإنس.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الواو: عاطفة. و«المساجد» مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: لعبادته خاصة.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: فلا تدعوا مع الله أحدا من الخلق، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، أي: اعبدوه في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحدًا.

وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبِيَعهم.

وقيل المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين»[1].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة: «وإنه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾.

أي: وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله.

وأطلق عليه وصف العبودية، فقال «عبد الله» في مقام الدعاء والعبادة وهو من أعظم المقامات ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه يدعوه؛ لأن العبودية لله أشرف

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٢، ومسلم في الصلاة- أعضاء السجود ٤٩٠، وأبو داود في الصلاة ٨٨٩، والنسائي في التطبيق ١٠٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٣.

الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم.

ولهذا وصفه بها في مقام الإسراء والقرب منه عز وجل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل برسوله ولا بنبيه.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبد: الشيء الكثير المتراكم والمتلبد بعضه على بعض، أي: كاد الإنس والجن يتلبدون على النبي ﷺ، أي: يجتمعون على عداوته، ورد دعوته. ويقويه قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال ابن كثير[1]: «وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: قال[2] لهم الرسول حين آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه؛ ليبطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾».

ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كادوا يتراكمون عليه ﷺ حرصًا على اتباعه واستماع دعائه ﷺ وقراءته.

وقيل: إن الجن لما رأوا النبي ﷺ يصلي بأصحابه وائتمامهم به في ركوعه وسجوده وقيامه وجلوسه عجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كاد أصحابه من شدة متابعتهم له في صلاته أن يتلبدوا عليه.

﴿قُلْ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة: ﴿قُلْ﴾ بغير ألف على الأمر، وقرأ الباقون: «قال» بالألف على الخبر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبينًا لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه:

﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾، «إنما» أداة حصر، ﴿أَدْعُواْ رَبِّى﴾، أي: أعبده وأسأله وأدعو إليه وحده.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٢.

(٢) على قراءة الجمهور.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ﴾، أي: بربي ﴿أَحَدٗا﴾ من الشركاء، أو من الخلق، وهو تأكيد لعبادته له وحده.

وهذا إعلان منه ﷺ لمن اجتمعوا على عداواته أن هذا منهجه وطريقه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإعلان منه لمن استمعوا إليه من الجن ولغيرهم أن هذا سبيله وطريق دعوته.

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾، أي: إني عبد ليس لي من التصرف شيء، فلا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا غواية ولا رشدًا، بل مُلك ذلك وأمره كله لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾، أي: لن يمنعني من الله أحد إن أنا عصيته، أي: فلا يستطيع أحد نصرتي ودفع عذاب الله عني، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ [يس: ٢٣].

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، أي: ولن أجد من دون الله عز وجل ملجأ أركن إليه ولا نصيرًا؛ لأنه لا ملجأ ولا منجا منه تعالى إلا إليه، كما قال نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق وسيد ولد آدم لا يملك ضرًا ولا رشدًا، ولا مجير له من الله، ولا ملجأ له من دون الله ولا نصير فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، وفي هذا رد على من يغلون به ﷺ وعلى من يغلون بالأولياء وأصحاب القبور ويطلبون منهم المدد وقضاء الحاجات.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، «إلا»: أداة استثناء، والمعنى: إلا إبلاغ أمر الله ورسالاته إلى الناس، أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته إليهم.

وهذا مستثنى من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، أي: إلا تبليغ أمر الله ورسالاته فأنا أملكه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فذلك وسيلتي إلى الله عز وجل للنجاة والخلاص من عذابه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فالإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة والخلاص بتوفيق الله عز وجل وهما الوسيلة التي يتوسل بها العبد إلى ربه عز وجل ومن هذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، وكرهت أن أوقظهما فلبثت والقدح في يدي والصبية يتضاغون تحت قدمي، حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئًا لكنهم لا

يستطيعون الخروج...» الحديث[1].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾، أي: فإن الله أعد له مجازاة له، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا مفر له عنها ولا محيد، وسميت نار جهنم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، «خالدين»: حال، وجمعت باعتبار معنى «من».

وحيث رتب الله على المعصية هنا الخلود في جهنم فإن المراد بالمعصية الكفر المخرج من الملة؛ لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الكفر.

وهذه الآية هي الآية الثالثة في القرآن التي فيها التصريح بأبدية خلود أهل النار فيها، مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقد اختلف أهل العلم في تأبيد النار وتأبيد المعذبين فيها الذين ماتوا على الكفر على قولين الصحيح منهما كما هو صريح هذه الآيات أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها وهو قول جمهور أهل العلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: حتى إذا رأى من عصوا الله ورسوله من الجن والإنس الذي يوعدون يوم القيامة من الأهوال والعذاب بالنار، وشاهدوه عيانًا وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، أي: فسيعلمون حقيقة العلم يومئذ من الذي هو أضعف ناصرًا، وأقل عددًا، أهم، أم المؤمنون، وأنهم هم الأضعف

(١) أخرجه البخاري في الإجاره ٢٢٧٢، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٣.

ناصرًا، فلا أحد في ذلك ينصرهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم، وأنهم هم الأقلون عددًا بالنسبة لأولياء الله المفلحين وجنده الأكثرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٧].

فحيث كانوا في الدنيا ينتقصون المؤمنين بضعف أنصارهم وقلة عددهم، ويفتخرون عليهم بقوة أنصارهم وكثرة عددهم جازاهم الله بنقيض ذلك فأبان لهم ضعفهم وضعف أنصارهم وقلة عددهم.

**الفوائد والأحكام:**

١- وجوب إخلاص العبادة لله- عز وجل- بلا شريك، وأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله عز وجل وحده، فلا يدعى معه فيها غيره، ولا يمنع أحد من ذكر الله عز وجل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

٢- تشريفه ﷺ بالعبودية الخاصة لله- عز وجل، وهي أشرف ما يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

٣- اجتماع الكفرة والمكذبين من الجن والإنس على عداوة الرسول ﷺ والكيد له ولدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

٤- إعلان الرسول ﷺ إخلاص العبادة لربه عز وجل والبراءة من الشرك، ومن الحول والقوة، وأنه لا يملك للخلق ضرًا ولا نفعًا وأنه لا مجير له من الله إن خالف أمره ولا ملجأ له من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

٥- إثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة- له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

٧- الوعيد الشديد لمن يعصي الله ورسوله، ويكفر بالخلود في نار جهنم خلودًا أبديًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٨- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب المخلدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفرة والمكذبون يفتخرون في الدنيا بقوتهم وقوة أنصارهم وكثرة عددهم فيوم القيامة حين يرون العذاب يعلمون أنهم هم الأضعفون الأقلون، فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله عز وجل وفي هذا أبلغ الوعيد والتهديد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾، «إن» نافية، أي: ما أدري.

﴿أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أقريب الذي توعدون، أو أقريب وعدكم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾، «أم»: حرف عطف. «أمدا»، أي: مدة وغاية طويلة.

والمعنى: قل يا محمد للناس: لا أدري أقريب الذي توعدون من البعث وقيام الساعة والحساب ومجازاتكم على أعمالكم، أم يجعل له ربي مدة وغاية طويلة.

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤)﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها وفيها قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(١).

وفي حديث أنس- رضي الله عنه: «أن أعرابيًا نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»، قال: أما إني لم أعد لها كثرة صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال: «فأنت مع من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث»[١].

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»[٢].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرها نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: «خمسمائة سنة»[٣].

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: عالم ما غاب عن الحواس من المخلوقات والأمور والأحوال السابقة واللاحقة وغير ذلك، لا يعلم ذلك غيره، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧].

وعلمه عز وجل بالشهادة من باب أولى.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: فلا يُطْلع على غيبه أحدا من خلقه.

وفي هذا رد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والرمالين والمنجمين وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

قال لبيد[٤]:

لعمرك ما تدري الضوارب ولا زاجرات الطير ما الله صانع

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٣٩، والترمذي في الزهد ٢٣٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٥٠.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

وقال الآخر:

أيا علماء النجوم أحلتمونا ... على علم أرق من الهباء
كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمُ علم السماء[(١)]

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، «إلا» للاستثناء، و«من» موصولة.

والمراد بالرسول في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾: جنس الرسل، فيعم الرسل من الملائكة والبشر.

والمعنى: إلا الذين رضي عنهم من رسله وارتضاهم لرسالاته، فإنه عز وجل يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم.

ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾، أي: يجعل من أمامه ومن ورائه حرسًا وحفظة من الملائكة يحفظون ما أوحاه الله إليه من الشياطين حتى يبلغه على حقيقته من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير[(٢)]: «أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله».

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ اللام: للتعليل، أي: أنه عز وجل يحفظ رسله بالملائكة ليتمكنوا من تبليغ رسالاته عز وجل للناس ليظهر في علمه عز وجل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ

---

(١) البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه، وليسا في ديوانه. انظر: «غذاء الألباب» ١/ ١٩١، ونسبا لابن عبد البر. انظر: «الوافي بالوفيات» ٢٩/ ١٠٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣.

ﵟٱلۡمُنَٰفِقِينَﵞ [العنكبوت: ١١].

فعلى هذا يكون المعنى: ليظهر في علمه عز وجل أن الرسل بلغوا رسالات ربهم بما أطلعهم عليه بحكمته ووحيه من بعض المغيبات؛ تأييدًا لهم مع أنه عز وجل قدر الأشياء وعلمها قبل كونها؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يعود إلى الرسول أي ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله رسالاته، وأن جبريل والملائكة حفظوها وبلغوها إليه ﷺ.

وقيل ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله رسالاته، ويدل على هذا قراءة يعقوب: «ليُعلم» بضم الياء، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾، أي: أحاط بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، فقدره وعلم به علمًا تامًا قبل كونه وبعده.

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾، أي: علم عدد الأشياء كلها وضبطها ضبطًا كاملًا، فلم يخف عليه منها شيء.

**الفوائد والأحكام:**

١- أمر الله لرسوله ﷺ برد علم الساعة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال إليه عز وجل؛ لأنه ﷺ لا علم له بها لا هو ولا غيره من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾.

٢- إثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصةله ﷺ - تشريفًا وتكريمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ﴾.

٣- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي هذا رد على السحرة والكهنة والرمالين والمنجمين وأدعياء علم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

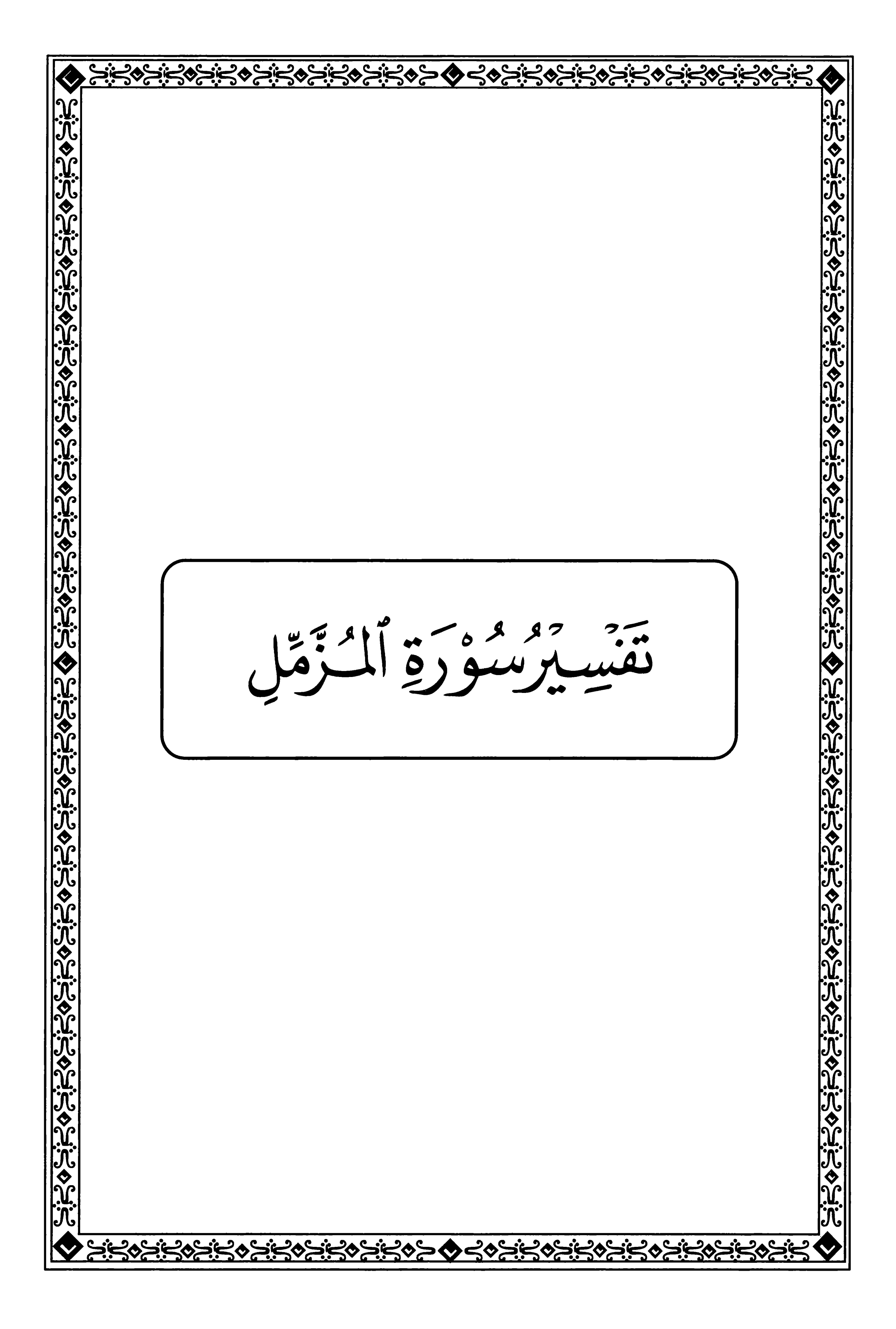
٤- أن الله عز وجل قد يطلع بعض من ارتضى من رسله على شيء من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

٥- حفظ الله عز وجل لرسله ولوحيه إليهم؛ ليبلغوه كما أوحاه الله إليهم، وليظهر في علمه عز وجل أنهم أبلغوا رسالاته إلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

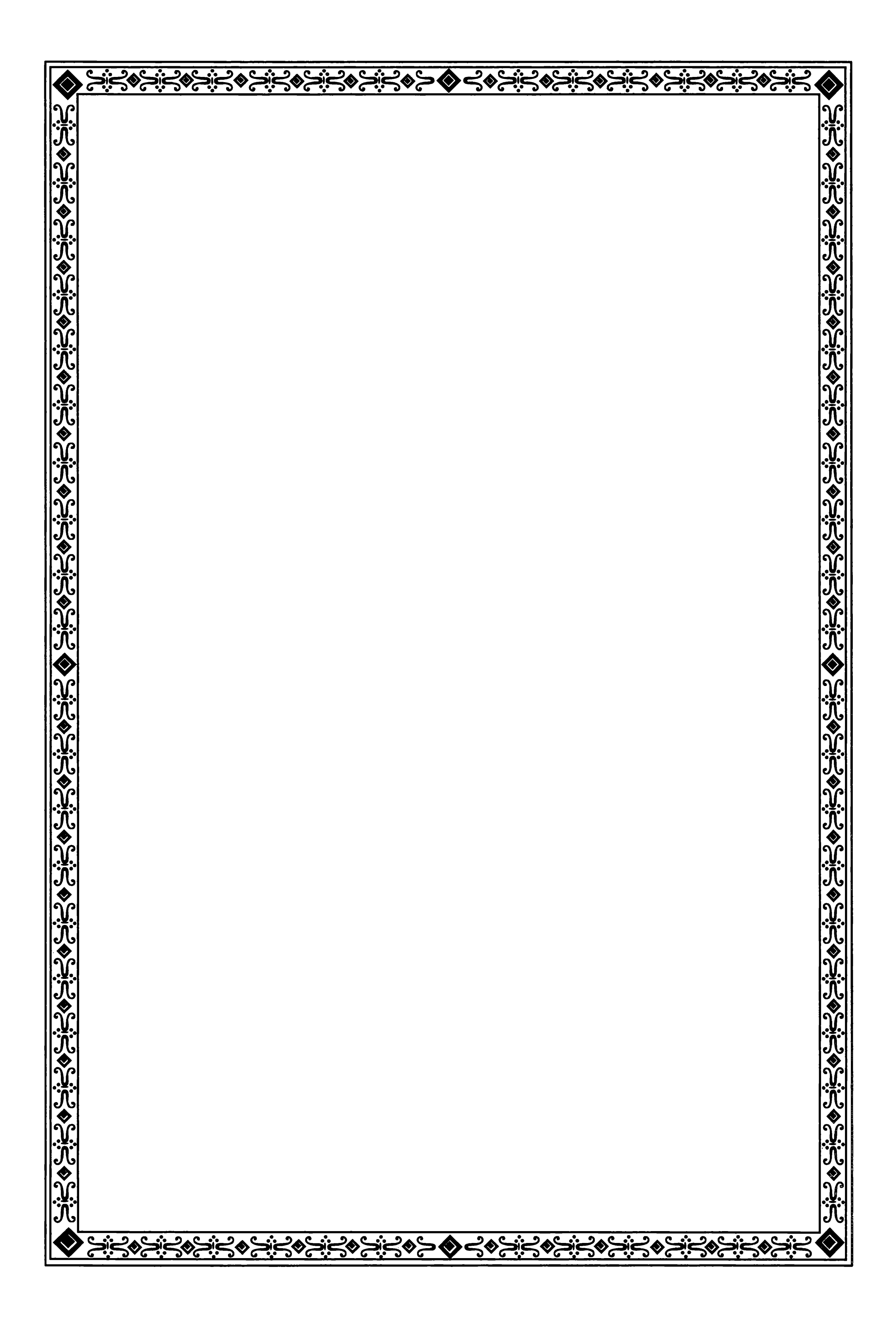
٦- إحاطة علم الله عز وجل بالخلق، وما عندهم سواء أسروه أو أعلنوه، تقديرًا له وعلمًا به قبل كونه وبعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

٧- إحصاء الله عز وجل كل شيء عددًا وضبطه له ضبطًا تامًّا كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُزَّمِّلِ



# المقدمة

**أ- اسم السورة:**

سميت هذه السورة: «سورة المزمل»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

**ب- مكان نزولها:**

مكية، وقيل: آخرها مدني.

**جـ- موضوعاتها:**

١- افتتحت السورة بنداء النبي ﷺ بوصف «المزمل» وأمره بقيام الليل تهيأً واستعدادًا لما سيلقى عليه من القرآن العظيم، وأمره بذكر الله والتبتل إليه، و التوكل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

٢- أمْره ﷺ بالصبر على قول المشركين وتركهم، وتوعده عز وجل لهم وتهديدهم: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝١٩﴾.

٣- نسخ وجوب قيام الليل والتخفيف على الأمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾.

عن جابر رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾»[(١)].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه، و«المزمل» صفة لـ«أي»، أو بدل.

و«المزمل» أصلها: «المتزمل» ثم أدغمت التاء في الزاي؛ لقربها منها، أي: المتلفف بثيابه المتدثر بها، وذلك حصل منه ﷺ أول ما ابتدأه الله عز وجل بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام، فجاء ﷺ إلى أهله ترعد فرائصه، وهو يقول: «زملوني زملوني» ولهذا ناداه الله عز وجل في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، أي: قم للصلاة فيه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا قليلًا منه للنوم والراحة.

﴿نِصْفَهُ﴾: بدل كل من «الليل» والضمير يعود إلى الليل، أي: نصف الليل.

﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، «أو»: عاطفة في الموضعين، تفيد التخيير، والضمير في قوله «منه» يعود إلى «نصفه»، أي: أو انقص من نصفه قليلًا في حدود ما بين النصف إلى الثلث.

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٧٥ وقال البزار: معلى بن عبد الرحمن- يعني أحد رواة الحديث-: قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، فاحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها».

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ الضمير في «عليه» يعود أيضًا إلى «نصفه»، أي: أو زد على نصفه قليلًا، في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

يدل على هذا قوله في آخر السورة: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل إلا قليلًا، ثم بين مقدار وقت القيام من الليل وحدده بنصف الليل، أو أنقص منه قليلًا، أو أزيد عليه قليلًا، فخيره بين حالات ثلاث: قيام نصف الليل كاملًا، أو النقصان منه قليلًا، أو الزيادة عليه قليلًا.

وهذا فيه تيسير عليه ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل في آخر السورة: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾.

وفي الحديث: «استقيموا ولن تحصوا»(١).

وقد أوجب الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في مطلع هذه السورة قيام الليل، وبين مقداره، كما دل على وجوبه عليه ﷺ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الآية: ٧٩]، ثم نسخ الله عز وجل وجوب ذلك في آخر السورة.

عن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئيني بقيام رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: إن الله تعالى افترض القيام في أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ على النبي ﷺ وعلى أصحابه حولًا، حتى انتفخت أقدامهم، فأمسك الله تعالى خاتمتها اثني عشر شهرًا، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، بعد أن كان فريضة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، والدارمي في الطهارة ٦٥٥ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في الصلاة- صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٤.

سنة»(١).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، أي: واقرأ القرآن بتمهل وترسل، وتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وهكذا كان يقرأ ﷺ.

عن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مدًا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد «بسم الله»، ويمد بـ«الرحمن»، ويمد بـ«الرحيم»(٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطعُ قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾»(٤).

وأَمْره ﷺ بترتيل القرآن أمر له ولأمته، وهكذا جاءت الأحاديث في استحباب الترتيل، والأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغني به وفضل ذلك.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- أبواب قيام الليل- باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه ١٣٠٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، ٣٦٢، والبيهقي في سننه في الصلاة- قيام الليل ٢/ ٥٠٠، والحاكم في تفسير سورة المزمل ٢/ ٥٠٥. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٣٣، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٥٨، والترمذي في الصلاة ٣٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- مد القراءة ٥٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٦٥، والنسائي في الافتتاح ١٠١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي في القراءات- ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ٢٩٢٧، وأحمد ٦/ ٣٠٢، والبغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٨، والنسائي في الافتتاح- باب تزيين القرآن بالصوت ١٠١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- باب في حسن الصوت بالقرآن ١٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٨٣، ٢٨٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به»[١].

وفي رواية «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[٢].

وأعجبه ﷺ صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءته القرآن، وامتدحه فقال: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». فقال أبو موسى رضي الله عنه: «لو كنت علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تنثروه نثر الدّقل[٥]، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[٦].

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأت المُفَصَّل الليلة في ركعة فقال: هذًّا كهذِّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين في كل ركعة»[٧].

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ ٧٥٢٧.

(٢) أخرجها مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين- استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٤، وأحمد ٢/ ١٩٢.

(٥) الدقل: رديء التمر ويابسه. انظر «النهاية» مادة «دقل».

(٦) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٧) أخرجه البخاري في الأذان- الجمع بين السورتين في ركعة ٧٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٥، والترمذي في الجمعة ٦٠٢.

وهو الأهم؛ ولهذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾.

وليس من الترتيل المأمور به الاهتمام باللفظ وتحسين الصوت به دون التدبر لمعاني القرآن وأحكامه- كما هو حال كثير ممن يقرؤون القرآن- فذلك لا يجدي شيئًا وقد قال ﷺ «يقرأ القرآن أناس من أمتى لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء وضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلّد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره».

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، أي: سنلقي عليك بإيحائنا إليك إما بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما وحيًا منه عز وجل، أو بتكليمه من وراء حجاب كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ هو الوحي إليه بالقرآن الكريم، عظيم المعاني جليل الأوصاف.

وهو ثقيل أشد ما يكون نزوله على النبي ﷺ؛ لعظمته فعن زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٦.

عنه قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرّي عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصِلَ، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: «إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها[٤]»[٥].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿ثَقِيلًا﴾، أي: ثقيلًا العمل به على المكلفين، واختار الطبري أنه ثقيل من الوجهين[٦].

لكن ينبغي أن يعلم أن العمل بالقرآن خفيف على من وفقه الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل وضع ببعثة النبي ﷺ وبما أوحى إليه من القرآن والسنة الآصار والأغلال عن هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣، وأخرجه مسلم مختصرًا في الفضائل ٢٣٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

(٤) الجران: باطن العنق، والمعنى: أنها تثبت في مكانها، ولا تستطيع الحركة ولا السير.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١١٨.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٦.

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل إن الموفق حقًا يجد في تطبيق أحكام القرآن والسنة الراحة واللذة والسرور والطمأنينة وقوة المعنوية والنشاط؛ ولهذا قال ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال بالصلاة»(١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: القيام والعبادة فيه، في جميع أوقاته وساعاته وآنائه، أي: الليل كله، وبخاصة ما كان منه بعد النوم والراحة واستعادة الجسم والفكر نشاطه وحيويته، وتطلق أيضًا ناشئة الليل على الفعل الذي ينشأ فيه، أي: على القيام نفسه؛ لأنه ينشأ في الليل.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر «وِطاءً» بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها، وقرأ الباقون: (وَطْئًا) بفتح الواو وإسكان الطاء من غير مد.

أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: إن قيام الليل والصلاة والقراءة فيه أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: يوافق فيها القلب اللسان، بحيث يتدبر القارئ ما يقرأ، وهو المقصود الأهم من القراءة.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾، أي: أقوم قولًا، وأصوب وأثبت قراءة.

قال ابن كثير(٢): «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، أي: فراغًا طويلًا وتقلبًا وتصرفا في قضاء حوائجك وذلك كافٍ، فتفرغ في الليل للقيام والصلاة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٨٦، وأحمد ٥/ ٣٧١- عن عبدالله بن محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار.

وأخرجه أحمد أيضا ٥/ ٣٦٤- عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٨.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ بأنواع الذكر بالقلب واللسان، وبالعبادات القولية والفعلية، البدنية والمالية وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، أي: انقطع إليه انقطاعًا وأنب إليه وتعلق به بقلبك وأخلص له العمل، وتفرغ لعبادته، إذا انتهيت من قضاء حوائجك وأشغالك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ويؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ أن التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل وإلى عبادته إنما يكون بعد قضاء الإنسان الحوائج والمشاغل، وإعطاء الجسم الراحة الكافية، لا كما أراد الذين نهاهم النبي ﷺ عن التبتل، لأنهم أرادوا الانقطاع للعبادة وتحريم ما أحل الله لهم، والمشقة على أنفسهم، وترك مشاغلهم وحوائجهم.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «ربِّ» بكسر الباء، وقرأ الباقون برفعها: ﴿رَّبُّ﴾.

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها؛ خالقه ومالكه ومدبره والمتصرف فيه.

والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، أي: فاجعله وكيلا تتوكل وتعتمد عليه؛ وتفوض إليه جميع أمور دينك ودنياك مع تمام الثقة به سبحانه وتعالى.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الأمر بعبادته والتوكل عليه؛ لأنه لا يستقيم أحدهما بدون الآخر، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

**الفوائد والأحكام:**

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وعلى أمته وهذا في أول الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

٣- مشروعية ترتيل القرآن الكريم وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ ولهذا فالسنة ألا يختم القرآن في أقل من سبع، أو ثلاث[1].

٤- أن القرآن الكريم ثقيل على النبي ﷺ حال نزوله، وهو أيضًا ثقيل في أحكامه إلا على من وفقه الله وخففها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

٥- أن ساعات الليل هي أشد صفاء للذهن وحضورًا للقلب يواطئ فيها القلب اللسان، ويجمع فيها القارئ بين القراءة والتدبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

٦- نعمة الله عز وجل على الخلق في خلق الليل والنهار، وجعل النهار وقتًا لطلب الرزق وقضاء الحاجات وجعل الليل وقتًا للراحة والنوم وقيام ما تيسر منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

٧- في مراعاة سنن الله الكونية وجعل النهار وقتا لطلب الرزق والعمل، والليل للنوم والراحة وقيام ما تيسر- انتظام أمور الحياة الدينية والدنيوية وصلاحها وفي عكس ذلك قلب للموازين واضطراب أمور الحياة وفسادها، كما هو حال الكثيرين اليوم.

٨- الأمر بذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر القولية والفعلية، والانقطاع إليه عز وجل بالعبادة بعد الفراغ من المشاغل والحوائج التي لابد منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

٩- إثبات عظمة الله عز وجل، وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ، وربوبيته العامة للمشارق والمغارب وغير ذلك، وانفراده عز وجل بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل والاعتماد عليه وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

* * *

(١) سبق تخريج الأحاديث في هذا.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل، وترتيل القرآن وتدبره، وذكر الله عز وجل والانقطاع إليه بالعبادة والتوكل عليه، مما يعطيه الزاد الروحي والمعنوي على تحمل أعباء الرسالة، وما يلاقيه في سبيلها، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على أذى المكذبين وهجرهم، وتوعدهم عز وجل بالعذاب.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: اصبر على جميع الذي يقولون، مما يخالف ما جئت به ويؤذيك؛ من الإشراك مع الله غيره ونحو ذلك، ومن رميك بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والافتراء والكذب ونحو ذلك. وقد تكون «ما» مصدرية، أي: اصبر على قولهم.

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، أي: واتركهم تركًا حسنًا لا جزع فيه، ولا قلق، ولا أذى. فالهجر: الترك، والجميل: الحسن الذي لا أذى فيه، كما أن الصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه لغير الله ولا جزع ولا قلق. والصفح الجميل: الذي لا عتاب فيه، والسراح الجميل: الذي لا مغاضبة فيه ولا أذى ولا عتاب.

قال الطبري[1]: «والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]».

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: ودعني واتركني والمكذبين، فأنا أتولى عقابهم وعذابهم،

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨٠.

ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد، وتهديد أكيد للمكذبين للرسول ﷺ.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾: أرباب وأصحاب التنعم والترف وغضارة العيش، وأصحاب الأموال والغنى الذين أطغتهم النعمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم قليلًا من الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

فالله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ الآية، قالت: لم يكن إلا يسيرًا حتى كانت وقعة بدر»(١).

ويؤخذ من الآية: التحذير من الانشغال بالنعم والأموال، وأنها قد تحمل الإنسان على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله، كما قال نوح عليه السلام ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾، أي: إن عندنا جاهزًا معدًا ﴿أَنكَالًا﴾: قيودًا شديدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَجَحِيمًا﴾، أي: ونارًا مستعرة ملتهبة مضطرمة حامية شديدة الحر، بعيدة القعر.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، أي: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ، ولا يدخل، ولا يخرج لما فيه من الشوك، ولمرارته، وبشاعته، وكراهة طعمه، ونتن ريحه، وخبثه.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا، موجعًا، حسيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، «يوم» ظرف للوعيد الذي تُوعدوا به، أي: يكون ذلك النكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، أي: يوم وحين تهتز الأرض والجبال وتضطرب وتتزلزل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، أي: تحولت وصارت كثبانًا وأكوامًا من الرمل.

﴿مَّهِيلًا﴾ رخوًا لينًا ينتثر بعضه على بعض، بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.

فالأرض والجبال على عظمتها في ذلك اليوم يعتريها من أمر الله ما يعتريها، فتتبدل وتتغير، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي الذي لا يموت سبحانه، فليعتبر أولو الألباب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ الخطاب لأهل مكة وغيرهم من الأمة امتنانًا عليهم والمراد بالرسول محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، أي: شاهدًا عليكم بأعمالكم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟!، قال إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت من أول سورة النساء حتى وصلت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه

تذرفان»[١].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى، وهو أشد الفراعنة كفرًا.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، «ال» في «الرسول» للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور آنفًا الذي أرسل إلى فرعون، وهو موسى عليه السلام.

و«ال» تأتي للعهد الذكرى، كما في هذه الآية، وتأتي للعهد الذهني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وتأتي للعهد الحضوري، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

أي: خالف فرعون موسى عليه السلام فيما جاء به من عند الله من وجوب عبادة الله وحده، بل ادعى الألوهية والربوبية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، أي: فأخذناه أخذًا شديدًا بليغًا ثقيلًا، وعاقبناه عقابًا أليما، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وفي ضمن هذا الخبر من الله عز وجل تحذير للمشركين من أهل مكة وغيرهم ممن كذّب محمدًا ﷺ وهو أفضل الرسل أن يحل بهم ما حل بفرعون من الأخذ الشديد والنكال العظيم، حين كذب موسى عليه السلام، بل بعذاب أشد من ذلك كيف؟ وقد كذبوا أفضل الرسل وسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ الاستفهام فيه معنى التعجب، و«يوما» مفعول لـ «تتقون»، أي: فكيف تجعلون لكم وقاية إن كفرتم من عذاب يوم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٨٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٠، وأبو داود في العلم ٣٦٦٨، والترمذي في التفسير ٣٠٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٤.

يجعل الولدان الصغار شيبًا، يعني يوم القيامة.

وقيل: «يومًا» معمول لـ«كفرتم»، أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، أي: كذبتم به، وأنكرتم البعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه «الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

ونكّر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم؛ لشدة أهواله، أي: يومًا عظيمًا ثقيلًا، هوله شديد، وشره مستطير، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى في مدح الرجال المسبحين بالغدو والآصال ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

وقال تعالى في وصف المكذبين: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

ومعنى قوله: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، أي: يشيب من شدة أهواله الولدان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: من كم يارب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد» فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ، ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في سننه - باب القدر ٤٦٩٥، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في الإيمان ٦٤.

«إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم»(١).

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، أي: السماء منشق بسبب شدة أهوال ذلك اليوم، أو السماء منشق في ذلك اليوم؛ لشدة أهواله.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾، أي: كان وعد هذا اليوم واقعًا متحققًا لا محالة ولا بد، ويمكن أن يعود الضمير إلى الله عز وجل، وهو وإن لم يذكر قريبًا إلا أنه معلوم، والمعنى عليه صحيح، أي: كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعًا لا محالة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، أي: تذكير وموعظة وعبرة لمن يتذكر ويتعظ ويعتبر وينزجر، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا موصلًا إليه باتباع رسوله ﷺ، ووحيه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وذلك ممن شاء الله هدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٣، وقال ابن كثير: «حديث غريب».

**الفوائد والأحكام:**

١- تقوية الله عز وجل لقلب النبي ﷺ بأمره بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجرًا جميلًا، لا جزع فيه ولا قلق، وترك أمرهم إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين للرسول ﷺ وبيان عظم ما أعد لهم من الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم، في يوم شديدة أهواله، فيه ترجف الأرض والجبال وتتحول الجبال كثيبًا مهيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾.

٣- أن التنعم والترف من أسباب الطغيان ورد الحق وتكذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾.

٤- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.

٥- إثبات القيامة وأهوالها والحساب والجزاء.

٦- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، وشهادته على أمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾.

٧- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون ومعصية فرعون ومكابرته وأخذه أخذًا شديدًا وإغراقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾.

٨- تخويف الكافرين والمكذبين وتحذيرهم من عذاب يوم عظيم يشيب من هوله الولدان وتنفطر به السماء وهو آت لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾.

٩- إثبات أن هذه السورة وهذه الآيات تذكير وموعظة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾.

١٠- إثبات المشيئة للإنسان فإن شاء سلك الطريق المؤدي إلى ربه طريق السعادة والنجاة، وإن شاء سلك غيره من السبل المؤدية إلى الهلاك وفي هذا الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

١١- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أمرَ الله عز وجل نبيه ﷺ في مطلع السورة بقيام الليل وأوجبه عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ وجوب ذلك تخفيفًا عليه ﷺ وعلى أمته في هذه الآية، بعد أن قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا كاملًا، كما جاء ذلك في حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

وهذه الواقعة تعد من أصح وقائع النسخ في القرآن الكريم عند جمهور المفسرين والأصوليين والفقهاء[(٢)].

قوله: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بفتح الفاء والثاء وضم الهاءين.

وقرأ الباقون بكسرهما: «ونصفِهِ»، «وثُلُثِهِ».

ومعنى ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أقل من ثلثي الليل، وهو ما بين النصف والثلثين ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾، أي: وتقوم تارة نصف الليل، وتارة ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، أي: ويقوم هذا القيام جماعة من الذين معك من المؤمنين.

وهذه التقديرات الثلاثة هي التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ في قوله في مطلع السورة ﴿ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾، أي: نصف الليل، أو انقص منه قليلًا في حدود ما بين النصف إلى الثلث، أو زد على النصف في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

قال ابن كثير[(٣)] في كلامه على قوله: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ

(١) سبق تخريجها في الكلام على مطلع السورة.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٢٩.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٨٤.

﴿وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾، «أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم».

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: والله يقدر طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما، فتارة يطول الليل وينقص النهار، وتارة يطول النهار وينقص الليل، وتارة يعتدلان.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ الضمير في «تحصوه» يعود إلى ما أمر الله به من قيام الليل إلا قليلًا نصفه أو النقص منه قليلًا أو الزيادة عليه.

والمعنى: علم الله عز وجل أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظرًا لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطيقوا قيامه على التمام.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ التوبة في اللغة: الرجوع، أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: فقوموا ما تيسر من قيام الليل، واتركوا ما تعسّر وشق عليكم، وعبر عن قيام الليل وصلاة ما تيسر منه بقراءة ما تيسر من القرآن؛ لأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ولا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ولهذا ليس في قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ دليل لمن قال إنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة؛ لأن المقصود بذلك ما هو أعم من القرآن وهو قيام الليل والصلاة فيه، مع الأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى

انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو، ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان»[(١)].

وعنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرًا يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيما، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: «أيها الناس اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ٤٠، ٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٣) سبق تخريجه.

على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فوسع الله- ولله الحمد- ولم يضيق»(١).

فنسخ الله عز وجل بهذه الآية وجوب قيام الليل الذي أوجبه على المؤمنين في أول هذه السورة، وصار قيام الليل- ولله الحمد- سنة وليس بواجب كما في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفهم ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟، قال: «لا، إلا أن تطوع» الحديث(٢).

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

في هذا بيان الحكمة والعلة والسبب في نسخ حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب وهو هذه الأعذار.

وفي هذا دليل على أن أحكام الله عز وجل معللة ولحكم عظيمة.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، أي: علم الله عز وجل أنه سيكون منكم أيها المؤمنون من اعتلت صحتهم بسبب المرض فيشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فليصلوا ما تيسر لهم وسهل عليهم، قيامًا أو قعودًا أو على جنوبهم إن شق عليهم القيام، ولهم أجر القائم، فإن لم يستطيعوا فلهم أجر ما كانوا يعملون في الصحة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسافرون في الأرض والضرب في الأرض هو السير والسفر فيها.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يطلبون من رزق الله الواسع؛ ليستغنوا عن الخلق فخفف الله عنهم، وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٠- ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان- الزكاة في الإسلام ٤٦، ومسلم في الإيمان- بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨.

الرزق، والاستغناء عن الخلق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يقاتلون الكفار؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[١].

أي: فيمنعهم ويشغلهم ذلك عن قيام الليل.

ولم يكن القتال شرع بعد؛ لأن السورة كلها مكية، والقتال إنما شرع بالمدينة، وهذا من أعظم دلائل وأعلام نبوته ﷺ.

فهذه الأعذار الثلاثة: المرض، والسفر لطلب الرزق، والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب، بل إن الله عز وجل خفف عنهم في الصلاة المفروضة فأباح لهم القصر والجمع، بل أباح للمريض والخائف أن يصلي حسب حاله.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وكرر- والله أعلم- للامتنان على المؤمنين بالتخفيف عنهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب قيام قليل من الليل، وبخاصة على أهل القرآن لقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وعن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاتكم المكتوبة، ولكن سنّ رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فليس منا»[٣].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوتر حق، فمن لم

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة استحباب الوتر ١٤١٦، والنسائي في قيام الليل- الأمر بالوتر ١٦٧٥، والترمذي في الصلاة ٤٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة- ما جاء في الوتر ١١٦٩، وأحمد ١/ ١١٠، ١٤٣، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب فيمن لم يوتر ١٤١٩، وأحمد ٥/ ٣٥٧.

يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»[(٢)].

فقيل: معناه نام عن المكتوبة، وقيل: نام عن قيام الليل.

والراجح الذي عليه جمهور أهل العلم أن قيام الليل مستحب وليس بواجب لقوله ﷺ للرجل الذي سأله لما بين له وجوب الصلوات الخمس، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[(٣)].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لما خفف الله عن المؤمنين ونسخ وجوب قيام الليل إلى الاستحباب أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلوات المفروضة الواجبة وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي هذا إشارة ودلالة على وجوب الاهتمام والعناية بالفرائض والواجبات وأنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مخصوصة مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس المفروضة، أي: وأقيموا الصلاة الواجبة.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أعطوا الزكاة في أموالكم لمستحقيها، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة وفي الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص، وهو الحول.

وسميت الزكاة بهذا الاسم، لأنها تزكي المال وتزيده نماء، وتزكي نفس صاحب المال من البخل والشح، وتزكي نفس الفقير المعطى منها، فيسلم من الحقد والضغينة على

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٠، ومسلم في صلاة المساوين وقصرها ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٣) سبق تخريجه.

الأغنياء، ويسلم من البحث عن المال بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»(١).

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد نسخ وجوب قيام الليل إشارة وتنبيه إلى تعظيم أمر الواجبات وبالأخص الصلاة والزكاة؛ ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه»(٢).

ولما سأل الأعرابي النبي ﷺ، وقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» فقال هل عليّ غيرها، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: والذي بعثك بالحق نبيًا لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: «أفلح إن صدق» وفي رواية «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»(٣).

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الزكاة فرضت بمكة لكن مقادير أنصبتها والمخرج منها لم يبين إلا بالمدينة.

والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم، وهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وهي عمود الإسلام،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨- من حديث طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه.

والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أمر الله عز وجل بقيام الليل استحبابًا، وبإقامة الصلاة وجوبًا، وأتبع ذلك بالأمر بإعطاء الزكاة وجوبًا، والقرض الحسن والصدقة استحبابًا فجمع في هذه الآيات بين الأمر بالصلاة الواجبة والمستحبة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة وهذا يقوي ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن قيام الليل مستحب وليس بواجب.

وقوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: تصدقوا وأنفقوا في سبيله يثبكم على ذلك.

والقرض في الأصل: ما يعطيه الإنسان؛ ليقضاه من غير زيادة ولا مرابحة.

والله عز وجل غني عن خلقه ليس بحاجة أن يقرضوه بل كل ما هم فيه من النعم منه، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنما سمى الله عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله قرضًا ترغيبًا في ذلك وبيانًا لتكفله عز وجل التام بجزاء ذلك والإثابة عليه كما يلتزم المقترض برد القرض، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة: ١٠٤].

بل إنه عز وجل يضاعف ثواب ذلك أضعافًا كثيرة، كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتسابًا لله عز وجل، وبطيب نفس، وعدم منٍّ على المُقْرَض، ولا أذى له، ومن كسب حلال.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

بعدما أمر الله عز وجل بقيام الليل، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والقرض الحسن رغب وحث على فعل الخير عمومًا، وهذه الجملة معترضة بين قوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ الواو: اعتراضية، و«ما»: شرطية، أي: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ بين يديكم وأمامكم ليوم القيامة.

﴿مِّنۡ خَيۡرٍ﴾، أي: من صدقات ونفقات في سبيل الله ومن الطاعات وأنواع البر.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا﴾، أي: تجدوا ثوابه عند الله مدخرًا لكم، وخيرًا مما قدمتموه في الدنيا، وخيرًا مما أبقيتموه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»(١).

﴿وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾، أي: وأعظم ثوابًا مما قدمتموه، حيث يجازي سبحانه وتعالى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة

قال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

قال السعدي(٣) رحمه الله بعد كلامه على هذه الآية: «فوأسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه واستغفره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وهو عز وجل ذو رحمة واسعة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وفي الأمر بالاستغفار بعد الأمر بقيام الليل والصلاة والزكاة والقرض الحسن والحث على فعل الخير عمومًا إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد فلا يسلم من تقصير،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٦-٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٦، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٢، والنسائي في الوصايا ٣٦١٢.

ولا يخلو عمله من نقص، وقد شُرع الاستغفار في نهاية الأعمال كالصلاة والحج وغيرهما، وفي نهاية الأعمار؛ لأنه يُرقِّع ما حصل فيها من نقص لا يكاد يسلم منه أحد.

**الفوائد والأحكام:**

١- تشريف الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بخطابه، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢- نسخ وجوب قيام الليل؛ لعلمه عز وجل وهو الذي يقدر الليل والنهار أن الرسول ﷺ ومن معه وأمته لا يستطيعون القيام به ولا إحصاءه وضبطه كما فرضه الله في أول السورة لاختلاف تقدير الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣- مراعاة التشريع الإسلامي أحوال المكلفين وقدراتهم.

٤- حكمة الله تعالى في تقدير الليل والنهار.

٥- استحباب قيام ما تيسر من الليل وقراءة ما تيسر من القرآن فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾. والسنة في هذا أن ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[1].

٦- أن أعظم ما في قيام الليل قراءة القرآن؛ لهذا أطلق قراءة ما تيسر من القرآن على القيام.

٧- أن من الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل وجعله مندوبًا بقدر ما تيسر: مراعاة حال المرضى، والمسافرين في الأرض؛ لابتغاء الرزق من الله، والمقاتلين في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٨- أهمية طلب الرزق لتقديمه في الذكر على القتال في سبيل الله.

٩- تأكيد نسخ وجوب قيام الليل وبقائه على الاستحباب لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا

(١) كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وقد سبق تخريجه.

تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

١٠- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١١- تعظيم أمر الواجبات في الإسلام. والترغيب في النوافل.

١٢- الحث على الصدقة والإنفاق والترغيب في ذلك بتسميته قرضًا وأن يكون ذلك خالصًا لوجه الله عز وجل وبطيب نفس وبلا من ولا أذى، ومن كسب حلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

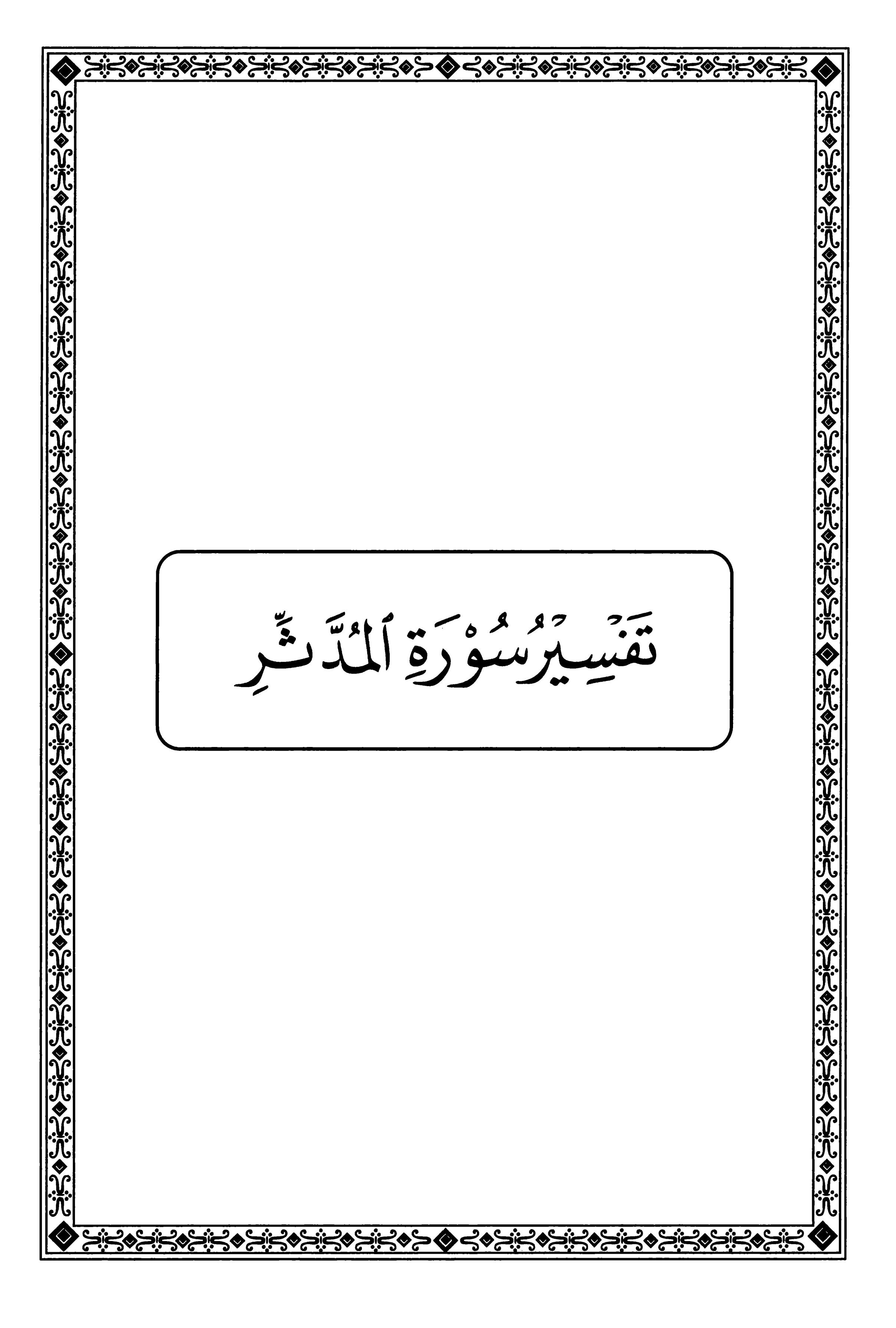
١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وأن ما قدمه المرء لنفسه اليوم من خير يجد ثوابه عند الله عز وجل مضاعفًا أضعافًا كثيرة، وخيرًا منه، وفي هذا ترغيب في التطوع في سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

١٤- تكلفه- عز وجل- بمضاعفة جزاء من قدم خيرًا لنفسه لقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾؛ ولهذا سماه: «أجرًا»، كما سمى الصدقة والإنفاق في سبيل الله «قرضًا». وفي هذا كله ترغيب في القرض، وتقديم الخير.

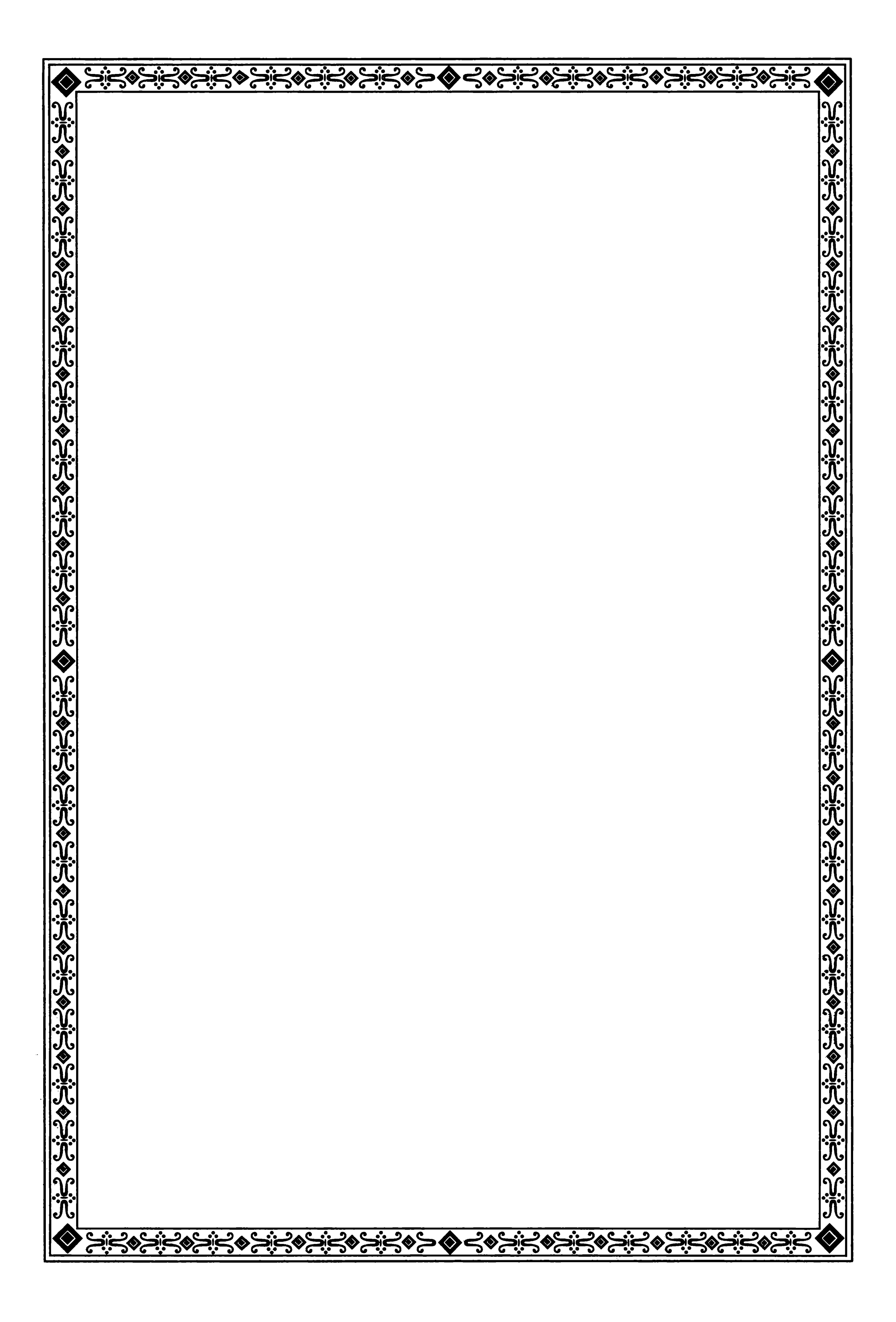
١٥- وجوب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٦- إثبات صفة المغفرة التامة والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُدَّثِّرِ



## المقدمة

### أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المدثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١﴾.

### ب- مكان نزولها:

مكية. وهي ثاني سورة نزلت بعد «سورة العلق».

### جـ- موضوعاتها:

١-افتتحت السورة بندائه ﷺ بوصف المدثر، وأمره بالإنذار، وعبادة الله تعالى، وغير ذلك من الوصايا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ٧﴾.

٢- وعيد الكافرين بيوم القيامة وشدته وعسره عليهم: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتهديد الوليد بن المغيرة بسقر وشدتها، وذمه؛ لشدة عناده لآيات الله، ووصفه لها بالسحر، وأنها قول البشر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾.

٤- بيان أنه عز وجل ما جعل أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعل عدتهم إلا فتنة للذين كفروا؛ ليستيقن أهل الكتاب صدق ما جاء في كتبهم وصدق القرآن، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ٣١﴾.

٥- التذكير بالنار وصفاتها والتحذير منها، وبيان الناجين منها، وصفات أهلها: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)﴾.

٦- بيان أن القرآن تذكرة وعظمة لمن شاء أن يتذكر ويتعظ: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

**سبب النـزول:**

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: «أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿فَٱهْجُرْ﴾ » قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع»[1].

وفي رواية عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتًا» وذكر نحوه[2].

فقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله في الرواية الثانية: «ثم فتر الوحي عني فترة» يتفق مع ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي من أن أول سورة أنزلت هي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[3].

وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف.

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه القول بأن أول سورة نزلت سورة المدثر فعن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٥٤، ومسلم في الإيمان- بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦١، والترمذي في التفسير ٣٣٢٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠١.

(٢) أخرجها أحمد ٣/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وسيأتي ذكر الحديث بلفظه في تفسير سورة العلق.

القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني. وصبوا عليَّ ماء باردًا، قال: فدثَّروني وصبوا علي ماء باردًا قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾»[1].

وهذا محمول على أنه أول ما أنزل عليه في شأن الرسالة؛ ولهذا يقول أهل العلم: نُبِّئ بـ«اقرأ»، وأرسل بـ«المدثر».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ صدّر عز وجل هذه السورة بالنداء تنبيهًا وتعظيمًا.

و«المدثر» المتلفف بثيابه، المتغطي بها كالمزمل، والمراد به النبي ﷺ.

﴿قُمۡ﴾، أي: قم وانهض بنشاط وشمر عن ساعد الجد وعن ساق العزم.

﴿فَأَنذِرۡ﴾، أي: فخوف وحذر الناس من عذاب الله عز وجل، آمرًا وداعيًا لهم إلى فعل وقول ما ينجيهم من عذاب الله، والبعد عما يعرضهم لعقاب الله.

وبهذا حصل الإرسال له ﷺ فنبىء ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾، أي: فعظمه وكبره بقولك: الله أكبر وعبادته، وادع الناس إلى تعظيمه وعبادته وتكبيره.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾، أي: طهر بدنك وثيابك من الأحداث والنجاسات الحسية بالماء، وطهر بدنك وقلبك وخلقك من الذنوب والمعاصي والآثام والنجاسات المعنوية بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، وحِل الملبس والمأكل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٢٢، ومسلم في الإيمان ١٦١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٢- ٤٠٣.

«لا تلبسها على معصية ولا غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبستُ ولا من غدرة أتقنع»[(١)]

وقال الآخر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل[(٢)]

أي: فكل خلق يتخلق به جميل.

وقال الآخر:

أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ ... فسُلي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[(٣)]

أي: فاستخرجي قلبي من قلبك.

وقال الآخر:

رموها بأثواب خفاف ولا ترى ... لها شبهًا إلا النعام المنَفَّرا[(٤)]

أي: رموها يعني الرِّكاب بأبدانهم.

وقال الآخر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[(٥)]

يعني بـ «ثيابه»: نفسه.

قال ابن القيم[(٦)]: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق».

---

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٥، وصاحب «اللسان» في مادة «طهر».

(٢) البيت لدكين بن رجاء. انظر «الشعر والشعراء». ٢/ ٦١٢.

(٣) هذان البيتان من معلقة امرئ القيس انظر «ديوانه» ص٣٧ طبعة بيروت.

(٤) البيت ينسب للشماخ. انظر: «تهذيب اللغة» ١٥/ ١٥٤، وهو في «ديوان ليلى الأخيلية» ص٧٠.

(٥) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص٨٢، والبيت فيه: «بالرمح الطويل». وانظر: «مجاني الأدب» ٦/ ١٩٩، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٥٥، ٥٧، ٥٨.

وذكر أقوال السلف في المراد بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فمن قائل: المراد بثيابك قلبك أو أخلاقك، ومن قائل: ثيابك طهرها من النجاسة الحسية والمعنوية بكونها من مكسب حلال، وغير ذلك من الأقوال ثم قال: «الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك».

ويدل على هذا العموم- والله أعلم- جمع «ثيابك» فلو أريد البدن وحده، أو القلب وحده، أو غير ذلك لقال: «وثوبك فطهر».

﴿وَالرُّجْزَ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء: ﴿وَالرُّجْزَ﴾.

وقرأ الباقون بكسرها: «والرِّجز».

والرجز: الأصنام والأوثان والشرك والمعاصي.

﴿فَاهْجُرْ﴾، أي: فاتركها وادع إلى تركها.

ولا يلزم من هذا تلبسه ﷺ بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: ولا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من معروف.

﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: تستكثر ما أسديت إليهم، وترى لك الفضل عليهم، أو تطلب منهم أكثر مما أسديت إليهم.

أي: أنه ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أيًا كان لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

قال السعدي[1]: «بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وَانْس عندهم إحسانك واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء».

وأيضًا: ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، أي: ولا تدل على ربك بعمل عملته؛ ولهذا قال ﷺ: «لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٩.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

وفي قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له تلك الرمانة ينزل كل يوم من صومعته فيأخذ منها لما قال الله عز وجل: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: لا يا رب، بل بعملي. فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر الذي أعطاه الله إياه. فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، أدخلني الجنة برحمتك فأدخله الجنة برحمته سبحانه(٢).

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعامًا، فلما أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم سحر يؤثر، فأجمع أمرهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه، وتدثر، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾»(٣).

ومعنى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾، أي: اصبر ابتغاء وجه ربك على طاعة الله عز وجل وتبليغ الرسالة، وعلى ما تلاقي من أذى في سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

وفي هذا شد لأزره ﷺ وتقوية لقلبه كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في شفاء العليل ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٨.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور والقرن بأمر الله عز وجل لقيام الناس من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[1].

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ ﴾، أي: يوم ينفخ في الصور.

﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أي: يوم شديد عظيم ثقيل لكثرة أهواله وشدتها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، أي: على الكافرين خاصة غير سهل، وفي هذا تخصيص لعسره بأنه على الكافرين خاصة، وتأكيد لشدة عسره؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها فوصف هذا اليوم بالعسر، ثم نفى عنه اليسر على الكافرين خاصة كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

وذلك؛ لأنهم قد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويفهم من قوله: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾: أنه يسير على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١٨- ٤١٩.

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قيل لرسول الله ﷺ«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[١]

**الفوائد والأحكام:**

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فقد نبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

٣- وجوب الدعوة إلى الله- عز وجل- وتكبيره، وتعظيمه وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك والطهارة من النجاسات المعنوية والحسية في القلب والبدن واللباس، عليه ﷺ وعلى أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

٤- لا يجوز أن يمن الإنسان بعمله أو يدل على ربه، كما لا يجوز أن يمن بما أعطى؛ طلبًا للاستكثار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

٥- وجوب الصبر ابتغاء وجه الله على طاعته عز وجل، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ومن ذلك ما يلاقيه ﷺ في سبيل دعوته إلى ربه، وكذا الدعاة إلى الله عز وجل من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- له ﷺ تشريفًا له وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

٧- إثبات البعث والنفخ في الصور، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وما فيه من العسر الذي لا يسر معه على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

٨- يسر يوم القيامة وخفته على المؤمنين لمفهوم قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾.

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالصبر على أذى المشركين والكافرين وتوعدهم بالقيامة وما فيها من الشدة والعسر عليهم، ثم خص بالوعيد والتهديد في هذه الآيات أحد صناديدهم فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات.

**سبب النزول:**

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما خرج على قريش، قال: يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصْبُوَنَّ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالًا وولدًا؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه.

فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله، لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله: ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾»(١).

وقال قتادة: «زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩- ٤٣٠، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٠.

وعن عكرمة: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لم؟، قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قِبلَه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنك منكر لما يقول، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله لا يشبه الذي يقول شيئًا من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدا حتى بلغ ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾»(١).

قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾، أي: دعني واتركني والذي أوجدته وأخرجته من بطن أمه وحيدًا فريدًا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا عشيرة.

والمعنى: اترك أمره وعقابه وعذابه إلي، فأنا أكفيكه، فلا تباله.

والمراد بذلك الوليد بن المغيرة، كما دل على ذلك سبب النزول. وقد توعده الله عز وجل وعيدًا شديدًا، وهدده تهديدًا أكيدًا، وذمه ذمًا لم يذم به غيره؛ لشدة عناده واستكباره عن قول الحق.

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾، أي: مالًا كثيرًا واسعًا.

﴿وَبَنِينَ﴾، أي: وجعلت له أولادًا ذكورًا.

﴿شُهُودٗا﴾: حضورًا عنده على الدوام لا يفارقونه، يقومون بخدمته وحاجاته ويستنصر بهم، ويفتخر بهم، ويأنس بوجودهم بجانبه، ويتمتع ويتملى بهم ويتزين، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل كانوا عشرة، وقيل غير ذلك.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾، أي: مكنته من الدنيا، ويسرت له أسباب الحياة والعيش

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥٠٧، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١ / ٥٥٦.

وهيأتها له.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، أي: ثم هو يطمع أن أزيده على ما جعلته له من المال الممدود والبنين الشهود، والتمهيد، والعيش الرغيد، أي: يطمع في الزيادة على ذلك في الدنيا، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّآ﴾: كلمة ردع وزجر، أي: ردع له وزجر ونفي أن يزاد على ما عنده، أي: ليس الأمر كما يطمع، ثم علل لذلك بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، أي: كلا لن أزيده؛ لأنه كان لآياتنا، أي: للقرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات ﴿عَنِيدًا﴾، أي: شديد المعاندة والجحود لآياتنا بعد أن عرفها.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، أي: سأُكلفه وأُحمله عذابًا شاقًا نفسيًا وبدنيًا، حسيًا ومعنويًا، في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالكافر في دنياه وآخرته في مشقة وعذاب نفسي وبدني وأشد ذلك عذاب النار كما قال عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ الآيات.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يصعّد فيه الكافر سبعين خريفًا، ويهوي فيه كذلك أبدًا»(١).

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾، أي: إنما أرهقناه صعودًا؛ لأنه ﴿فَكَّرَ﴾، أي: تروَّى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن، وبماذا يصفه.

﴿وَقَدَّرَ﴾، أي: وقدّر ما فكّر فيه؛ ليقول قولًا يبطل به القرآن، أو قدر ما يقول في القرآن.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٣، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾، أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر القول فيه، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وذلك؛ لأنه قدّر أمرًا ليس في طوره، وتسوّر على ما لا يناله هو وأمثاله، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

و«كيف»: اسم استفهام: للإنكار، أي: ثم لعن كيف قدر هذا التقدير الباطل، أو ثم لعن في أيِّ تقدير أو على أيِّ تقدير قدره.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، أي: تأمل وأعاد التفكر والتروي فيما يقول في القرآن.

وهذه الآية أقصر آية في القرآن الكريم.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه، وقبض ما بين عينه.

﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في العبوس وكلح وجهه، نفرة من الحق وكراهة وبغضًا له.

قال الشاعر:

**وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها**(١)

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ﴾، أي: رجع على عقبه ودبره، وتولى ببدنه.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾، أي: تعاظم بقلبه عن الانقياد للقرآن. وهذا حصيلة ما قاده إليه تفكيره وتقديره السيء، وسوء قصده، ونظره القاصر، وكراهته للحق وبغضه له أن تولى عن الحق واستكبر عن الانقياد له وتقوّل فيه الأقاويل.

﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما» في الموضعين، أي: ما هذا إلا سحر يؤثر.

أي: ينقله السحرة بعضهم عن بعض، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة، وحكاه عنهم.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، أي: ما هذا إلا قول البشر، وليس هذا بكلام الله.

---

(١) البيت لتوبة بن الحُمَير. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٥، «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٨، «الأمالي» ١/ ٨٨.

فتبًّا لمن تجرأ على وصف كلام الله عز وجل أعظم كلام وأبلغه، بالسحر، وشبهه بكلام البشر، وسحقًا له وبعدًا، فما أعظم خسارته، وما أشد عذابه؛ ولهذا اتوعده الله تعالى بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾: وعيد وتهديد له، أي: سأدخله سقر، أي: النار، وأغمره فيها من جميع جهاته ليقاسي شدة حرها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾: تعظيم وتهويل لشأنها وتفخيم لأمرها، أي: وما أعلمك ما سقر حرها شديد وقعرها بعيد، وخطرها جسيم، وهولها عظيم.

ثم بين عز وجل شيئًا من وصفها فقال:

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾، أي: لا تبقي ولا تترك شيئًا من بدن المعذب، ولا مما يلقى فيها إلا أكلته وأحرقته ولا تبقي من الشدة شيئًا إلا بلغته، قد بلغت من الشدة غايتها، ومن الأبدان جميعها.

والمعذبون فيها مخلدون لا يموتون ولا يحيون، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، أي: تلوح وتلفح وتحرق بشر وجلود المعذبين فيها بلهبها ولظاها وشدة حرها وقرِّها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، أي: عليها من الزبانية الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيب أهل النار ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

قال ابن كثير(١): «أي: من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خُلُقهم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غُلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء»؟، قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال رسول الله، عليّ بأعداء الله،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٢.

لكن سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة»[(١)].

**الفوائد والأحكام:**

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه المكذبين والمعاندين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وأن يترك أمرهم إلى الله- عز وجل.

٢- تهديد الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم الله عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤)﴾.

٣- أن المال والبنين والجاه من أسباب الطغيان والفتنة في الدين، كما قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٤- زجر هذا المعاند وتيئيسه من الزيادة، وأن الكفر والذنوب والمعاصي أعظم سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٥- بيان ما أعده الله لهذا المعاند لآياته من العذاب الشاق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾.

٦- جرأة الوليد بن المغيرة على الله عز وجل وتكلفه فيما يصف به القرآن وتمحله في ذلك وتقعره في تفكيره وتقديره وشدة إدباره عن الحق واستكباره حتى زعم أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾.

٧- الوعيد للوليد بن المغيرة بإصلائه النار وغمره فيها، ولعنه وإهلاكه؛ لقوله

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٦١، وأخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٤، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾.

٨- تعظيم هول سقر وهي النار، وبيان شدة عذابها، وأن عدة خزنتها تسعة عشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾.

أي: وما جعلنا خزنة النار القائمين على تعذيب أهلها إلا ملائكة، ليسوا بشرًا ضعافًا يغلبون، بل هم ملائكة غلاظ القلوب، شداد الخلقة، لا يغالبون، كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: وما جعلنا عددهم تسعة عشر وأخبرنا بذلك ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: إلا لامتحان وابتلاء الذين كفروا. حتى تجرأ أبو جهل فقال: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم»؟(١).

وقال أبو الأشدين- كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر»(٢).

وعلى هذا فيكون المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا ابتلاءً وامتحانًا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لنعلم من يُصدِّق ممن يُكذِّب. ويدل على هذا قوله بعد ذلك: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

ويحتمل أن المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا لعذاب الذين كفروا وعقابهم في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُعذَّبون.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اللام: للتعليل، و«يستقين» أبلغ من «يتيقن»، أي:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦- ٤٣٧.

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩٤. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٤.

لأجل أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الموجودين أيام بعثته ﷺ أنما جاء به ﷺ حق من عند الله- عز وجل؛ لموافقته ما جاء في كتبهم التوراة والإنجيل في عدة خزنة جهنم، وأنهم تسعة عشر.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، أي: ولأجل أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا، وذلك من وجهين:

**الأول**: بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ، وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله.

**والثاني**: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ولأجل أن لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أن عدة أصحاب النار من الملائكة تسعة عشر.

وهذه الجملة على هذا المعنى مقررة ومؤكدة للجملة قبلها؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها. وقد يكون نفي الريب محمولًا على نفي الريب عن عموم ما أخبر به الرسول ﷺ فيكون المعنى، أي: ولا يقع في قلوبهم ريب ولاشك في أن ما جاء به الرسول ﷺ حق وصدق.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: ولأجل أن يكون ذلك سببا في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المكذبون، ليقولوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلًا، أي: بهذا المثل.

فأخبر عز وجل أن الحكمة التي جعل لأجلها عدة خزنة النار تسعة عشر: فتنة للذين كفروا وابتلاءً واختبارًا لهم، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ولزيادة إيمان المؤمنين، ولانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، ولزيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين.

قال ابن القيم[1]: «وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة،

---

(١) في «بدائع التفسير» ٥/ ٥٩.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به».

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ الكاف: حرف تشبيه، بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، والإشارة لما سبق في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾.

أي: مثل هذا الابتلاء والإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يضل الله من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله.

قال ابن كثير[1]: «أي :من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

وليس في هذا ما يتعلق به من يفعل المعاصي ويحتج بالقدر؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا قدر له.

وقد بين الله- عز وجل- طريق الحق وأمر باتباعه، وبين طرق الباطل ونهى عن اتباعها. وقد قال ﷺ «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: وما يعلم عدد جنود ربك يا محمد وكثرتهم وشدة خُلْقهم، وغلظة خُلُقهم من الملائكة وغيرهم إلا هو سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل:

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أي: إذا كان عز وجل أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة فيجب تصديق خبره من غير شك ولاريب، وأيضًا فإن جنوده- عز وجل- لا يحصون عددًا وكثرة- كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح: ٧].

وقال ﷺ- في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة-: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط(٢) ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات(٣) تجأرون إلى الله- عز وجل» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد(٤)»(٥).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، ولاكف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئًا»(٦).

﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: النار.

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: هذه الآيات في وصف النار ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾، أي: تذكير ووعظ لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨- من حديث مالك بن صعصعة- رضي الله عنه.

(٢) تئط، أي: قد أثقلها ما عليها من الملائكة.

(٣) الصعدات: الطرق

(٤) أي: تقطع.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢٣١٢، وابن ماجه في الزهد- باب الحزن والبكاء ٤١٩٠.

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١٦٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٩٥.

﴿كَلَّا﴾: حقًا، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية.

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«القمر» مقسم به مجرور.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾: معطوف على ما قبله. قرأ نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ بإسكان الذال من غير ألف بعدها، و﴿أَدْبَرَ﴾ بهمزة مفتوحة مع إسكان الدال بعدها.

وقرأ الباقون: «والليل إذا دبر» بألف بعد الذال، و﴿دبر﴾ بفتح الدال من غير همزة قبلها. ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾: ولى وذهب.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، أي: أشرق وأضاء وانكشف.

فأقسم عز وجل بالقمر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤)﴾؛ لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة، الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته، وعنايته بخلقه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾: جملة جواب القسم، ﴿إِنَّهَا﴾، أي: النار لإحدى العظائم الكبار، والدواهي العظام.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ نذيرًا: حال، أي: تخويفًا وتحذيرًا للبشر، وهم بنو آدم، وهي أيضًا نذير للجن؛ لأنهم مكلفون.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾، أي: لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم إلى الأمام، فيعمل لما خلق له، فيخاف ويحذر، ويؤمن بالله ويعمل صالحًا، ويستعد لما أمامه بطاعة الله.

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عما خلق له فلا يخاف ولا يحذر، بل يتولى ويعرض ويرتكب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا معنى المسارعة والمسابقة والمنافسة واستباق الخيرات الذي أمر الله- عز وجل- به في أكثر من آية. وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وفي الحديث: «فإنه لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله- عز وجل»[١].

وقال الشاعر[٢]:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

**الفوائد والأحكام:**

١- بيان أن أصحاب النار التسعة عشر الموكلين عليها إنما هم ملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

وفي هذا تعظيم لشأنهم؛ وإشارة لشدتهم وغلظتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٢- امتحان الذين كفروا من المشركين والمنافقين وغيرهم وابتلاؤهم في جعل عدة أصحاب النار تسعة عشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية؛ ليتمادوا في تكذيبهم وغرورهم وجرأتهم على الله عز وجل؛ ولهذا قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٣- في ذكر عدة أصحاب النار في القرآن الكريم وأنهم تسعة عشر استيقان لأهل الكتاب لموافقة القرآن لما جاء في كتبهم وعدم شكهم وارتيابهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤- زيادة إيمان المؤمنين بذكر عدة أصحاب النار وعدم شكهم في ذلك لأنهم يسلمون بكل ما جاء من عند الله وعلى لسان رسوله ﷺ، ولموافقة ذلك لما جاء في كتب أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه.

٦- إثبات المشيئة لله- عز وجل، وتقديره الهداية والضلال، وأنه عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٩، ٣٤- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) البيتان لابن هانئ،انظر «ديوانه» ص١٤٠.

٧- أن جنود الله كثرة كاثرة، لا يعلم كثرتهم وشدتهم وقوتهم إلا هو سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- له ﷺ وخطابه له تشريفًا وتكريمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾.

٩- تذكير البشر بذكر النار وصفاتها السيئة المخيفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

١٠- إقسام الله – عز وجل – بالقمر والليل إذا تولى وذهب والصبح إذا أقبل وأسفر على أن النار إحدى الفظائع العظام التي يخوف الله بها البشر. ولله أن يقسم بما شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾.

١١- أن الغاية من الإنذار إقامة الحجة على الخلق، والإعذار منهم؛ ليتقدم منهم من شاء أن يتقدم بالإيمان والعمل الصالح، وليتأخر منهم من شاء أن يتأخر بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٢- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ وفي هذا رد على الجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: كل نفس بالذي كسبت، أو بكسبها من خير أو شر، ﴿رَهِينَةٌ﴾، أي: مرتهنة، عند الله- عز وجل- موقفة.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهذا يشمل أصحاب اليمين والسابقين المقربين؛ لأن كل سابق مقرب هو من أصحاب اليمين، لا العكس.

أي: إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون بما كسبوا، بل هم طلقاء، فرحون.

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١)﴾ [الصافات: ٣٩- ٤١].

وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، أي: في بساتين في دار النعيم التي أعدها الله لهم، فيها تمام الراحة والطمأنية وكمال المطلوب، لهذا أخذوا يتساءلون عن حال من فاته هذا النعيم ﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يسأل بعضهم بعضًا عن الكفار أرباب الجرائم والذنوب والمعاصي ما حالهم؟ وأين هم؟ فيقول بعضهم لبعض:

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾، أي: عليهم، قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾، «ما»: للاستفهام، أي: سائلين لهم: ما الذي أدخلكم في

سقر؟ أي: في النار، و ما الذنب الذي استحققتموها بسببه؟ و لماذا لم تعملوا للنجاة منها؟ وفي هذا ما فيه من التوبيخ والتبكيت لهم، وإثارة الأسى والحزن في قلوبهم.

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾، أي: قالوا: لأننا لم نكن من المصلين، أي لم نكن نصلي.

﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾، أي: ولم نكن نزكي ونتصدق على المسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة، التي هي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها كفر.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ- يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب- عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله، على ذلك»[(١)].

وعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[(٢)].

وثنَّوا بترك إطعام المسكين، أي: بترك الزكاة. وهي أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم.

فلا إخلاص عندهم في حق المعبود، ولا إحسان منهم للعبيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٥، والترمذي في الصلاة ٤١٣، وابن ماجه في إقامه الصلاة ١٤٢٥ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في ترك الصلاة ٢٦٢٢.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾، أي: وكنا نتكلم في الباطل، وفيما لا نعلم، مع المتكلمين في ذلك، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر وغير ذلك.

ومن هنا ينبغي للمسلم الحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال والغيبة والنميمة وتلقف الإشاعات، ونحو ذلك.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي:نكذب بيوم القيامة يوم الحساب والجزاء وإدانة الناس بأعمالهم، ونزعم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولانار.

فجمعوا بين ترك الصلاة، وعدم الإخلاص للمعبود، وبين منع الزكاة وعدم الإحسان إلى العبيد، و الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ اليقين: الموت، كما قال عز وجل: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

أي: استمرت حالنا على تلك الفعال والأقوال السيئة من ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين، ومن الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم القيامة.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾، أي: حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

عن أم العلاء- امرأة من الأنصار- رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات قال «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»[(١)].

وفي هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين يفسرون اليقين في قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ أن المراد به حتى تصل إلى درجة يرتفع عنك فيها التكليف. والصحيح أن المراد به الموت كما هو في هذه الآية ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، أي: فما تقبل فيهم شفاعة الشافعين، وقد ماتوا على الكفر، وهذا على الفرض والتقدير لو وجد من يشفع لهم مع أنه لا أحد يشفع لهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ١٢٤٣، وأحمد ٦/ ٤٣٦.

وقالوا فيما حكى الله عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣)﴾ [الروم: ١٣].

وقال تعالى عن الشفعاء من الملائكة وغيرهم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والمجرمون أعمالهم لا يرضاها الله- عز وجل، فلا شافع لهم، ولو شفع لهم شافع لم يقبل الله- عز وجل- شفاعته فيهم: لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له. كما قال عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا (١٠٩)﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)﴾ [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ الفاء: استئنافية و «ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم.

أي: فما لهؤلاء الكفرة المجرمين عن التذكرة والموعظة، أي عن القرآن.

﴿مُعْرِضِينَ﴾، أي: معرضين عنها بقلوبهم، متولين عنها بأبدانهم، صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في إعراضهم ونفورهم الشديد عن التذكرة والموعظة.

﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الفاء: «مستنفَرة».

وقرأ الباقون بكسرها: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

وحمر: جمع حمار، يجمع على «حمر» وعلى «حمير» وعلى «أحمرة».

والمراد بها حمر الوحش لوصفها بقوله: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾، أي: نافرة نفورًا شديدًا، ومستنفر بعضها بعضًا.

﴿فَرَّتْ﴾، أي: هربت ونفرت وجفلت، ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من مجموعة من

الأسود تريد أكلها، أو من مجموعة من الرماة يريدون صيدها.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء الكفرة المجرمين أن يعطى وينزل عليه من السماء كتابًا منشورًا خاصًا به، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك- كما أنزل على النبي ﷺ.

كما قال تعالى عنهم ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد كَذَبوا كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر ونفي، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أوتوا صحفًا منشرة ما آمنوا.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: بل لا يخافون ولا يخشون الآخرة، وما فيها من العذاب والأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّآ﴾: ردع لهم وزجر؛ لإعراضهم عن القرآن، ونفي لزعمهم أن القرآن سحر يؤثر، ومن قول البشر.

أو بمعنى: حقًا، أي: حقًا إن القرآن العظيم تذكير وموعظة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: فمن شاء من الناس تذكر واتعظ بمواعظ القرآن.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ نافع المدني بالخطاب: «وما تذكرون».

وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَذْكُرُونَ﴾.

أي: وما يتعظون إلا من شاء الله أن يتعظ منهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]

فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله- عز وجل؛ لأن مشيئة الله عز وجل تامة نافذة عامة لا يخرج عنها أحد فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: هو سبحانه وتعالى- أهل أن يتقى ويُخاف ويُخشى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن يعبد وحده؛ لأنه الإله العظيم الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: وأهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأناب، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

عن أنس- رضي الله عنه- قال: قرأ رسول الله ﷺ- هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهل أن أغفر له»(١).

**الفوائد والأحكام:**

١- أن كل نفس مرتهنة يوم القيامة بعملها ومحبوسة في العذاب بسببه إلا أصحاب اليمين، فلا يرتهنون ولا يحبسون بل هم طلقاء في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

٢- تساؤل أهل الجنة فيما بينهم عن المجرمين وسؤالهم إياهم – تبكيتًا وتوبيخًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ ؟

٣- أن من أعظم الجرائم ومن أكبر موجبات دخول النار ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٤٢، ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٨، وابن ماجه في الزهد- ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٩ وقال الترمذي «حسن غريب»

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

٤- أن الموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

٥- التحذير من ترك الصلاة ومنع الزكاة، والخوض بالباطل، وإنكار البعث والجزاء.

٦- نفي الشفعاء للمجرمين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

٧- شدة إعراض المشركين ونفورهم عن التذكير بالقرآن ومواعظه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

٨- شدة عناد المجرمين، وتكبرهم وتجبرهم وتعنتهم، وطلب كل منهم أن ينزل عليه كتاب خاص به، وتكذيبهم بالآخرة، وعدم خوفهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

٩- إثبات وتحقيق أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

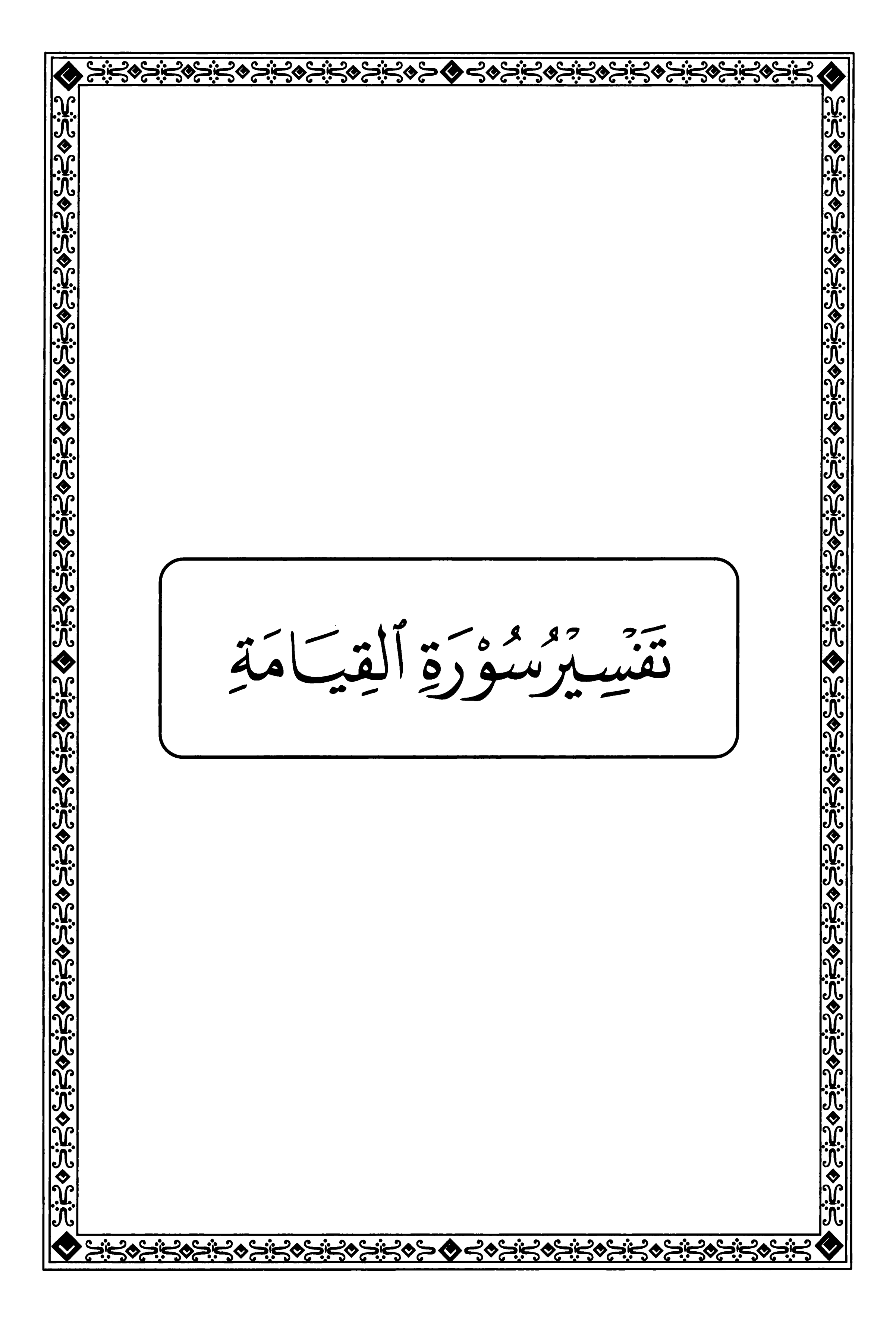
١٠- إثبات المشيئة للعبد لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله.

١١- الحث على التذكر والاتعاظ بالقرآن الكريم.

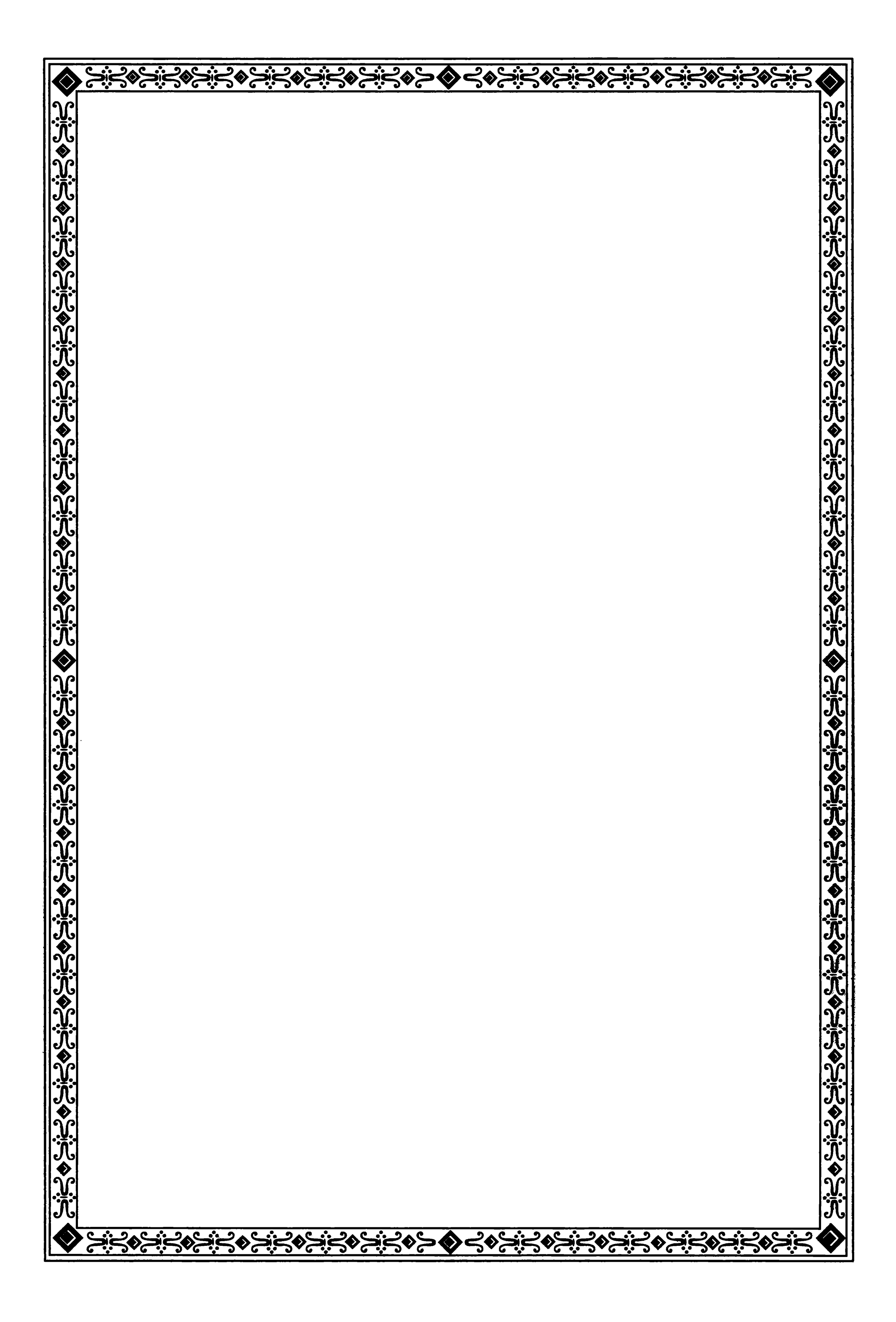
١٢- إثبات المشيئة لله عز وجل، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا رد على القدرية الذين يرون عدم دخول أفعال العباد تحت مشيئة الله تعالى.

١٣- إثبات عظمة المولى عز وجل، وفضله، فهو سبحانه أهل أن يتقى ويخاف فيطاع، وأهل للفضل والتجاوز عن عباده ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلقِيَامَةِ



# المقدمة

**أ- اسم السورة:**

سميت «سورة القيامة» بهذا الاسم؛ لإقسام الله عز وجل بالقيامة في مطلعها بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

**ب- مكان نزولها:**

مكية.

**جـ- موضوعاتها:**

١- أقسم الله تعالى في مطلعها على تمام قدرته على بعث الناس من قبورهم: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾.

٢- التخويف من أهوال يوم القيامة: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾.

٣- نهيه ﷺ أن يحرك بالقرآن لسانه؛ ليعجل به، وتكفله عز وجل بجمعه وقرآنه وبيانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾.

٤- التحذير من محبة الدنيا وترك الآخرة: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ «لا»: في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لنفي المقسم عليه.

قال ابن قتيبة[1]: «فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما نقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول».

وقال ابن كثير[2]: «المقسم عليه متى كان منتفيًا جاز الإتيان بـ«لا» قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد،والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد».

وقال السعدي[3]: «ليست «لا» ههنا نافية ولازائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح».

فأقسم عز وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن البعث وإحياء الموتى حق.

ويوم القيامة- هو يوم بعث الناس من قبورهم، وسُمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا

---

(١) في «تأويل مشكل إعراب القرآن» ص٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٠.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢١.

لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

والنفس اللوامة: أي التي من طبيعتها أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وكل نفس لوامة، فالنفس الخيرة: تلوم صاحبها على فوات الخير أو عدم الاستزادة منه، وتلومه على فعل الشر أو قوله، وتندم على ما فات من خير أو ما وقع من الشر، لو فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وبضدها النفس الخبيثة. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق، فحج آدم موسى»[1].

قال ابن القيم[2]: «وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك. وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها بالخير والشر ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر، مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة».

ولم يذكر جواب القسم، إما لدلالة السياق عليه والعلم به، فقوله بعده: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ يدل على أن المقسم عليه كون البعث وإحياء الأبدان حق.

قال ابن القيم[3]: «ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩ ومسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٢- ٧٣، ٨٤- ٨٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٣، ٧٤.

به وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا».

وقال أيضًا: «فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء».

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، أي: أيظن الإنسان أن لن نقدر على بعثه وجمع عظامه بعد تفتتها وتفرقها وصيرورتها رميمًا، كما قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

رُوِيَ أن عمر بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: «حدثني عن يوم القيامة، متى يكون، وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك، فقال: لو عاينت ذلك لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[(١)].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أي: بلى قادرين على ما هو أدق وأعظم وأدل على كمال قدرتنا، وهو تسوية أطراف أصابعه كما كانت- مع ما فيها من دقة البصمات واختلافها بحيث لا تتشابه بصمات شخص ببصمات شخص آخر- وكذا سائر أطرافه وعظامه. وذلك مستلزم لجمع عظامه وجميع أجزاء بدنه،وأن قدرته- عز وجل على ذلك من باب أولى وأحرى.

وقال بعض المفسرين: المعنى: بلى قادرين على أن نسوي في الدنيا أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار بعد أن كانت متفرقة، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا. وإذا كان عز وجل قادرًا على تسوية وجمع أصابع يدي الإنسان ورجليه في الدنيا بعد أن كانت متفرقة، فهو قادر على جمع عظامه في الآخرة بعد تفرقها بالموت والبلى.

قال ابن القيم[(٢)]: «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده،

---

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي» ص ٢٩٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٤.

ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني- أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت».

وقال ابن كثير(١): «والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿نَّجۡمَعَ﴾، أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه- وهي أطراف أصابعه- مستوية».

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، المراد بالإنسان هنا الكافر. والفجور: الكفر والمعاصي والكذب المتعمد والعناد.

أي: بل يريد الكافر أن يمضي قدمًا في التكذيب والكفر والمعاصي ويدوم على فجوره لا ينزع عنه ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده والاستمرار على ذلك.

ويحتمل أن المعنى: بل يريد الإنسان لِيُكَذِّب بما أمامه من البعث والقيامة؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يسأل متى يوم القيامة مستبعدًا ومكذبًا بوقوعه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ [الذاريات: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾.

---

(١) في تفسيره» ٨/ ٣٠١.

أقسم عز وجل بالقيامة وأنها حق ثم ذكر بعض أهوالها.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بَرَق» بفتح الراء.

وقرأ الباقون: ﴿بَرِقَ﴾ بكسرها.

أي: فإذا كانت القيامة برق البصر، أي: شخص فلا يطرف، وحار وانبهر وذل وخشع لما يشاهد من أهوال القيامة، التي كان يكذب بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾، أي: ذهب ضوؤه ونوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جمع بينهما في تكويرهما، وذهاب ضوئهما.

يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها فصارت رميمًا، ولم يجتمعا قبل ذلك قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

فيخسف القمر، وتكور الشمس، ويقذفان في النار، ليرى العباد أنهما مخلوقان مسخران، وليرى الذين عبدوهما من دون الله أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، أي: يقول الكافر إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة «أين المفر»؟، أي: أين المهرب والخلاص والفكاك؛ يريد أن يهرب ويتخلص من الهول والعذاب، ولكن هيهات.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتهديد، ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا ملجأ ولا منجى ولا ملتجأ لأحد دون الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق مصير الخلائق ومنتهاهم ومرجعهم ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم مهم، و «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: يُخبر الإنسانُ في ذلك اليوم، يوم القيامة، بجميع الذي قدمه من أعمال ونحوها، وبجميع الذي أخره من أعمال ونحوها فلم يعملها، صغيرها وكبيرها خيرها وشرها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، «بل» للإضراب، أي: هو بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة، حسيب على نفسه شهيد عليها، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده ولسانه ويده ورجله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

وكما جاء في حديث تقرير العبد بذنوبه «أتذكر ذنب كذا وكذا، فيقول: نعم يارب»(١).

(١) سبق تخريجه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أتدون مم أضحك؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب: ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ شاهدًا إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام. فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا! فعنكنَّ كنت أناضل!»[(١)].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، أي: ولو ألقى المعاذير وقدمها عن نفسه فهو بصير بها، عالم بأعماله، مهما جادل واعتذر أو أنكر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧].

وكل هذه المعاذير لا تقبل، ومهما اعتذر الإنسان عن نفسه أو أنكر وجادل عنها فهو عالم بأعماله؛ ولهذا يقرر بأعماله فيقر بها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٤] فيقرؤه ولا يستطيع أن ينكر منه شيئًا كما قال المجرمون ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

فالإنسان بصير على نفسه عالم بخفاياها وعيوبها.

ولكنه قد يغفل عن نفسه ويتبصر بعيوب الآخرين، فيكون حاله كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «عجبت من الرجل يفر من القدر، وهو مواقعه، ويرى القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الأدب المفرد» ص٣٠٥، «القضاء والقدر» للبيهقي ص٣٠٩.

وقد أحسن القائل:

**قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى**

**ولو كان ذا عقل لما عاب غيره ... وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى**(١)

وأيضًا فإن الإنسان بما أعطاه الله من عقل وبصر وحنكة يحتال في تدبير أموره وأحواله ما استطاع كما يقال: «الأحدب يعرف كيف ينام» بل إن الحيوانات عندها شيء من التدبير لأحوالها حسب ما أعطاها الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]، أي: هداه لما خلق له، ومن هنا ترى النمل يدخر قوت الشتاء في الصيف، وتغدو الطيور أول النهار خماصا في طلب العيش، وتروح آخر النهار إلى أوكارها مليئة البطون.

**الفوائد والأحكام:**

١- إقسام الله- عز وجل - بيوم القيامة والنفس اللوامة - على أن البعث وإحياء الموتى حق؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، ولله - عز وجل - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢- في إقسامه - عز وجل - بالقيامة تعظيم لشأنها وأمرها، وفي إقسامه بالنفس اللوامة توجيه إلى التأمل في طبيعتها وكثرة تلونها وتلومها، ومن ثم حملها على ما فيه صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

٣- استبعاد المكذبين للقرآن بعث الأجساد وإنكارهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

٤- إثبات قدرة الله - عز وجل - على بعث الأجساد وجمع أجزائها جميعًا مهما دقت، ومن ذلك أطراف الأصابع والبصمات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

٥- رغبة الكافر بالاستمرار على الكفر والفجور وتكذيبه بيوم القيامة وسؤاله عنه استبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

٦- شخوص البصر وحيرته وانبهاره من شدة أهوال يوم القيامة، ومنها خسف

---

(١) انظر: «نفح الأزهار» ص٦٠، «السحر الحلال» ص٨٢.

القمر وجمع الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

٧- طلب الكافر المكذب المفر والمهرب في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، ولكن هيهات لا مفر ولا محيد ولا ملجأ ولا منجى في ذلك اليوم من الله إلا إليه، إليه المستقر والمعاد وهو لجميع الخلق بالمرصاد.

٨- إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾.

٩- إخبار الإنسان في ذلك اليوم بما قدم من أعمال صالحة، وما أخر منها فلم يعمله، وما قدم من أعمال سيئة، ومجازاته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

١٠- أن الإنسان بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأفعاله، حسيب على نفسه شهيد عليها، مهما التمس لها الأعذار وجادل عنها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

**سبب النـزول:**

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه فأنزل الله- عز وجل-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ- كما قرأه»(١)

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾»(٢).

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، «لا» ناهية، والخطاب للنبي ﷺ، والضمير في «به» في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم،وهو غير مذكور- فيما تقدم من السورة، لكنه معلوم.

والمعنى: لا تحرك بالقرآن لسانك؛ لأجل الاستعجال به، وأنصت واستمع لما يلقى إليك منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

وقد كان ﷺ إشفاقًا منه وحرصًا- يبادر إلى أخذه من الملك ويسابقه في قراءته، ويحرك لسانه وشفتيه؛ ليحفظه خشية أن يضيع منه شيء، أو يفوته، فنهاه الله- عز

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥، ومسلم في الصلاة- الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٧.

وجل- عن ذلك وتكفل له بجمعه فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: إن علينا جمعه في صدرك وحفظه فيه، وتيسير قراءته وتلاوته عليك كما أُنزل- كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ⁽٦⁾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، أي: إذا قرأه عليك جبريل عن الله عز وجل، وأكمل قراءته: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، أي: فاقرأه بعده كما أقرأك، فأُمر ﷺ بالمتابعة، ونُهي عن العجلة والموافقة.

والمتابعة مجيء الشيء بعد الشيء، والموافقة: مجيء الشيء مع الشيء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: ثم بعد جمعه في صدرك وتلاوتك له كما أنزل، فإن علينا تفسيره وبيان معانيه، وما فيه من الأحكام والحكم والآداب والأخلاق وغير ذلك.

وبهذا تكفل الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بتيسير تدبر القرآن له، حفظًا وتلاوة لألفاظه، وفهمًا لمعانيه، وتطبيقًا لأحكامه؛ ولهذا بين ﷺ لأمته هذا القرآن أتم بيان بأقواله وأعماله وتقريراته.

كما أمر عز وجل الأمة بتدبره، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ⁽٢٩⁾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ⁽٨٢⁾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ⁽٢٤⁾﴾ [محمد: ٢٤].

ويؤخذ من هذا التأني والتثبت في طلب العلم، وأنه ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويستمع إلى معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يقاطعه أو يبادره قبل فراغه.

كما يؤخذ منه أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ⁽٢٠⁾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بالخطاب في: ﴿تُحِبُّونَ﴾، و ﴿وَتَذَرُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب فيهما.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث ولا حساب.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل تحبون الدنيا العاجلة الفانية فتعملون لها وتتنافسون فيها؛ لأن لذاتها ونعيمها عاجل، والإنسان مولع بحب العاجل وإيثاره على الآجل.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، أي: وتتركون العمل للآخرة الباقية والمسارعة والمسابقة إليها والمنافسة فيها؛ لأنها متأخرة وآجلة، فحملكم حب الدنيا العاجلة الفانية على الفجور والتكذيب، وشغلكم عن الاستعداد للآخرة،كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية وسبب كل رزية، فما حصل من كفر وتكذيب فبسببها، وما حصل من ذنوب ومعاصٍ فبسببها، وما حصل من عداوة وبغضاء حتى بين الأقارب فبسببها؛ ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(١).

وقد ذم الله- عز وجل- الدنيا وبين حقارتها ودناءة منزلتها، كما امتدح الآخرة وبين عظم منزلتها بما فيه الكفاية لأولي العقول والبصائر لكن حب الدنيا يعمي ويصم:

**قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع**

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٦- من حديث عمرو بن عوف- رضي الله عنه.

كم واثق بالعمر أفنيته    وجامع بددت ما يجمع(١)

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

بين عز وجل في الآيتين السابقتين أن مما حمل على الفجور والتكذيب إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما يدعو لإيثار الآخرة على الدنيا بذكر الفرق بين حال المنعمين وحال المعذبين في ذلك اليوم.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾، «ناضرة»: من النضارة والحسن والبهاء، أي: وجوه يومئذ حسنة بهية مشرقة متهللة مسرورة عليها رونق ونور لما هي فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وقال ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على هيئة البدر»(٢).

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، «ناظرة»: من النظر، أي تنظر إلى ربها وتراه عيانًا، كما قال- ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانًا»(٣).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كذلك»(٤).

وعن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «نظر رسول الله ﷺ- إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على

(١) البيتان لجحظة. انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للتنوخي ٤/ ١٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤، «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» ٢/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٥- من حديث جرير بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧٤، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢.

صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(١).

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(٢).

وعن صهيب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾»(٣).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يتجلى للمؤمن يضحك يعني في عرصات القيامة»(٤).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ-: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»(٥).

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة في الدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. وعليه يدل مفهوم قوله تعالى في الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن كثير(٦): «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله- عز وجل- في الدار الآخرة في

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٣٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان- إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٨، ومسلم في الإيمان ١٩١.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٣٠.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٦.

الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها».

وبعد أن ذكر بعض هذه الأحاديث قال: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام».

وقال السعدي في الكلام على الآية[1]: «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، أي: ووجوه في ذلك اليوم «باسرة»، أي: عابسة كالحة كاشرة مسودة حزينة خاشعة ذليلة، وهي وجوه الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٤٠- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ [الغاشية: ٢- ٤].

﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، أي: تستيقن أن يفعل بها داهية وأمر عظيم مهلك يقصم فقار الظهر ويقطعها، أي: تستيقن أن مصيرها ومآلها إلى عذاب النار وبئس المصير.

**الفوائد والأحكام:**

١- نهي الله- عز وجل- لنبيه ﷺ عن تحريك لسانه استعجالًا بالقرآن وحرصًا منه ﷺ وخوفًا من فوات شيء منه، وتكفل الله - عز وجل - له بجمعه وقراءته وبيانه له؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

٢- ينبغي أن يقرأ المتعلم للقرآن بعد نهاية قراءة معلمه، وينبغي التثبت والتأني في طلب العلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾.

٣- بيان الله- عز وجل- لنبيه- ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٦- ٥٢٧.

٤- التنديد بمن يحبون الدنيا العاجلة الفانية، فينشغلون بها عن الآخرة الباقية والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾.

٥- تحقير الدنيا، ورفعة شأن الآخرة.

٦- نضارة وحسن وجوه أهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾.

٧- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾.

٨- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾.

٩- بسور وجوه الكفار ومساءتها من شدة الهول والعذاب، وتوقع ما هو أدهى وأعظم وأشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة انقسام الناس في الآخرة إلى مسرور منعم، ومحزون معذب، ثم ذكر ما يسبق ذلك من حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال والفزع، ثم توعد عز وجل من خالف أمره وكذب وتولى، ثم ختم السورة بما بدأها به وهو إثبات البعث والمعاد والقيامة.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، «كلا»: للردع والزجر والتهديد، أي: سيعلمون سوء عاقبة أمرهم في تلك الحال ويندمون حين لا ينفع الندم.

ويحتمل كونها بمعنى: حقًا، أي: حقًا عندما يحصل ما ذكر وتقبض الروح فإن المساق إلى الله.

أي: كلا إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي.

والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين النحر والعاتق «وهي قريبة من الحلقوم؛ ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الآيات: ٨٣- ٨٧].

وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ- بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أنَّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنَّى أوان الصدقة»(١).

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، أي: مَن راقٍ يرقي، ومَن طبيب شاف يداوي. مِن رقى يرقي كرمى يرمي، ومصدره: «رقية».

قال السعدي(١): «أي: مَن يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت عنهم الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية».

وقيل مَن يرقى بروحه من الملائكة؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ مِن رقي يرقى كشقي يشقى، ومصدره «رُقِيّ» فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. والأظهر القول الأول.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾، أي: وأيقن وجزم أن الذي نزل به هو الفراق للأهل والولد والمال، وللدنيا كلها والانتقال للآخرة.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، أي: التوت والتصقت واجتمعت ساقا الميت إحداهما بالأخرى بعد موته ولفه في الكفن.

والتفت عليه شدة الدنيا وشدة الآخرة في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وعظم الأمر وصعب الكرب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب كل مخلوق ذلك اليوم السوق والمرجع والمآل والمآب، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

وفي حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه- في قبض روح العبد المؤمن قوله ﷺ: «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٧.

السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..» الحديث[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣)﴾.

إخبار من الله- عز وجل- ووصف لحال الكافر في الدنيا.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾، أي: فلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من المغيبات، وبما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: ولا صلى الصلوات المفروضة وغيرها، وخص الصلاة من بين الواجبات؛ لعظم مكانتها في الإسلام فهي الصلة بين العبد وبين ربه، وأعظم العبادات البدنية وأهمها، وهي عمود الإسلام.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: ولكن كذّب بقلبه ما جاء من الحق عن الله ورسوله، وما أخبر به الكتاب والسنة من المغيبات.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرض بجوارحه عن الصلاة وغيرها مما جاء من الحق فلم يعمل به.

قال ابن كثير[2]: «كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا».

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾، أي: يتبختر ويختال في هيئته ومشيته أشرًا وبطرًا، فكهًا مسرورًا، غير وجل ولا خائف مما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)﴾ [الانشقاق: ١٣- ١٥].

بل إن هؤلاء الكفرة المكذبين من كبرهم وغرورهم يطمعون أن يكونوا أحسن من غيرهم في الآخرة، كما قال قائلهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٧.

لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

وكما قال صاحب الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم: ٧٧- ٧٩].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «إذا مشت أمتي المطيطياء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سُلِّط شرارها على خيارها»(١).

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: زجر وتهديد شديد، ووعيد أكيد لمن جمع بين تكذيب الحق بقلبه والإعراض عنه بجوارحه، وبين الاختيال والأشر والبطر والسرور بما هو عليه من الشر.

قال ابن كثير(٢): «أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]».

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيد للتهديد ووعيد على إثر وعيد.

وقد قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أيظن الإنسان- يعني الكافر- أن يترك مهملًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيثاب أو يعاقب، فهذا ينافي حكمة الله- عز وجل- في خلقه له، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٦١، وابن المبارك في «الزهد» ١٨٧ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٨.

قال ابن القيم(١): «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب، فإن الله سبحانه- أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه».

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: بلى، لقد كان الإنسان هكذا.

و«النطفة» هي الماء القليل، أي: لقد كان الإنسان «نطفة» أي ماءً قليلًا مهينًا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾، أي: من ماء الرجل.

﴿يُمْنَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون: «تمنى» بالتاء على التأنيث.

ومعنى ﴿يمنى﴾، أي: يصب ويراق في أرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥- ٧].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، أي: ثم كان علقة من الدم تعلق في جدار الرحم، ﴿فَخَلَقَ﴾، أي: فخلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر.

﴿فَسَوَّىٰ﴾، أي: فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه على أحسن حال، تام الأعضاء، معتدل القامة، ناطقًا سمعيًا بصيرًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٨٣.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦- ٨].

وفي حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ- قال: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»(١).

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، أي: الصنفين والجنسين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: أليس الذي خلق الإنسان ونقله في هذه الأطوار المختلفة قادرًا على إحياء الموتى وبعثهم.

والاستفهام كسابقه: للتقرير.

والجواب عن الاستفهامين بأن يقال: «بلى» أو «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» أو بلى إنه على كل شيء قدير.

أي: فالقادر على خلق الإنسان بعد أن كان عدمًا من هذه النطفة مرورًا بمراحل الخلق بعدها حتى صار خلقًا سويًا قادر من باب أولى وأحرى على أن يحيي الموتى بعد موتهم، وهذا أهون عليه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

قال ابن القيم(٢): «فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، وكمال قدرته وحكمته، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا، ويتركها سدى بعد كمال خلقها».

وعن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ؟ قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٠.

من رسول الله ﷺ»[١].

وروي عن أبي هريرة- رضي الله عنه قال:: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ؟ فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله»[٢].

وعن قتادة قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ ؟ فقال: «سبحانك، فبلى»[٤].

**الفوائد والأحكام:**

١- التذكير بساعة الاحتضار والفراق والرجوع إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢- إذا نزل الموت ضاق الفضاء، وبطلت الحيل، ولم تجد الأسباب.

٣- جواز الرقية وطلب الاستشفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

٥- الردع والزجر والوعيد والتهديد للكافر الذي لم يصدق بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولم يصل لله، بل كذب بقلبه وتولى ببدنه وجوارحه، ومشى بين الناس

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب الدعاء في الصلاة ٨٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٠٩. «: تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- مقدار الركوع والسجود ٨٨٧، والترمذي في تفسير سورة التين ٣٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٢٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩.

مختالًا متكبرًا معجبًا بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾.

٦- أن الصلاة أعظم العبادات في الإسلام، وتركها كفر لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

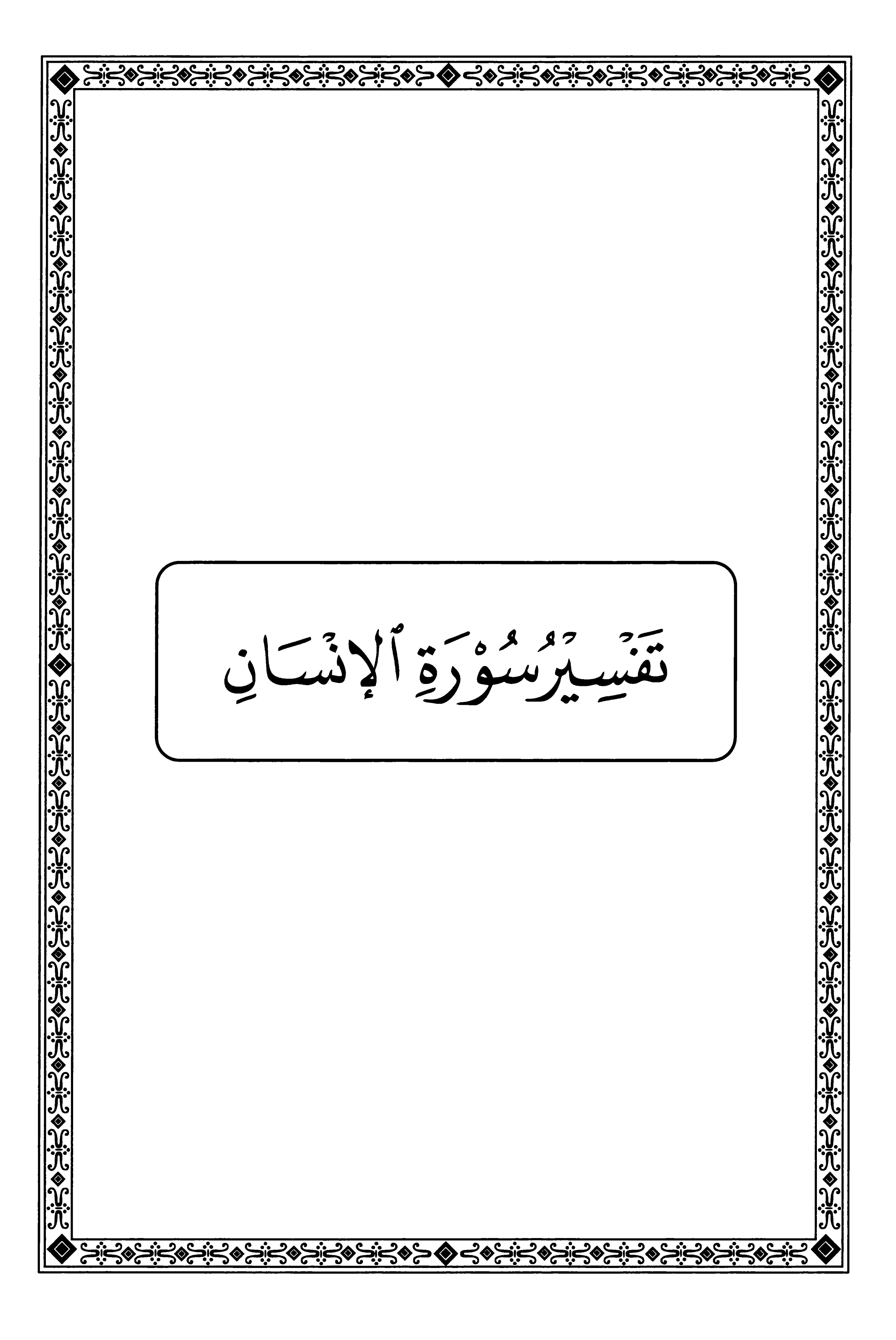
٧- الحذر من عدم التصديق بما جاء عن الله وترك الصلاة والتكذيب والتولي والكبر والاختيال والإعجاب؛ لأنها صفات الكفار.

٨- إثبات البعث والحساب والجزاء، وبيان أن اعتقاد الكافر أنه متروك هملًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيجازى بعمله ينافي حكمة الله عز وجل في خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

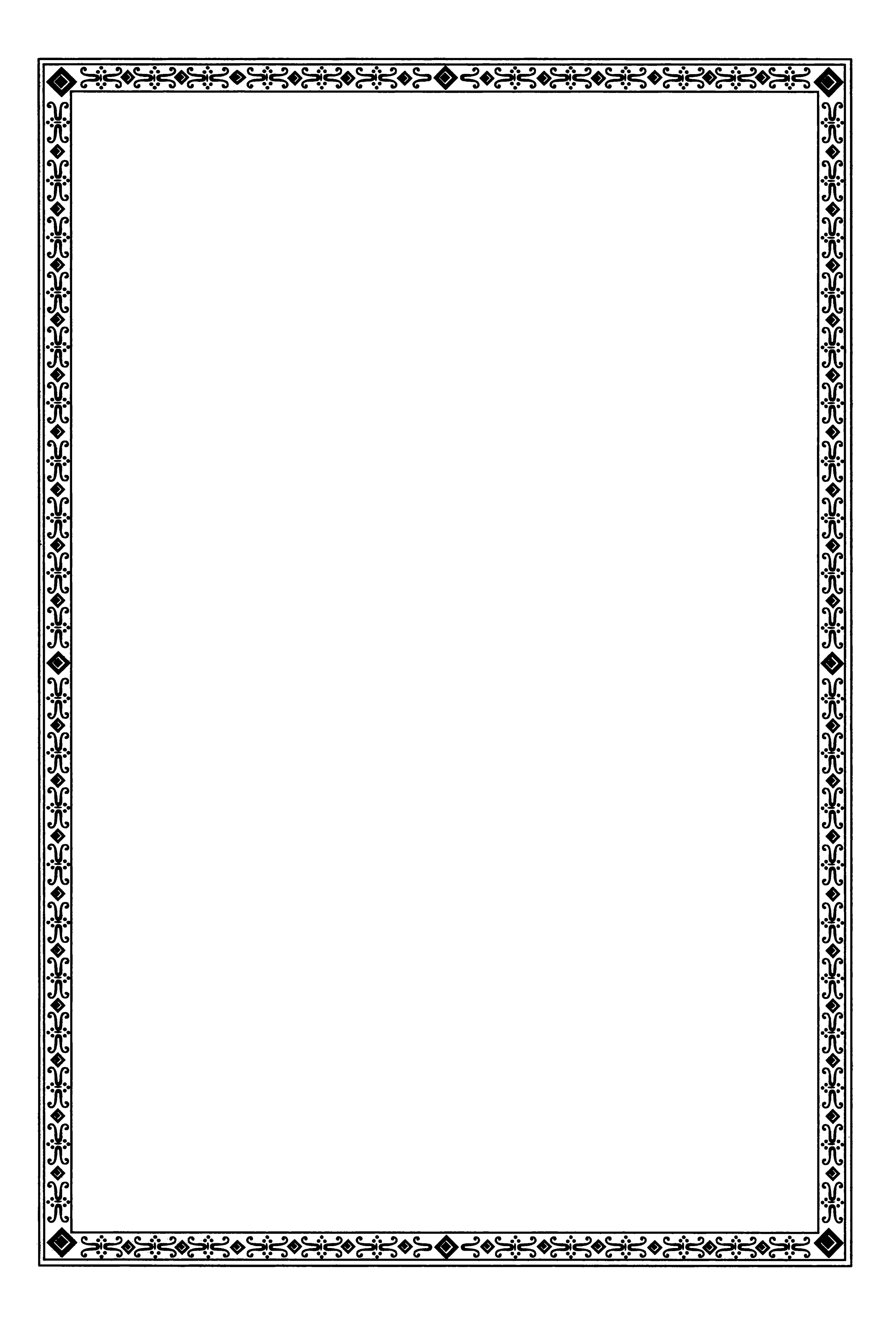
٩- تقرير الإنسان وتذكيره بنعمة الله – عز وجل – عليه في إيجاده ونقله في أطوار خلقه وضعفه إلى أن صار بشرًا سويًا سميعًا بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

١٠- إثبات قدرة الله – عز وجل – التامة على البعث وإحياء الموتى؛ لأن الذي خلق الخلق من العدم قادر على إعادة خلقهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلإِنْسَانِ



## المقدمة

**أ- اسم السورة:**

سميت هذه السورة «سورة الإنسان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾.

وتسمى: «سورة هل أتى على الإنسان»، كما تسمى أيضًا: «سورة الدهر»، و«سورة الأبرار»، و«سورة الأمشاج».

**ب- مكان نزولها:**

مكية.

**جـ- فضلها:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾[1].

**د- موضوعاتها:**

١- افتتحت السورة بذكر نعمة الله تعالى على الإنسان في إيجاده بعد العدم، وفي كيفية إيجاده وإمداده بالحواس، وهدايته السبيل ببيان طريق الخير وطريق الشر: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾.

٢- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

٣- بيان عظم ما أعد الله للأبرار من ألوان النعيم وامتداحهم والثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - ما يقرأ في يوم الجمعة ٨٩١، وسلم في الجمعة ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

نُّطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

٤- الامتنان على النبي ﷺ بتنزيل القرآن عليه، وتسليته وتقوية قلبه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

٥- تخويف الكافرين يوم القيامة وأهواله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

٦- إثبات الاختيار للإنسان وأن مشيئته تبعًا لمشيئة الله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

«هل»: حرف استفهام للتقرير بمعنى «قد»، أي: قد أتى على الإنسان وقت طويل من الدهر لا وجود له ولا ذكر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن كثير[(١)]: «أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذْكر لحقارته وضعفه».

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: أوجدناه من نطفة، وهي المني، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿أَمْشَاجٍ﴾، أي: أخلاط من عناصر مختلفة، من ماء الرجل وماء المرأة، ثم ينتقل من طور، إلى طور ومن حال، إلى حال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، أي: نختبره بالتكاليف، أيعمل بما خلق له أم لا، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، أي: كمّلنا خلقته وحواسه، ومنها السمع والبصر، والتي هي من أهم ما أنعم الله به على الإنسان بعد العقل- لأنهما طريقا المعرفة إليه، فبالسمع يسمع الإنسان الآيات الشرعية، وبالبصر ينظر في آيات الله الشرعية والكونية.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣١٠.

وقد يكون السمع والبصر نقمة على الإنسان إذا استعملها في سماع الباطل والنظر إليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: دللناه على طريق الحق وأرشدناه إليه بما أنزلنا من الوحي في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي الكريم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾، «إما»: أداة تفصيل، أي: إما شاكرًا لله- عز وجل- نعمه العظيمة عليه، بخلقه وإيجاده من العدم، ومنحه السمع والبصر، ودلالته وإرشاده إلى طريق الحق، وذلك بسلوك طريقه المستقيم، والإقرار والاعتراف بنعمه عليه واستعمالها في طاعته- عز وجل.

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بربه جحودًا لنعمه، مستعملًا لها في معصيته، معرضًا عن الحق بقلبه متوليًا عنه ببدنه.

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكرًا، وإما كفورًا»[(١)]

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

وكقوله- ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)].

وقد تضمنت هذه الآيات الثلاث أول أحوال الإنسان ووسطها ومنتهاها.

فقد كان عدمًا، ثم خلقه الله وأوجده وأتم خلقه، ثم بين له طريق الخير وطريق الشر في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فانقسم الناس إلى شاكر لنعم الله قائم

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

بحقوقه، وإلى كفور بربه وبنعمه، ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريقين في الآخرة وجزائهم.

**الفوائد والأحكام:**

١- امتنان الله - عز وجل - على الإنسان في إيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

٢- أن الإنسان خلق من ضعف، من نطفة وأخلاط من ماء الرجل والمرأة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار إنسانًا سويًا سميعًا بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

٣- أن الله - عز وجل - خلق الإنسان وأوجده للابتلاء والامتحان، لينظر أيشكر أم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾.

٤- أن نعمة السمع والبصر من أعظم النعم فعلى الإنسان أن يستعملها فيما ينفعه في دينه ودنياه.

٥- لا عذر للإنسان ولا حجة له، فقد بين الله عز وجل له طريق الخير وأمره بسلوكه وبين له طرق الشر وحذره منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾.

٦- أن العبد فاعل مريد بمشيئة الله تعالى، لا يستقل بفعله، وليس مُجبَرًا على أفعاله فله أن يختار طريق الشكر، وله أن يختار طريق الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، وفي هذا رد على القدرية والجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ۝١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ۝٢٢﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أنه أوجد الإنسان وهداه وأرشده إلى طريق الحق وهو إما شاكر لربه ونعمه عليه سالك طريق الحق، وإما كفور بربه ونعمه معرض عن الحق، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لكل فريق، وأنه أعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير والعذاب الأليم، وأعد للأبرار أصناف النعيم من نضارة الوجوه وسرور القلوب والمساكن والملابس والحلي والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم المقيم والملك الكبير. ونبه بما ذكر من نعيم الأبرار بعظم نعيم من فوقهم في المنزلة، وهم المقربون، والذين ذكر الله من نعيمهم أنهم يشربون من عين الكافور، كما قال تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: إنا أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا للكافرين بالله المكذبين لرسله الجاحدين لشرعه.

﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع سلسلة، ممنوع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع، أي: سلاسل يُسلكون بها ويسحبون في الجحيم.

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾، يغلون ويقيدون بها ويوثقون، وتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم،

ونواصيهم إلى أقدامهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]

قوله تعالى: ﴿ وَسَعِيرًا ﴾، أي: ونارًا مستعرة ملتهبة تسعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله- عز وجل- ما أعده للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير ذكر ما أعده للأبرار من أنواع النعيم ممتدحًا لهم على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ الأبرار: جمع «بَرّ»، وفي معناه: «بار»، ويجمع على «بررة».

و«البَرُّ» و«البار» مأخوذ من «البِرّ» وهو في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «البر ما سكنت

إليه النفس، واطمأن إليه القلب»[١].

ومنه حسن الخلق، كما قال ﷺ: «البر حسن الخلق»[٢].

والمراد بالأبرار في الآية من فعلوا الواجبات وتركوا المنهيات، ومن ذلك الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى مع الإخلاص لله تعالى في ذلك، والخوف من عذابه ومن أهوال يوم القيامة، والصبر في ذات الله كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ والمراد بهم أصحاب اليمين[٣].

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾، أي: من كأس الخمر اللذيذ الذي لا يُنزفون بسببه ولا يُصدعون.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ مزاجها: ما تمزج به، أي: كأس خمر ممزوجة بالكافور ليبرده ويكسر حدته.

والكافور: نبت بارد طيب الرائحة- وفرقٌ ما بين كافور الدنيا وكافور الجنة قال ابن عباس- رضي الله عنهما- «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[٤].

ولهذا تنتفي عما في الجنة جميع الآفات التي تصيب ما يماثلها في الدنيا في الاسم، كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٢٨] فقوله: ﴿مَّخْضُودٍ﴾، أي: قد خضد وقطع شوكه وهو آفة السدر في الدنيا يؤذي من يريد قطعه.

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، أي: مطهرة من الحيض والنفاس والبول والغائط وغير ذلك من الأدناس، التي في نساء الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد، ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان- رضي الله عنه

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: في سورة الواقعة ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ [الآية: ٢٧].

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢، «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨.

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات التي في دار الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، «عينًا»: منصوب بدل من «كافورا»، أي: ذلك الكأس اللذيذ ممزوج بكافور من معين لا ينضب ولا ينقطع،وهي عين الكافور.

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون ويروَوْنَ؛ ولهذا قال: «بها»، ولم يقل: «منها»؛ لأن الفعل: «يشرب» ضمن معنى «يَرْوَى» ومن هذا قول الشاعر:

**شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضرٍ لهن نئيج**[1]

والمراد بالعبودية في قوله: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ العبودية الخاصة، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم، والمراد بهم المقربون، وهم خاصة الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧ ٢٨].

قال ابن تيمية[2]: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفًا خالصًا، كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا مع ما في ذلك من مقابلته للسعير».

وقال ابن كثير[3]: «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج، ويروون بها».

أي: فالأبرار وهم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة بالكافور.

والمقربون يشربون صرفًا من عين الكافور.

كما يشرب الأبرار من خمر ممزوج بالتسنيم، ويشرب المقربون صرفًا من عين التسنيم كما قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.
(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٣١٢.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٥- ٢٨].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾، أي: يصرفون جداولها ويقدرون ينابيعها ويجرونها حيث شاؤوا، وأين شاؤوا من بساتينهم ودورهم وقصورهم ورياض الجنة وغير ذلك، بدون كلفة، ومن غير أخاديد.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾، أي: من صفات الأبرار: الوفاء بالنذر.

والنذر: ما أوجبه الإنسان على نفسه من التزامات وعهود. والوفاء به واجب.

قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[1].

وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم فهم يقومون بالواجبات والفروض الأصلية التي أوجبها الله عليهم من باب أولى وأحرى.

قال ابن تيمية[2]: «وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجب على نفسه التزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو، فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى».

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾، «يومًا» مفعول به منصوب لـ «يخافون»، وهو يوم القيامة.

ولا يصح أن يعرب ظرفًا؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ونكّر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم والتهويل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور- النذر في الطاعة والنذر فيما لا يملك وفي معصية الله ٦٦٩٦، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٩، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٦، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٢٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، أي: كان شر هذا اليوم وهوله وكربه وعذابه قاسيًا ممتدًا طويلًا منتشرًا غاية الانتشار، عامًا لجميع الناس إلا من رحم الله، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤].

لأن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم فمنهم من يبلغ العرق إلى ساقيه ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا- كما جاء في الحديث[(١)].

وهم في مرورهم على الصراط كذلك على قدر أعمالهم منهم من يمر كالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوًا- كما جاء في الحديث[(٢)].

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: في حال محبتهم له، إما لحاجتهم إليه أو لغير ذلك، وذلك منهم تقديمًا لمحبة الله- عز وجل على محبة أنفسهم، وإيثارًا لغيرهم من المحتاجين على أنفسهم، وإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق الله وحقوق العباد أبذل قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ: «خير الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٣، وأحمد ٣/ ٢٥، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٨، ومسلم في الزكاة- بيان أفضل الصدقة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ١٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنه- مرض فاشتهى عنبًا- أول ما جاء العنب- فأرسلت صفية- يعني امرأته- فاشترت عنقودًا بدرهم فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل. فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»[(١)].

﴿مِسْكِينًا﴾ وهو الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله، مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار، وسكون الحركة؛ لأن الفقر- عياذًا بالله منه- يذل صاحبه.

إن جلس فبمؤخرة المجلس، يؤثر السكوت دائمًا؛ لأنه إن تكلم لم يُسمع، وإن سُمع لم يصدق، لا وزن له ولا قيمة عند كثير من الناس الذين يَزِنُون الناس بالدرهم والدينار.

﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا شيء له، ذكرًا كان أو أنثى، مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله- ﷺ- «لايتم بعد احتلام»[(٢)].

﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو: المأسور المحبوس المسجون، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأسير: الرقيق.

والظاهر أن الأسير هو المأسور المحبوس حرًا كان أو عبدًا مسلمًا كان أو كافرًا.

فهو يشمل الرقيق وغيره، بل إن الرقيق أيضًا يدخل ضمن المساكين والأيتام.

وفي كونهم يخصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة- كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم، بل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل- ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، أي: قائلين لهم بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: «أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب»(١).

وما قاله مجاهد وسعيد بن جبير جيد من حيث المعنى؛ لأن حمل الآية على أنهم قالوه بلسان المقال فيه بعد من وجهين: الأول: أنه لا يُستحسن أن يقال للمتصدق عليه هذا المقال.

والثاني: أنه لا يستحسن أن يقول المتصدق أنا أطعم لوجه الله؛ لأن الله أعلم بنيته وسريرته.

و «إنما» أداة حصر. والمعنى: ما نطعمكم إلا ابتغاء وجه الله، وطلب مرضاته، ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، أي: لله- عز جل- ويعبر بالوجه لشرفه.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾، أي: لا نطلب منكم مجازاتنا بالمال على إطعامنا لكم.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾، «شكورا»: مصدر كالقعود، أي: ولا نريد منكم أن تشكرونا بالثناء علينا عند الناس بالقول واللسان مقابل ذلك.

فتضمن فعلهم: تقديم محبة الله على محبة نفوسهم، والإخلاص، والإحسان.

وأركان الشكر في الأصل ثلاثة: الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على رضاه.

وحيث جمع هنا بين الجزاء والشكور حسن حمل الجزاء على المجازاة بالمال، وحمل الشكر على الثناء بالقول.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن في جميع صدقاته وأعماله مخلصًا العمل لله لا يطلب على شيء من ذلك مجازاة من الناس أو شكرًا منهم.

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٦.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، أي: شديد الجهمة والشر، تعبس فيه وجوه الكفار والعصاة وتكلح. والعبوس: قبض ما بين العينين.

قال ابن تيمية[1]: «ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾: [الآية: ١٠] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الآية: ٧]».

﴿قَمْطَرِيرًا﴾: شديد العبوس، شديدًا هوله، عظيمًا بلاؤه، طويلًا أمده.

قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا ... عليكم إذا ما كان يوم قماطر[2]

فحملهم خوفهم من الله وعذابه في هذا اليوم الشديد على القيام بما يكون سببًا لنجاتهم في هذا اليوم من فعل الطاعات والكف عن المعاصي.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾، أي: حفظهم الله وحماهم وكفاهم شر ذلك اليوم وأذاه وعذابه، وسهل عليهم شدائده وكرباته، وأمنهم مما يخافون.

كما قال عز وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بين قوله في الجملة السابقة: ﴿فَوَقَاهُمُ﴾ وقوله هنا: ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾، جناس بليغ.

وقدم قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ على قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وما بعدها من الآيات في ذكر نعيمهم؛ لأن التخلية قبل التحلية.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، أي: وأكرمهم وأعطاهم ومنحهم نضارة وحسنًا وبهاء وبهجة في وجوههم، وسرورًا وفرحًا واستبشارًا في قلوبهم، كما قال تعالى:

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٣.

(٢) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ٢١٦، «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٧، «لسان العرب» مادة «قمطر».

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن، وبين النعيم الحسي والمعنوي. نسأل الله تعالى من فضله.

قال ابن تيمية[١]: «وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه».

وقال أيضًا: «فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾» فالنضرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾ [المطففين: ٢٤]».

وسرور القلب هو سبب نضارة الوجه واستنارته، ونضارة الوجه واستنارته هي علامة سرور القلب، لهذا قدمها لأنها هي العلامة الظاهرة على السرور.

قال كعب بن مالك- رضي الله عنه-: «سلمت على رسول الله ﷺ- وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ- مسرورًا تبرق أسارير وجهه»[٣].

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء: سببية، و «ما» مصدرية.

والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

أي: وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله- عز وجل- وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة.

---

(١) انظر» دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة- حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢، وأحمد ٣/ ٤٥٦- ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب- صفة النبي ﷺ ٣٥٥٥، ومسلم في الرضاع- العمل بإلحاق القائف الولد ١٤٥٩، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٩٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٩.

﴿جَنَّةً﴾، أي: بستانًا ودارًا فسيحة ومنزلًا رحبًا، فيها ألوان النعيم والعيش الرغيد، وغير ذلك مما أعده الله لأوليائه. والمراد بقوله «جنة» جنس الجنات.

﴿وَحَرِيرًا﴾، أي: ولباسًا من حرير، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

قال السعدي(١): «ولعل الله إنما خص الحرير؛ لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه».

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين وقايته للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة والسرور وإثابتهم بسبب صبرهم بالجنة والحرير. ثم أخذ في تفصيل أحوالهم في الجنة وما أعد لهم فيها من ألوان النعيم.

قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، أي: متكئين في الجنة. والاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، كالتمرفق، وهو الجلوس مع الاتكاء على المرفق، وكالتربع في الجلوس، والاضطجاع.

وفي الحديث قوله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئًا»(٢).

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرر.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٣٤.

(٢) أخرجه البخاري- في الأطعمة- الأكل متكئًا ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة- ما جاء في الأكل متكئًا ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة- ما جاء في كراهة الأكل متكئًا ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة- الأكل متكئًا ٣٢٦٢، وأحمد ٤/ ٣٠٨، ٣٠٩- من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه.

فجلوسهم على هذه الأسرة جلوس المطمئن المنبسط المسرور المرتاح.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾، أي: لا يرون في الجنة شمسًا يزعجهم ويؤذيهم حرها.

﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهرير: البرد، أي: ولا يرون فيها بردًا يؤلمهم.

فجوها في غاية الاعتدال في ظل ظليل، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾، أي: وقريبة منهم ظلال أشجارها، وقريبة إليهم أغصانها.

﴿وَذُلِّلَتْ﴾، أي: جعلت مذللة منقادة ﴿قُطُوفُهَا﴾: ما يقطف ويلتقط من جناها وثمارها، أي: جعلت ثمارها مذللة منقادة لهم.

﴿تَذْلِيلًا﴾، أي: غاية التذليل والانقياد، متى اشتهوها تدلت عليهم من أغصانها، يأخذونها على أي حال كانوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين، لا يردهم عنها بُعد ولا شوك، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان والخدم بأوان من فضة فيها طعامهم، كما قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال: تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيضًا من فضة فيها شرابهم.

والأكواب: هي الكيزان والجرار والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.

﴿كَانَتْ﴾، أي: كانت هذه الأكواب، ﴿قَوَارِيرَا۠﴾: جمع قارورة. والقارورة تكون من الزجاج، أي: إن هذه الأكواب التي يشربون بها في بياض الفضة وصفاء قوارير الزجاج، شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها.

رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفة الزجاج وشفافته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾».

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، أي: قدروها بأنفسهم فجاءت كما قدروها، أو قدرها لهم من يطوف عليهم من الولدان والخدم.

والتقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص فجاءت هذه الأكواب مقدرة، من حيث ما فيها من شراب بكونه قُدِّر لهم من غير زيادة ولانقصان، ومن حيث حجمها بكونها بقدر الكف، ومن حيث لذتها فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

قال ابن القيم[(٣)]: «فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولوزاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي».

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾، أي: الأبرار، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، أو في هذه الأكواب.

﴿كَأْسًا﴾، أي: كأس خمر.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾، أي: ما تمزج به وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ وهو نبت عظيم الفائدة طيب الطعم والرائحة.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، ﴿عَيْنًا﴾: بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾، أي:عينًا في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾؛ لسلاسة سيلانها وانقيادها، وسلاستها في الحلق، ولذتها وحسنها.

فالأبرار يسقون كأس الخمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨- ٩٩.

والمقربون يشربون من عين السلسبيل صرفًا بلا مزج[(١)].

قال ابن تيمية[(٢)]- بعد كلامه على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾-: «وأخبر سبحانه أن لهم شرابًا آخر ممزوجًا من الزنجبيل؛ لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف؛ ولهذا وصفه سبحانه بكونه شرابًا طهورًا- أي:مطهرًا لبطونهم».

وقال ابن كثير[(٣)]: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ ليعتدل الأمر. وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ويدور على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ جمع وليد وهو الصغير، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: باقون على سن الصغر، لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون؛ لأن الصغير هو الأنسب والأصلح للخدمة.

وهم أيضًا في غاية الحسن: مقرَّطون مسوَّرون. قال الشاعر:

**ومخلّداتٌ باللجين كأنما ... أعجازهُنَّ رواكد الكُثْبانِ[(٤)]**

وهؤلاء الولدان غلمان أنشأهم الله في الجنة، كما أنشأ الحور العين، وقيل هم أولاد المسلمين الذين يموتون قبل البلوغ والتكليف، وقيل: هم أطفال المشركين.

والأظهر القول الأول فهم غلمان ينشئهم الله لهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ [الطور: ٢٤].

قال ابن القيم[(٥)]: «وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم».

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦١.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٣١٧.

(٤) البيت ذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» ٤٤٧. وانظر «اللسان» مادة «خلد».

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٢.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان في انتشارهم في الخدمة وكثرتهم وحسن خلقتهم وبياض أجسامهم ونضارة وجوههم، ونظافة ثيابهم، وجمال حليهم ظننتهم لؤلؤًا مفرقًا غير منظوم في حسن خلقته وجماله وبياضه وبهائه.

قال ابن القيم[١]: «وفي كونه منثورًا فائدتان: إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذاكان منثورًا ولاسيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ- و لكل من يصلح له.

و ﴿ثَمَّ﴾: ظرف مكان، أي: وإذا رأيت هناك في الجنة، أي: رمقت ما عليه أهل الجنة من النعيم الكامل؛ من سعة دورها وقصورها ورياضها وكثرة أنهارها وخضرة بساتينها، وتنوع مأكولاتها ومشروباتها، وما فيها من الحور العين والخيرات الحسان، والغلمان والولدان، والفوز برضى الرحمن، والتمتع بخطابه والنظر إليه في تلك الجنان.

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، أي: شاهدت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا أعده الله لهم.

وإذا كان الله- عز جل- عظم هذا النعيم، ووصف هذا الملك بكونه كبيرا- فلا أحد يقدر عظمة ذلك وكبره، ولا يدرك وصفه وكنهه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه قال: قال النبي- ﷺ: «يقال لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا فيها: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا..»[٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»[٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧١، ومسلم في الإيمان ١٨٦، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٣.

وإذا كان هذا هو ملك أدنى أهل الجنة فما بالك بملك من هو أعلى منه، فهو بلا شك أوسع وأعظم. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة بإسكان الياء وكسر الهاء: عاليْهِم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «خضرٍ» بالخفض: صفة لـ﴿سُندُسٍ﴾ على إرادة الجنس.

وقرأ الباقون بالرفع: ﴿خُضْرٌ﴾: صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾، أي: عالي أبدانهم يجلل ظواهرهم ويجملها.

﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ السندس: هو رقيق الحرير والديباج ورفيعه، ويكون مما يلي أبدانهم كالقمصان ونحوها؛ لنعومته.

كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

﴿خضرٌ﴾، أي: لونها أخضر، وهو من أحسن الألوان وأجملها.

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم: ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثيَابُ﴾ وقرأ الباقون بالخفض: «وإستبرقٍ» عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾.

والإستبرق: غليظ الحرير والديباج، مما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر.

قال ابن القيم(١): «وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال».

﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، أي: ألبسوا في أيديهم أساور من فضة ذكورهم وإناثهم وهؤلاء هم الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: ٢٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٦.

وفي الحديث: «في الجنة جنتان آنيتهما وما فيهما من ذهب للمقربين وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين»(١).

قال ابن تيمية(٢): «فإن قيل: فلم اقتصر من آنيتهم وحليهم على الفضة دون الذهب؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلًا دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم، فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل. وذلك- والله أعلم- لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم؛ ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. وأيضًا: فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أن جزاء المقربين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأيضًا: فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر، وأهل الشكر نوعان أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضًا: فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط».

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾، أي: وسقاهم ربهم شرابًا يطهر بواطنهم ويزينهم.

وأسند الفعل إلى الرب، وأضافه إلى ضميرهم تكريمًا وتشريفًا لهم.

فجمل عز وجل ظواهرهم بالحرير والحلي، وجمل بواطنهم بالشراب الطهور الذي يطهرها من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، ويتحول إلى ريح كريح المسك يخرج من أبدانهم.

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦].

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٤.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»[١].

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، أي: يقال لهم هذا تكريمًا وتهنئة لهم وإنعامًا معنويًا عليهم. والإشارة في قوله «إن هذا» إلى ما أعطاهم الله من الجنة وألوان النعيم فيها مما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ وغير ذلك مما هم فيه من النعيم.

أي: إن هذا النعيم الذي أعطيتموه كان لكم مجازاة وإثابة على ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، فهي سبب الثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾، أي: وكان سعيكم في الدنيا، أي: عملكم.

﴿مَّشْكُورًا﴾، أي: كان عملكم عملًا صالحًا تشكرون عليه، ويجازيكم الشكور سبحانه على العمل القليل منكم بالأجر العظيم والثواب الجسيم والنعيم المقيم.

فجمع الله- عز وجل- لهؤلاء الأبرار بين ألوان النعيم الحسي، والنعيم المعنوي بالتهنئة لهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩] وقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقول أهل العلم: إن النعيم المعنوي لا يقل عن النعيم الحسي.

قال ابن القيم[٢] «فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٢.

شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور».

**الفوائد والأحكام:**

١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالسلاسل والأغلال والسعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

٢- الوعد والبشارة للأبرار بما أعد الله لهم من ألوان النعيم ومن ذلك كأس الخمر الممزوجة بالكافور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

٣- إثبات عبودية المقربين الخاصة لله- عز وجل- وأنهم يشربون من عين الكافور صرفًا ويفجرونها تفجيرا؛ لقوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾.

٤- امتداح الله - عز وجل - للأبرار بذكر صفاتهم من الوفاء بالنذر وخوف يوم القيامة وشدائده وأهواله، وإطعام الطعام مع محبتهم له، للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى؛ إخلاصًا لله - عز وجل، لا لطلب المجازاة منهم ولا الشكور. والترغيب في هذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾.

٥- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾، والمراد بوجه الله تعالى: ذاته عز وجل، ويعبر عن الذات بالوجه لشرفه.

٦- وقاية الله - عز وجل - للأبرار شر يوم القيامة، ومنحهم النضارة في وجوههم والسرور في قلوبهم ومجازاتهم بصبرهم جنة يسكنونها وحريرًا يلبسونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾.

٧- اكتمال سرور الأبرار وانبساطهم في مجالسهم في أجمل الأجواء وأعدلها، في جنان ظلالها دانية، وثمارها مذللة، يطاف عليهم فيها بطعامهم وشرابهم بآنية وأكواب مقدرة من فضة، ويسقون فيها كأس خمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا

كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾.

٨- دوران الولدان المخلدين والخدم الذين هم كاللؤلؤ المنثور في الحسن والجمال على أهل الجنة بطعامهم وشرابهم وحوائجهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾.

٩- عظم نعيم الأبرار في الجنة وكبر ملكهم وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾.

١٠- جمال مظهر الأبرار في الجنة، ومخبرهم ولباسهم وحليتهم الظاهرة والباطنة فلباسهم الحرير وحليتهم أساور من فضة وشرابهم الطهور؛ لقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾.

١١- الجمع للأبرار بين النعيم الحسي من السكن في الجنان وما فيها من ألوان النعيم من المآكل والمشارب واللباس والحلي وغير ذلك وبين النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة لهم بما أعد الله لهم، وأن هذا جزاء لهم على سعيهم وعملهم المشكور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للأبرار، وشكره لهم، وهو الشكور سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾.

بعد ما ذكر الله- عز وجل- ما أعده للمكذبين من السلاسل والأغلال والسعير، وما أعده للأبرار من ألوان النعيم امتن على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم، الذي من تمسك به فاز بالنعيم المقيم، ومن أعرض عنه صار إلى العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه ذو العظمة والكبرياء.

﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، أي: مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ﴾، أي: فاصبر لحكم ربك وقضائه الكوني وما قدره من تكذيب قومك وأذيتهم لك وغير ذلك، واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بتكليفك بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله- عز وجل- وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي عطف قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم والتأمل بما فيه من الدروس والمواعظ والعبر من أعظم ما يعين على الصبر.

كما أن فيه إشارة إلى أنه سوف يناله أذى بسبب إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الناس فليستعد لذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ الآثم: الفاجر، كثير الإثم بجوارحه الظاهرة.

﴿أَوْ كَفُورًا﴾، «أو»: عاطفة، والكفور: هو الجحود بقلبه، أي: لا تطع هذا ولا هذا، أي: لا تطعهما، ولا تطع واحدًا منهما في مخالفة أمر الله ومعصيته.

قال ابن تيمية(١): «ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف: «أو»، دون «الواو»؛ ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا. فكأنه قيل له: لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهيًا عن طاعتهما، فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثمًا وكفورا لم يكن صريحًا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده».

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، أي: اذكر اسم ربك ورب كل مخلوق، وخصه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنه عز وجل رب كل مخلوق وذلك- والله أعلم- تذكيرًا له بنعمة الله عليه بربوبيته له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة باصطفائه للنبوة والرسالة، وتفضيله على الأنبياء وسائر الخلق.

أي: واذكر اسم ربك بإقامة الصلاة المفروضة وأداء النوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ لأن ذكر الله أعظم معين على الصبر.

﴿بُكْرَةً﴾: أول النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾: آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، وهما يتنظمان صلاة الفجر وصلاة العصر.

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩] وهما البردان.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[(١)]، أي: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[(٢)].

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[(٣)].

يعني صلاة الفجر وصلاة العصر.

بل إن هذين الوقتين ينتظمان جميع أوقات الصلوات الخمس، فبكرة صلاة الصبح، وأصيلًا بقية الصلوات.

وأيضًا: فإن قوله: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ قد يحمل على جميع الأوقات، أي: اذكر اسم ربك في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[مريم: ٦٢] ورزق أهل الجنة لا ينقطع على الدوام.

وفي الأمر بذكر اسمه عز وجل بكرة وأصيلًا بعد الأمر بالصبر تنبيه على أن ذكر الله عز وجل وطاعته أكبر معين على الصبر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾، أي: ومن أوقات الليل وآنائه فاسجد لربك وسبحه، أي: أكثر له من السجود والتسبيح، أي: أكثر من الصلاة له كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ [طه: ١٣٠].

وخص السجود والتسبيح بالذكر مع أن المراد الصلاة كلها؛ لأن السجود والتسبيح من أهم أركان وواجبات الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣- من حديث جرير بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١- من حديث عمارة بن رؤيبة عن أبيه- رضي الله عنه.

﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ هذا مقيد مبين في سورة المزمل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١- ٤]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: إن هؤلاء المكذبين ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، أي: يحبون الدنيا العاجلة الفانية، ويعملون لها.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، أي: ويتركون أمامهم، كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الآية: ٧٩]، أي: أمامهم.

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، أي: يومًا سيصيرون إليه، ثقيلًا عظيمًا، شديد هوله مستطير شره عسير على الكافرين، غير يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

لكنه خفيف يسير على المؤمنين، كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(١).

قال الشاعر:

فيا لك من يوم على كل مبطل ... فظيع وأهوال القيامة تعضل
تكون به الأطواد كالعهن أو تكن ... كثيبًا مهيلًا أهْيلًا يتهلهل
به ملة الإسلام تقبل وحدها ... وما غيرها من أي دين فيبطل
به يسألون الناس ماذا عملتمُ ... وماذا أجبتم من دعا وهْو مرسل
حساب الذي ينقاد عرض مخفف ... ومن ليس منقادًا حساب مثقل(٢)

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة بعنوان «القول الأسنى في نظم الأسماء الحسنى» للشيخ حسين بن علي بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب ص٤٤.

وفي هذه الآية: ذم لمن أحبوا الدنيا العاجلة الفانية فانشغلوا بها عن العمل للدار الباقية تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، والناس في هذا بين مقل ومستكثر فينبغي الحذر من ذلك.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، أي: نحن أوجدناهم من العدم.

﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، أي: قوينا وأحكمنا خلقهم، وحسناه وسويناه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢].

قال ابن تيمية: «ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه، بما شد من أسرهم وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال و ما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة، فلا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط، ومنه الإسار وهو الحبل الذي يشد به الأسير»[(١)].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾، أي: إذا شئنا بدلنا أشباههم وصورهم، أو ذهبنا بهم وأتينا بقوم آخرين غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، فاطر: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ ببعثهم يوم القيامة خلقًا جديدًا بأعيانهم وأمثالهم، أي: أن الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم بعد الموت وبعثهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إن هذه السورة تذكرة وموعظة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا ومسلكًا

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

موصلًا إليه فتذكر واتعظ واتبع هدى الله الذي أنزله وصراطه المستقيم المؤدي إليه.

كما قال- عز وجل ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: ١١، ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالغيب: «وما يشاءون» وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾.

والمعنى: أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله- عز وجل- ومشيئته نافذة فيهم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، أي: فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه، ولا يجلب لها نفعًا أو يدفع عنها ضرًا إلا أن يشاء الله ذلك.

والمراد بالمشيئة الإرادة الكونية، فإنه لا يقع في الكون أيّ حركة أو سكون إلا بمشيئته عز وجل وإرادته الكونية.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، أي: إن الله كان ذا العلم الواسع فيما خلق وقدر وشرع وفي غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال موسى عليه السلام- لما سئل القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي،

والحكم الجزائي وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن علمه عز وجل الواسع علمه بمن يستحق الهداية فييسر له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عنها؛ لما له في ذلك من الحكم التام والحكمة البالغة.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: يوفق من يشاء فيدخله في رحمته- الخاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فيدخلهم في رحمته بالإيمان ويسكنهم برحمته فسيح الجنان.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل يفسره «أعد» ويقدر بـ«أوعد» ونحوه؛ لأن «أعد» لا يتعدى باللام.

والظالمين: جمع ظالم. والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو أيضًا وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وأظلم الظلم الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

أي: والظالمين الذين اختاروا الكفر على الإيمان، والضلال على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾، أي: هيأ وجهز لهم، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا حسًا ومعنىً.

أي: أنه- عز وجل- لم يوفقهم للهداية، بل قدر عليهم الضلال والكفر، وأعد لهم عذاب النار. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

فيهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

**الفوائد والأحكام:**

١- امتنان الله - عز وجل - على الرسول ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه وتشريفه بذلك وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٢- إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل وكلامه غير مخلوق. والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- نزول القرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث.

٥- أمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ بالصبر لحكمه الشرعي بتكليفه بالرسالة والقيام بأمره ونهيه، والصبر لحكمه القدري، وعلى أذى قومه وما يلاقيه من أذى في سبيل الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقويةٌ لقلبه. ولأتباعه في الدعوة إلى الله أسوة به في هذا.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٧- نهي الله- عز وجل- لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين أهل الإثم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، وهو نهي له ﷺ وللمؤمنين.

٨- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ بذكره بصلاة الفرائض والنوافل وأنواع الذكر في أول النهار وآخره وفي جميع الأوقات وبقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٩- ذم الذين انشغلوا بالدنيا العاجلة الفانية عن الاستعداد ليوم القيامة الثقيل وما فيه من الأهوال العظام والفضائح الجسام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

١٠- تذكير المكذبين والناس عامة بنعمة الله - تعالى - عليهم بخلقهم وتقويتهم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.

١١- إثبات قدرة الله - عز وجل - على تبديلهم بغيرهم أو إنشائهم خلقًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

لأن القادر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى.

١٢- أن هذه السورة تذكير وموعظة فيها بيان طريق الحق، والأمر باتباعه، وبيان طريق الشر، والنهي عن سلوكه، وبيان ما أعده الله من الجزاء لأتباع كل من الطريقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾.

وهكذا كل سور القرآن الكريم وآياته فيها الوعظ والتذكير بهذا.

١٣- أن الإنسان ليس مجبورًا على فعله بل له اختيار ومشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الخلق مجبرون على أفعالهم.

١٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

١٥- إثبات المشيئة التامة النافذة لله – عز وجل-، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله – عز وجل – لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

وفي هذا رد على المعتزلة القدرية القائلين بأن الخلق يخلقون أفعالهم، وأنهم قد يشاؤون ما لا يشاؤه الله؛ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

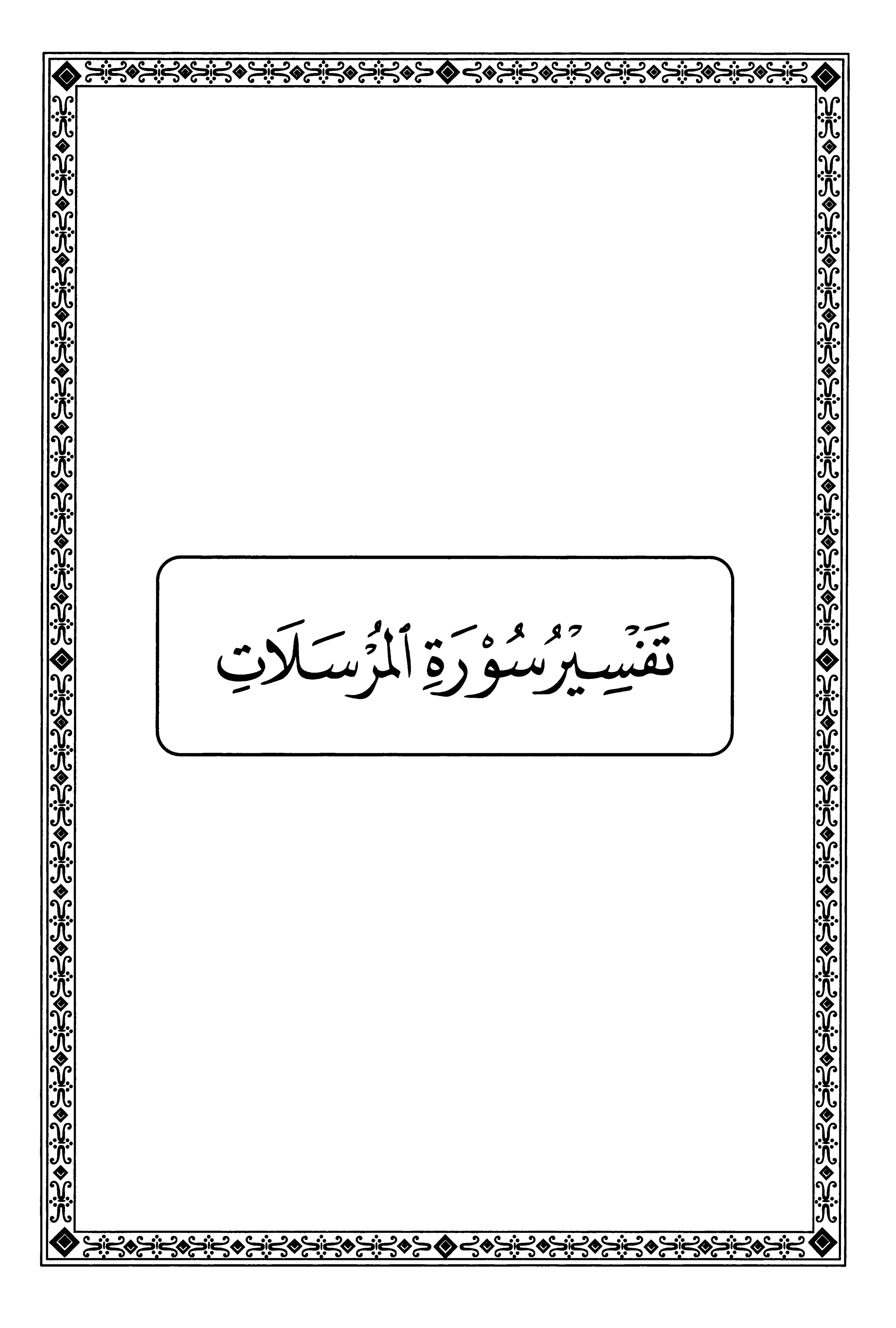
١٦- إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾.

١٧- إثبات الحكم التام النافذ لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات الحكمة البالغة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

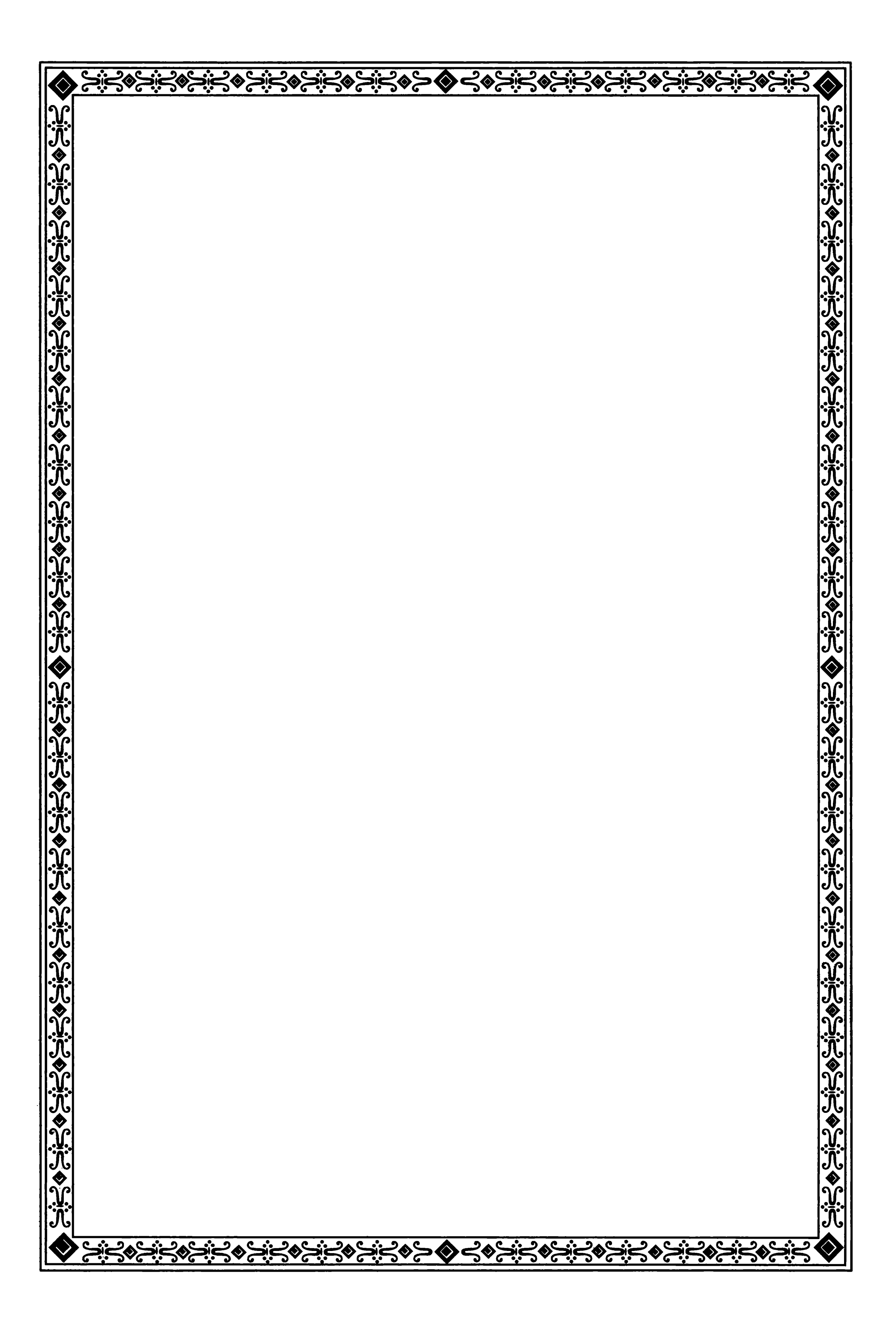
١٨- في اتصافه عز وجل بالعلم الواسع، والحكمة والحكم التامين اجتماع كمال إلى كمال وبلوغه عز وجل غاية الكمال.

١٩- الوعد للمؤمنين بإدخالهم رحمته وجنته، والوعيد للظالمين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

* * *



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ



# المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المرسلات»؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾.

وتسمى: «سورة والمرسلات عرفًا»، كما جاء في حديث ابن عباس عن أم الفضل رضي الله عنهما، وفي بعض روايات حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## جـ- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها[(١)].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «أن أم الفضل- رضي الله عنها سمعته يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فقالت: يابني ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»[(٢)].

## د- موضوعاتها:

١- أقسم الله عز وجل في هذه السورة بالمرسلات وما عطف عليها على أن البعث والحساب حق: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

٢- ذكر أهوال يوم القيامة وما فيه من التقريع والتهديد للمكذبين: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٣٠، وفي بدء الخلق ٣٣١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- القراءة في المغرب ٧٦٣، ومسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٦٢، وأحمد ٦/ ٣٣٨.

﴿الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)﴾، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

٣- وعد المتقين بما أعد لهم من الكرامة والنعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، «والمرسلات»: مقسم به مجرور، وكذا ما عطف عليه وهي: العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات.

والمراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

فالمرسلات عرفًا هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿عُرْفًا﴾، أي: يتبع بعضها بعضًا، شيئًا فشيئًا.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

ووصفت الرياح بكونها عاصفات؛ لأنها تهب وتعصف، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت.

وعَطْفُ العاصفات بفاء التعقيب على المرسلات يدل على أنهما نوع واحد.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾: هي الرياح تنشر السحاب في آفاق السماء- كما يشاء الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر: ٩]،

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالمرسلات: الملائكة.

والأظهر أن المراد بها الرياح، ويؤيده عطف العاصفات والناشرات عليها.

وكذا قيل المراد بالناشرات: الملائكة تنشر كتب بني آدم، أو تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وغير ذلك.

وقيل: المراد بالناشرات الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾.

المراد بالفارقات: الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل، الذي به التفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿فَرۡقٗا﴾، أي: تفريقًا واضحًا، لا لبس فيه، يميز الحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام، كما قال عز وجل في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: بأمر الله الذي أنزله ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل المراد بالفارقات: الرياح تفرق السحاب ههنا وههنا، لكن عطف: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ عليه بفاء التعقيب يضعفه بل يأباه.

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾: الملائكة تلقي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام الذكر وهو الوحي الذي أوحاه الله إليهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ منصوبان على المفعول له، و «أو» عاطفة، أي: لأجل الإعذار والإنذار.

ومعنى ﴿عُذۡرًا﴾، أي: إقامة للحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى ﴿نُذْرًا﴾، أي: تخويفًا وتحذيرًا للخلق من عذاب الله، كما قال عز وجل: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

فالله عز وجل أرسل الرسل، وأنزل الكتب للإعذار وإقامة الحجة على الخلق، ولإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله عز وجل وتبشير من آمن منهم بما أعده الله للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه فأقسم الله- عز وجل- بهذه الخمس وهي: المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات على أن ما يوعدون من البعث والحساب والجزاء لواقع، أي: كائن لا محالة متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

أي: أقسم عز وجل بالرياح التي فيها حياة الأرض والنبات والأبدان وبالملائكة التي تنزل بأمر الله بالتفريق بين الحق والباطل وتلقي الذكر الذي به حياة القلوب على أن البعث حق.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل على أن البعث والقيامة حق ثم ذكر بعض أهوالها في هذه الآية وما بعدها.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، أي: ذُهب بها ومحي نورها وضوؤها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

والمعنى: فإذا النجوم ذهب ضوؤها وحصلت هذه الأهوال والعلامات المذكورة وقع ما يوعدون.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾، أي: وإذا السماء المحبوكة الخلق التي لا فطور فيها شقت وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال

تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

هكذا تكون حال السماء من عظيم هول ذلك اليوم، وقد كانت محبوكة محفوظة لا فطور فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، أي: وإذا الجبال قلعت من أماكنها وألقيت واستوت مع الأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: ظاهرة لا جبال فيها.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، أي: جعل لهم وقت مؤجل لجمعهم وحان ذلك الوقت كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ الاستفهام: للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أجل جمعها، ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ليوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الرسل وأممهم وبين الحق والباطل وبين العباد في حقوقهم، ويحاسب كلًا منهم منفصلًا منفردًا كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: توكيد وتعظيم وتفخيم وتهويل لأمره، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل هو يوم ثقيل عظيم عسير إلا على من يسره الله- تعالى- عليه.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة تهديد ووعيد وهلاك ويقال: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه- رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»(١).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم الفصل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل وما جاؤوا به من الحق، أي: ويل لهم من عذاب الله ذلك اليوم، ويا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم.

وقد ذكر عز وجل هذا الوعيد والتهديد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات في هذه السورة، بعدما أقسم على البعث والمعاد بالرياح والملائكة، وذكر بعض أهوال يوم القيامة وعظمها واستدل عليه بالخلق الأول ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ وفي ذلك أبين دليل وأظهره على صحة ما أقسم عليه ولهذا كان المكذب به في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

### الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالرياح والملائكة على أن البعث والجزاء على الأعمال حق، ولله- عز وجل- أن يقسم بها شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥- ٦، ٧.

فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

٢- كثرة فوائد الرياح، وعظمها، وفضل الملائكة وعظم أعمالهم.

٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٤- التحذير من عذاب الله- عز وجل، ومن القيامة وأهوالها الشديدة ومنها انطماس النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

٥- تحديد وقت لجمع الرسل وأممهم للفصل بينهم أجل ليوم الفصل العظيم الشديد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين في ذلك اليوم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

توعد الله المكذبين بالعذاب الأخروي يوم القيامة، ثم توعدهم بالعذاب الدنيوي بأن يوقع بهم ما أوقع بالمكذبين المجرمين قبلهم من الإهلاك في الدنيا.

قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه: التقرير، أي: أما أهلكنا الأولين من المكذبين للرسل من الأمم الماضية بأنواع العقوبات في الدنيا.

كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أشباههم من المكذبين بعدهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الإهلاك نفعل بالمجرمين، أي: نعاقبهم من الأولين والآخرين.

فبين عز وجل أن سنته السابقة واللاحقة إهلاك المجرمين ليعتبر اللاحق بالسابق.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة بالنار.

وقد يحمل على الوعيد بالعذاب الدنيوي بالإهلاك والعذاب الأخروي بالنار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما أوجدناكم أيها الآدميون من ماء حقير ضعيف، وهو المني، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥- ٧].

وعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله- عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه»[١].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: فجعلنا هذا الماء ﴿فِي قَرَارٍ﴾، أي: في مكان استقرار تام، وهو الرحم به يستقر وينمو.

﴿مَّكِينٍ﴾ متمكن في الرحم، حفيظ لما أودع فيه، في جو معتدل بعيد عن الحر والبرد، وعن المؤثرات.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: إلى وقت مقدر معلوم ومدة معينة تسعة أشهر أو أكثر أو أقل، والغالب تسعة أشهر، وقد يولد لعارض لستة أشهر ويعيش، وقد يولد لأكثر من ذلك. وقد رُويَ أن الضحاك بن مزاحم ولد وله سنتان بعدما خرجت أسنانه.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي بتشديد الدال: « فقدَّرنا».

وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿فَقَدَرْنَا﴾.

أي: فقدرنا على ذلك الخلق، وعلى تقديره وغيره.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾: امتداح من الله عز وجل- لنفسه- وهو أهل المدح والثناء والمجد سبحانه، أي: فنعم القادرون نحن على خلق ذلك، وعلى خلق غيره وتقديره، وعلى إعادة الخلق بعد فنائه.

وفي هذه الآيات من قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تذكير للخلق بأصل خلقهم وامتنان عليهم، وبيان قدرته عز وجل على إعادة خلقهم بعد فنائهم؛ ولهذا جاء بعده الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما جعلنا الأرض كفاتا، أي: كنًّا ووعاءً للخلق.

﴿أَحْيَآءً﴾، أي: حال حياتكم على ظهرها في الدور والقصور.

﴿وَأَمْوَٰتًا﴾، أي: بعد مماتكم في بطنها في القبور، فهم في حال حياتهم على ظهرها، وبعد مماتهم في بطنها.

فهي مسخرة لهم ومذللة حال حياتهم يسيرون عليها ويعمرونها ويسكنون فوقها ويزرعونها ويستخرجون من خيراتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وهي ستر لهم بعد موتهم تدفن وتوارى في باطنها أجسادهم عن السباع والوحوش، ولئلا تتأذى بها البلاد والعباد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾، أي: وجعلنا في الأرض جبالًا ثابتات عاليات كبيرة عظيمة الارتفاع، هي لها بمثابة الأوتاد لئلا تميد بأهلها وتضطرب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾، أي: ماءً عذبًا زلالًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر: ١٢].

وفيما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾: امتنان على الخلق بتسخير الأرض لهم وجعلها وعاء لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وترسيتها بالجبال، ليتمكنوا من العيش عليها، وفي إنزال المطر وسقيهم منه.

وفي ذلك تذكير بعظيم قدرته- عز وجل- وتذكير لهم بوجوب شكره ولهذا قال بعده: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: ويل ذلك اليوم للمكذبين لرسل الله وكتبه الجاحدين لنعمه المنكرين لقدرته.

**الفوائد والأحكام:**

١- الوعيد والتهديد للمجرمين المكذبين من المتأخرين بإهلاكهم كالمجرمين الأولين، وتقرير أن مصير الجميع الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٢- تذكير الإنسان بأصل خلقه ونعمة الله عليه في ذلك، وأنه خلق من ضعف وحقارة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار بشرًا سويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢)﴾.

٣- عظم قدرة الله عز وجل، وعنايته بالإنسان وأطوار خلقه، وظهور أثر عنايته به وقدرته- عز وجل- في تقدير قراره في الرحم في بطن أمه إلى قدر معلوم.

٤- إثبات قدرة الله عز وجل، التامة على الخلق الأول، وعلى الخلق الثاني من باب أولى وأحرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾.

٥- تذكير الخلق بنعمه عز وجل- عليهم وبدلائل قدرته حيث جعل الأرض لهم وعاءً حال حياتهم على ظهرها، وفي بطنها بعد مماتهم، وأرساها بالجبال، وسقاهم ماءً فراتًا عذبًا زلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا (٢٧)﴾.

٦- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق من الآيات بعض علامات القيامة وتوعد المكذبين بالعذاب في ذلك اليوم ثم فصل ما توعدهم به من العذاب في هذه الآيات.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: يقال لهم، أي: للمكذبين بالبعث والجزاء على الأعمال والجنة والنار ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: اذهبوا مسرعين إلى الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، أي: انطلقوا إلى النار.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: امضوا واذهبوا مسرعين إلى ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، وهو ظل لهب ودخان النار إذا ارتفع وصعد، فمن شدته وقوته ينشعب ويتمايز إلى ثلاث شعب، أي: ثلاث قطع من النار، وهو الذي قال الله فيه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، أي: أن هذا الظل وهو ظل لهب النار والدخان ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: ولا يدفع ولا يقي من لهب النار لمن هو فيه.

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ إنها، أي: النار، تقذف بشرر عظيم يتطاير من لهبها ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾، أي: كالبناء والقصور العظيمة.

وقيل المراد بالقصر: الغليظ العظيم من الخشب كأصول الخشب والنخل.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «جُمالات» بضم الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم بغير ألف بعد اللام على الإفراد.

وقرأ الباقون: «جِمالاتٌ» بكسر الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.

أي: كأنه الجمال السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، مما يدل على شدة ظلمة النار ولهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء.

وقال بعضهم المراد بقوله: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ﴾: حبال السفن.

ولما ذكر عظم النار وشدة أهوالها أتبع ذلك بالوعيد والتهديد فقال: ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي: لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٥].

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، أي: ولا يؤذن لهم بالاعتذار، فيعتذرون؛ لأنه لا عذر لهم في الحقيقة، بل قد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولو اعتذروا لم ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[غافر: ٥٢].

ولا ينافي هذا ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٢- ٦٤].

إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك أن عرصات القيامة حالات ومواقف ففي حالات ومواقف لا ينطقون، وفي حالات ومواقف أخرى يتكلمون، وهكذا.

وبعد أن نفى نطقهم ذلك اليوم وعدم الإذن لهم ليعتذروا أكد الوعيد والتهديد لهم فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: يوم الفصل بين العباد، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل بينهم في المظالم بإنصاف المظلوم من الظالم، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما جاء في الحديث[(١)] ومحاسبة كل منهم منفصلًا منفردًا

﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ الخطاب للمكذبين من هذه الأمة.

﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ المكذبين من الأمم السابقة، يجمعهم الله عز وجل يوم جمع الخلائق كلها في صعيد واحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ الكيد: هو الحيلة والمكر بخفية، أي: إن كان لكم حيلة وطريق للتخلص من قبضتي وعذابي فافعلوا، وأنى لهم ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

فقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ مجرد تحدٍ وتهديد لهم؛ ولهذا أكد التهديد بعده بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وإلا فهو- عز وجل- لا يكيده أحد بل يكيد الكائدين- كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه- عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٢٥٧- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

**الفوائد والأحكام:**

١- تبكيت المكذبين وتعذيبهم في النار حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾.

٢- عظم عذاب النار وحر ظلها وشدة لهبها وكبر شررها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾.

٣- تأكيد وعيد المكذبين وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤- إلجام أفواه أهل النار فلا ينطقون وعدم الإذن لهم في الاعتذار فيعتذورن؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦﴾.

٥- جمع المكذبين من هذه الأمة وممن قبلهم وتحديهم بأن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمكذبين من ألوان العذاب، ثم ذكر ما أعده للمتقين من ألوان النعيم- على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه الي الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في ظلال الجنة وعيونها، التي ظلها ظليل، وعيونها التسنيم والسلسبيل.

قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذا بخلاف الذي أعد للمكذبين والذي وصفه الله بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ وبقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

وبخلاف من قال الله فيهم: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٤، ٥].

﴿وَفَوَٰكِهَ﴾، أي: وفواكه كثيرة مختلفة متنوعة.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من الذي يشتهون، فما طلبوا وجدوا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾، أي: يقال لهم تكريما لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ والهنيء: اللذيذ

الطعم، محمود العاقبة، من غير منغص ولا مكدر، فليس فيه آفة من الآفات، ولا ينقطع ولا يزول.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم الصالح؛ لأن العمل سبب لدخول الجنة وليس بعوض عن دخول الجنة، وإنما دخولها برحمة أرحم الراحمين- كما قال ﷺ «لن يُدْخِل أحدَكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إنا كذلك، أي: كهذا الجزاء والتكريم العظيم نجزي الذين أحسنوا العمل، فجمعوا بين الإخلاص لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، وأحسنوا في عبادة الله- عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله.

وفي قوله- عز وجل لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تكريم لهم ونعيم معنوي يخالط شَغاف قلوبهم، لا يقل عما هم فيه من النعيم الحسي- نسأل الله- تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: تأكيد لوعيد المكذبين.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين وتهديد لهم ووعيد، أي: كلوا وتمتعوا مدة قليلة وهي بقية أعماركم في هذه الدنيا الفانية، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: إنكم مرتكبون للجرائم من الكفر وأنواع الجرائم، أي: فليس

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

لكم إلا هذا المتاع القليل الحقير في الدنيا، ثم مصيركم إلى النار؛ ولهذا قال بعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: إذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين صلوا مع المسلمين، وأدوا أعظم العبادات وأشرفها وهي الصلاة، أبوا وامتنعوا كفرًا وعنادًا واستكبارًا؛ ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن- كلام الله- عز وجل- فبأي كلام بعده يؤمنون. أي: أنهم لن يؤمنوا كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

رُويَ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فقرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل»(١).

**الفوائد والأحكام:**

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

٢- بيان ما أعده الله- عز وجل- للمتقين المحسنين من ألوان وأنواع النعيم الحسي من الظلال والعيون والفواكه والمآكل والمشارب، ومن النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة والترحيب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٢٥.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

٣- الترغيب بتقوى الله- عز وجل- والإحسان في عبادته وإلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾.

٤- توبيخ المجرمين وتهديدهم ووعيدهم، فهم وإن أكلوا ومتعوا قليلًا فمردهم إلى العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)﴾.

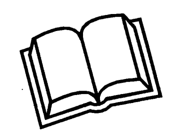
٥- امتناع المكذبين المجرمين من الصلاة والركوع والسجود لله- عز وجل وهذا من أعظم أسباب عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

٦-أن القرآن الكريم هو أفضل كتب الله- عز وجل- وأبلغها أثرًا في الدعوة إلى الإيمان، وأن من لم يؤمن بالقرآن فلا سبيل له إلى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

* * *

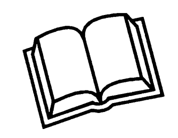
# فهرس الموضوعات

* * *



# مفكرة





# مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958